وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة محمد خيضر – بسكرة –
كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم الأدب العربي

# شعر أبي حمّو موسى الثّاني الزّياني
# (دراسة موضوعيّة وفنيّة)

بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في الأدب الجزائري القديم

إعداد الطالبة:
* بلعيدي سهيلة

إشراف الدكتور:
* فورار امحمد بن لخضر

لجنة المناقشة

| الرقم | اللقب و الاسم | الرتبة | الجامعة | الصفة |
|---|---|---|---|---|
| 1 | مفقـودة صالح | أستاذ التعليم العالي | بسكرة | رئيسا |
| 2 | فورار امحمد بن لخضر | أستاذ محاضر | بسكرة | مشرفا ومقررا |
| 3 | تبرماسين عبد الرحمن | أستاذ التعليم العالي | بسكرة | ممتحنا |
| 4 | عـاليه علي | أستاذ محاضر | بـاتنة | ممتحنا |

السنة الجامعية: 1428 هـ – 1429 هـ
2007 م – 2008 م

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

«رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ »

الأحقاف (46: 15)

# فهرس الموضوعات

# الفهـــرس

# مقدمــــة

# مقدّمـــة

يعدّ الأدب الجزائري القديم، من المواضيع التي عانت من العزلة والنّسيان، زمنا طويلا، وكثر التّساؤل حول وجوده أصلا، لعدّة اعتبارات تاريخيّة وثقافيّة، ميّزت منطقة المغرب العربي في القرون الماضية، لكنّ هذا الأدب، بزغ نجمه في الآونة الأخيرة، وطرح نفسه بقوّة على السّاحة الثّقافيّة الجزائريّة، بفضل رجال حملوا لواء إحياء تراثنا الثّقافي الجزائري، المغيّب بقصد ودون قصد، فثقافة أيّ شعب، لا يتمّ بناء صرحها، إلاّ باجتماع إنتاج أجيال متعاقبة، وبذلك تحدّد ملامح أمّة معيّنة، تتّخذ الماضي منطلقا لصنع الحاضر، ثمّ تستند عليهما معا، من أجل التطلّع إلى مستقبل أفضل.

و يبقى الأدب الجزائريّ القديم، في أمسّ الحاجة إلى الدّراسة الأكاديميّة، التي تزيح الغبار عنه، وتخرجه إلى النّور، حتّى تتعرّف الأجيال الجديدة، على الميراث الأدبي الكبير، الذي خلّفه الأجداد.

لقد ضمّ أدبنا القديم، شعراء وخطباء لامعين، أجادوا وتفوّقوا، فاستقبلتهم قصور الملوك والأمراء، وسجّل التّاريخ أسماءهم وحفظها، في انتظار الكشف عنها وإعادة إحيائها من جديد، خدمة للثّقافة الجزائريّة، بل والعربيّة أيضا.

من هنا، تولّدت الرّغبة للمساهمة في خدمة هذا التّراث، خاصّة وأنّني أنتمي إلى دفعة، نالت الحظّ والشّرف في أن تتخصّص بالأدب الجزائري القديم.

وقد وقع الاختيار، على الملك الشّاعر أبي حمّو موسى الثّاني، لما لهذه الشّخصيّة من خصوصيّة، وأهميّة في تاريخ الجزائر في القرن الثّامن الهجريّ، واستقرّ الرّأي على أن يكون موضوع البحث: « شعر أبي حمّو موسى الثّاني الزّياني» دراسة موضوعيّة وفنيّة، بحيث يتمّ الولوج إلى هذا الشّعر، بالوقوف على أغراضه المتعدّدة، إلى جانب محاولة الكشف عن ماهية بنيته الفنيّة، فكان هذا البحث تلبية لعدّة أسباب ذاتيّة وموضوعيّة، نذكر منها:

السّبب الأوّل: اقتناعي التّام، بأنّ الباحثين في مجال الأدب، يتحمّلون مسؤوليّة المحافظة على التّراث الأدبيّ الذي وصل إلينا، وإخراجه إلى النّور، وإلاّ تعرّض للإهمال، وربّما الضّياع والاندثار.

السّبب الثّاني: محاولة وضع التّجربة الشّعريّة لدى أبي حمّو على المحكّ النّقدي، علّي أساهم في التّعريف بأدبنا الجزائري القديم لإخراجه من دائرة الظلّ التي حبس فيها.

السّبب الثّالث: قلّة البحوث التي تتناول الأدب الجزائري القديم مقارنة بغيره، بالرّغم من وفرة المادّة الأدبيّة، التي تتّسم بالجودة غالبا.

السّبب الرّابع: ضرورة اطّلاع الأجيال على كنوز الأدب القديم، والعمل على إيصاله إلى القارئ الجزائري والعربي، لعلّ هذا التّراث يحضا بمحاولات أخرى تهتمّ بجمعه، ثمّ دراسته وتقييمه، حتّى يرقى أدبنا إلى المكانة التي يستحقّها.

وقد تمّ الاستعانة بأكثر من منهج واحد، لخوض مغامرة البحث، فكان المنهج التّاريخيّ صالحا لتتبّع الجوانب السّياسيّة والاجتماعيّة والثّقافيّة لعصر الشّاعر، كم أنّه كان ضروريّا من أجل التّعريف بحياة الشّاعر، أمّا المنهج الوصفي والتّحليلي فكانا أداة إجرائيّة مرنة، سمحت بالغوص في أعماق النّصوص الشّعريّة، ومحاولة فتح قناة للحوار مع النصّ، إضافة إلى المنهج الفنّي بمفهومه الكلاسيكي والمنهج الإحصائي، وذلك تلبية لحاجة البحث وأهدافه.

واقتضى عنوان البحث، أن أتبّع الخطّة التّالية:

مدخل يعالج الخلفيّة التّاريخيّة لعصر الشّاعر، من خلال التّعريف بالجوانب السّياسيّة والاجتماعيّة والثّقافيّة له، فعملت على تلخيص أهمّ الأحداث السّياسيّة التي عاصرها الشّاعر في المغرب الإسلامي خاصّة، باعتبار أنّ أبا حمّو ينتمي إلى هذه المنطقة، بل يعدّ أبرز صانعي الأحداث فيها.

كما تعرّضت للجانب الاجتماعي، نظرا لما له من انعكاس واضح على نشاط الحركة الفكريّة والأدبيّة، ولم يفتني في المدخل نفسه، أن أستعرض حالة الحركة الثّقافيّة التي ميّزت عصر الشّاعر، خاصّة وأنّ أبا حمّو كان من أكثر الملوك الزّيانيّين تشجيعا للعطاء العلمي والأدبي، حيث عرف عصره نهضة ثقافيّة، تعدّ الأنشط في تاريخ المملكة الزيانيّة.

وبعد هذا المدخل، قسّمت البحث إلى ثلاثة فصول، فخصّصت الفصل الأوّل لحياة الشّاعر، وقد عالج ثلاث نقاط: أوّلا مولد أبي حمّو ونشأته وتعليمه، وأهمّ المحطّات التي ميّزت حياته، وحاولت الوقوف عند أهمّ العوامل في ظهور ملكته الشّعريّة، ثمّ عرّجت في النّقطة الثّانية على حياته كملك، وآخر النّقاط اهتمّت بأبي حمّو كشاعر.

أمّا الفصل الثّاني من هذا البحث، فقد عني بشعر أبي حمّو، وقد قسّمته إلى خمسة عناصر: الشّعر السّياسي، الذي تضمّن شعر الأحداث السّياسيّة ووصف المعارك، إلى جانب شعر الوعد والوعيد، بالإضافة إلى شعر الفخر، والرّثاء، وشعر المولديّات، وأخيرا عنصر أسميته أغراضا أخرى، حيث وقفت فيه على بعض الأغراض الشّعريّة الواردة في ثنايا الأغراض السّابقة، ولم تستقل بقصائد معيّنة، إذ دفعتني كثرة الأبيات فيها وجودتها غالبا إلى تخصيص عنصر خاصّ بها، وقد تمثّلت هذه الأغراض في: الغزل، الوصف، والحكمة.

وأخيرا، الفصل الثّالث، والذي خصّصته لدراسة شعر أبي حمّو، وتتبّع الخصائص الفنيّة التي ميّزته، وقد بدأته بالهيكل العام لقصيدة الشّاعر بما فيه من مقدّمة، وموضوع رئيسي وخاتمة.

أمّا ثاني عنصر، فجعلته للّغة والأسلوب، فقسّمت اللّغة الشّعريّة إلى ثلاث نقاط: اللّغة الشّعريّة والأثر الإسلامي، واللّغة الشّعريّة بين الرقّة والجزالة، واللّغة الشّعريّة بين الحسيّة والمعنويّة، أمّا الأسلوب، فقد تضمّن عنصرين: شيوع الأسماء والتّكرار اللّفظي.

وقد عني العنصر الثّالث من الفصل الأخير، بالصّورة الشّعريّة، واهتممت فيها بقسمين رئيسيّين، ضمّ كلّ قسم منهما نقاط متعدّدة، فكان القسم الأوّل حول مصادر الصّورة، وارتأينا أن يشمل أوّلا: المصدر القرآني، وثانيا الشّعر القديم، بينما اختصّ القسم الثّاني بأنواع الصّورة، وقد تضمّن أوّلا: الصّورة البيانيّة التي تناولت التّشبيه والاستعارة، وثانيا الصّورة البديعيّة والتي عنيت بالطّباق والجناس.

وكان آخر عنصر في الفصل الثّالث، منصبّا على الموسيقى الشّعريّة، وقد قسّم بدوره إلى عنوانين رئيسيّين: أوّلا: الموسيقى الخارجيّة، حيث عرّجنا فيها على الوزن والقافية، ثانيا: الموسيقى الدّاخليّة، والتي اهتمّت بالتّنويع الموسيقي، فتضمّنت الزّحافات والعلل، التّصريع، والتّرصيع، وأخيرا التّشاكل الصّوتي.

وانتهى البحث بخاتمة، أوردت فيها، جملة من النّتائج التي توصّلت إليها، ثمّ أعقبتها بقائمة المصادر والمراجع، التي أمدّتني بالمادّة العلميّة المطلوبة، حيث استعنت أوّلا: بمجموعة مصادر ضمّت شعر أبي حمّو وهي: "أبو حمّو موسى الزّياني (حياته وآثاره)" لحاجيات عبد الحميد، إذ يعدّ أهمّ مصادر الشّعر، لأنّ المؤلّف عمل في كتابه، هذا على جمع شعر أبي حمّو الذي وصلنا وحقّقه، وإلى جانب هذا المصدر، اعتمدت على "واسطة

السّلوك في سياسة الملوك" لأبي حمّو موسى الثّاني، وقد تضمّن عددا من القصائد فقط، بالإضافة إلى "بغية الروّاد" ليحي بن خلدون.

أمّا مصادر المادّة العلميّة، فمن أهمّها " العمدة" لابن رشيق، و"تاريخ بني زيّان ملوك تلمسان" للتنسي و"منهاج البلغاء وسراج الأدباء" للقرطاجني.

أمّا المراجع والدّراسات، فقد استعنت بـ "الصّورة الفنيّة في التّراث النّقدي والبلاغي" لجابر عصفور، و"موسيقى الشعر" لإبراهيم أنيس، و"بناء القصيدة في النّقد الأدبي" لحسين بكّـار.

كما أفدت من بعض الرّسائل الجامعيّة مثل: "بناء القصيدة المولديّة في المغرب الإسلامي" رسالة دكتوراه لمحمّد زلاقي، و"الشّعر الزّياني" رسالة ماجستير لنوار بوحلاسة.

ولم تخل رحلة البحث، من بعض الصّعاب، خاصّة في جمع المادّة العلميّة، والبحث عن مصادر المادّة الشّعريّة، ومردّ ذلك قلّة المصادر، وصعوبة الحصول عليها، بالإضافة إلى تمنّع النّص الشّعري أمام الدّراسة المستخدمة، ممّا يتطلّب الجهد والوقت، ولكن، وعلى الرّغم من مشاق البحث، إلاّ أنّني استمعت بكلّ لحظة أتمكّن فيها من اجتياز أحد عناصر البحث أو الكشف عن كنهه.

وإن كنت– والحمد لله – قد وصلت بالبحث إلى صورته النّهائيّة، فالفضل بعد الله تعالى، إلى الأستاذ المشرف الدكتور فورار امحمد بن لخضر، الذي لم يبخل عليّ بالتّوجيه والنّصح ورحابة الصّدر، فله منّي كلّ مشاعر الشّكر والعرفان، وغلى كل من ساعدني في إنجازه ولو بكلمة طيّبة، لهم جميعا أتقدّم بالشّكر الخالص، كما أرفع خالص امتناني إلى قسم الأدب العربي، جامعة – محمّد خيضر– بسكرة إدارة وأساتذة وعمّالا.

ولا يفوتني، أن أتقدّم بأسمى عبارات الشّكر إلى السّادة الأفاضل، أعضاء لجنة المناقشة، لأنّهم اقتطعوا من وقتهم الثّمين، لتجشّم عناء قراءة هذه المذكرة، والوقوف عند مواطن النّقص والخطأ فيها من أجل استدراكها.

أخيرا، أسأل الله تعالى، بعد حمده وشكره السداد وملامسة الصواب، ومع أنّ هذا البحث، لا يعدّ إلاّ مساهمة بسيطة في خدمة تراثنا الجزائري فحسبي أنّني اجتهدت وأخلصت النيّة، والله وحده أسأل التّوفيق.

# مدخل

## عصـــر الشّاعـــر

يجدر بنا قبل أن نتطرّق إلى حياة شخصيّة جزائريّة ثريّة كأبي موسى الثّاني؛ كونه ملكا وشاعرا بل وقائدا عسكريّا أيضا، وقبل تناول شعره أو الأصح ما وصل إلينا منه بالدّراسة والتّحليل، أن نعرّج قليلا صوب تلك الظّروف المختلفة التي ميّزت مكان وزمان الملك الشّاعر خلال الفترة الّتي تربّع فيها على عرش تلمسان، وهو ما أردناه أن يكون مدخلا تاريخيّا؛ يتضمّن الجانب السّياسي والاجتماعي والثّقافي لعصر الشّاعر.

تلك الجوانب الثّلاث ستسمح بإكمال رسم الصّورة التّاريخية التي سيبحث فيها الفصل الأوّل عن ملامح الإنسان والملك والقائد العسكرّي والشّاعر في أبو حمّو موسى الثّاني.

وعليه ستكون هذه اللمحة كَمَثَلِ أوّل قطر الغيث، بها يربو استيعاب ما هو آتٍ، إذ إنّ دراسة إنتاج أيّ شاعر لا تكون كاملة إلاّ بخلفيّة تاريخيّة، تخبر عن كينونة أحواله وأحوال زمانه، خاصّة إن كان الشّاعر ملكا أيضا، كما هو الحال مع أبي حمّو، ومن ثمّ سيسهل فهم إنتاجه الأدبي شعرا كان أو نثرا، وكما يقول المؤرّخ عبد الرّحمن بن خلدون عن التّأريخ «اعلم أنّ فنّ التّأريخ فنّ عزيز المذهب، جمّ الفوائد، شريف الغاية، إذ يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم والملوك في دولهم وسياستهم»(1).

*** الجانـب السّياســي:**

لقد اعتلى أبو حمّو موسى الثّاني عرش تلمسان وسط اضطرابات مختلفة عصفت بالمغرب الإسلامي كلّه.

ولعلّ أهم أسباب تلك الأحداث السّياسيّة المقلقة، تنازع مملكتين قويّتين إذ «أنّ موقع الدّولة التي شيّدها بنو عبد الواد، قد جرّ عليها الويلات والدّمار، لأنّها قامت في قطر محصور بين دولتين منافستين لها، الدّولة الحفصيّة في الشّرق (...) والدّولة المرينيّة في الغرب»(2) فهاتان الدّولتان استشعرتا الخطر ببزوغ نجم بني عبد الواد من جديد خاصّة مع ملك قويّ وطموح كأبي حمّو، وهو وريث أجداده في كلّ شيء إذ «كان ملوك آل زيّان يفوقون بني مرين والحفصيّين حربيّا وسياسيّا»(3).

---

(1)عبد الرحمن ابن خلدون. المقدمة. دار صادر. بيروت. ط1. 2000. ص15.

(2)محمود بوعياد. جوانب من الحياة في المغرب الأوسط. الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع. الجزائر. د ت. ص16.

(3)مبارك بن محمد الميلي. تاريخ الجزائر في القديم والحديث. مكتبة النّهضة الجزائريّة. الجزائر. 2004. ج2: ص454.

وأمّا بنو حفص فقد كانت أيّام سلمهم مع الزيّانيّين أكثر من الحرب، حتّى أنّ الملك أبا حمّو موسى الثّاني، قد انطلق من عاصمة ملكهم، وبإيعاز وتشجيع منهم غازيا ليفتكّ عرش أجداده المسلوب في تلمسان من بين يدي بني مرين، لكنّ لا يخلو الأمر من حزازات كان سببها التّنافس حول بعض مدن الشرّق الجزائري، كبجاية وضواحيها، لذلك «تدارك بنو حفص الخطر بصرف بني مرين إلى محاربتهم»[1]، حتّى لا تقوى شوكة الدّولة الزّيانيّة التي ضمّت إليها معظم مدن الغرب الأوسط المعروفة وقتئذ، والتي لن تجبن في طلب ما بقي منها بين يدي الحفصيّين.

لقد أعان الحفصيّون أبا حمّو موسى على استرجاع ملك تلمسان، وبعث الدّولة العبد واديّة من جديد تجنّبا لخطر المرينيّين، الذين ما فتئوا يناورون من أجل القضاء على الدّولة الوحيدة آنذاك، التي كانت تشاركهم السّيطرة على أهمّ مراكز المغرب الإسلامي.

لكنّ عندما أظهر أبو حمّو رغبته في إعادة رسم خريطة المغرب الأوسط بتوسيع رقعة دولته، أدرك الحفصيّون مدى سوء تقديرهم للأمور، إذ إنّهم بفعلتهم تلك أضافوا إلى قائمة أعدائهم عدوّا آخر لا يؤتمن جانبه أبدا.

لم تكن العلاقة مع بني مرين كسابقتها تتأرجح بين مدّ وجزر، ولكنّه العداء الشّديد والمتأصّل عبر تاريخ علاقات الدّولتين، بل والقبيلتين من قبل، لأنّ «عداء بني مرين وبني عبد الواد قديم له جذوره الضّاربة في أعماق التّاريخ فبنو عبد الواد بطن من بطون بني بادين الخمسة، وبنو بادين هؤلاء كانوا في صراع دائم مع بني مرين، وكانت الغلبة دائما لبني بادين[2] لكثرة عددهم» [3].

هؤلاء الجيران المدفوعون بحقدهم القديم، ما برحوا يطمعون في الحصول على ملك بني عبد الواد، وضمّه إلى إمارتهم، لذلك «لم يكن بنو عبد الواد وبنو مرين على اتّفاق، رغم انحدارهم من أصل واحد»[4].

---

[1] شارل أندري جوليان. تاريخ إفريقيا الشّمالية. تعريب محمد مزالي. البشير بن سلامة. الدّار التّونسيّة للنّشر. 1978. 2: ص203.

[2] بنو بادين: بطن من بطون قبيلة زناتة البربريّة. وإليهم تنتمي قبيلة بني عبد الواد. انظر: ابن خلدون. عبد الرّحمان. تاريخ ابن خلدون. دار ابن حزم. بيروت. لبنان. ط1. 2003. مج2: ص2745.

[3] محمّد عيسى الحريري. تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العهد المريني. دار القلم للنّشر والتّوزيع. الكويت. ط2. 1987. ص217.

[4] شارل أندري جوليان. تاريخ إفريقيا الشّماليّة. 203.

ولقد كانت فترات السّلم بين الجارتين قليلة جدّا، في عهد أبي حمّو مقارنة مع فترة حكم هذا الأخير، ذلك «أنّ بني مرين ما انفكّوا يثيرون القلاقل ضدّه وضدّ إمارته الزّيانيّة»[1].

حاول صاحب تلمسان رغم الصّعوبات أن يدافع عن حدود إمارته، بل وأخذ في التّوسّع كلّما واتته الفرصة، ليقيم دعائم دولة قويّة، هذه الدّولة التي «تعدّدت الحروب بينها وبين جيرانها، فكم من مرّة تحالفوا ضدّها»[2].

كانت هذه ملامح ظروف صعبة، أحاطت بعهد أبي حمّو خارج حدود إمارته، لكنّها لم تكن آخر هموم شاعرنا السّياسيّة، فقد عرف عصره كمّا كبيرا من الاضطرابات الدّاخليّة، كان سببها ما أسلفنا ذكره، من حصار سياسي مفروض على المملكة الزّيانيّة من قبل أعدائها الدّائمين الذين أرادوا هزّ أركان الدّولة من الدّاخل بإثارة القبائل العربيّة والبربريّة التي تستوطن المنطقة، وإشعال نار الفتنة، نارا قويّة ودائمة، تعصف بأمن واستقرار حاضرة أبي حمّو موسى.

وعليه فقد كان على وريث عرش تلمسان أن يواجه أوّلا خطر قبائل عربيّة متنازعة فيما بينها، ومتنافسة في التّقرّب إلى السّلطان طمعا في الحصول على امتيازات لها وإقطاعات واسعة[3]، أو مناوأته لنفس الغاية، ولا يَهُمُّ لمن يكون الولاء في الأخير، ما دامت المصلحة متوفّرة، ولذلك فقد تعرّضت الدّولة «إلى هجمات بني هلال البدو المستعدّين دائما لمساندة الغزاة»[4].

كما عانت الدّولة من مناوشات قبائل عربيّة أخرى، امتازت بالقوّة إذ كان أفرادها «يسيطرون على وديان السّاحل الشّمالي للجزائر ويفرضون الأتوات على سكّانه، ولم تكن حكومة الجزائر بالقوّة التي تمكّنها من إخضاعهم» [5]، فقد مارست تلك القبائل نوعا من السّلطة على السّكان من أجل الاستحواذ على خيرات المكان.

---

(1) يحي بوعزيز. المراحل والأدوار التّاريخيّة لدولة بني عبد الواد الزّيانيّة. الأصالة. الجزائر. ع 1975/26. ص21.

(2) محمّد طمّار. تاريخ الأدب الجزائري. الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع. الجزائر. د ت. ص107.

(3) لقد منح أبو حمّو موسى الثّاني القبائل المساندة له إقطاعات واسعة من الأراضي حتّى يضمن ولاءها.

انظر: بوزياني الدّراجي. نظم الحكم في دولة بني عبد الواد الزّيانيّة. ديوان المطبوعات الجامعيّة. الجزائر.1993. ص208.

(4) شارل أندري جوليان. تاريخ إفريقيا الشّماليّة. 202.

(5) السيّد عبد العزيز سالم. المغرب الكبير. العصر الإسلامي. دار النّهضة العربيّة. بيروت. 1981. ص873.

ولا يعني هذا أنّ قبائل العرب هدّدت وحدها استقرار مملكة أبي حمّو داخليّا، بل كانت بعض مثيلاتها البربريّة شريكة لها في ذلك أيضا، فقد «حسدت زناتة بني عبد الواد على نعمتهم فتحالفت عليهم مع أعدائهم»(1)، هذا الحسد الذي جعل قبائل زناتة تكاشف بني عبد الواد العداء مرّات، وتظهر نوعا من الولاء لتضمر المكيدة والاتّفاق مع عدوّ الدّولة مرّات أخرى.

لذلك «ما انفكّ بنو زيّان طيلة قرن كامل يحاولون دون جدوى إخضاع بطون زناتة المستقرّين بوادي شلف والاستحواذ على بجاية»(2) لكنّ تلك الجهود، كانت عديمة الجدوى لصعوبة السّيطرة عليها، وعليه ما استطاع أبو حمّو النّجاح من حيث فشل أسلافه.

و ختمت هذه السّلسلة من المنغّصات الدّاخلية، بعدوّ لدود وضعه بنو مرين في طريق ملكنا الشّاعر، إذ «دفعوا أبا زيّان(3)بن سعيد بن عثمان للثّورة ضدّ أبي حمّو»(4).

لقد استشعر المرينيّون خطر أبي حمّو، فمن أجل دحر جيوشه الآخذة في التّوسّع، وبالتّالي المسّ بحدود الدّولة المرينيّة، ومن أجل تلهيته عنها، استدعى هؤلاء ابن عمّ أبي حمّو، وأغروه لاسترجاع عرش أبيه كما أفهموه فقدّموا له الإمدادات الكافية من الرّجال والعتاد(5).

و فعلا نجح هذا الأخير في تلهية الملك الزّياني عن القيام بأعباء السّلطان في تثبيت دعائم دولته الفتيّة مدّة طويلة، بسبب تكراره للمحاولات الواحدة تلو الأخرى دون فشل.

وترتّب على كلّ ما سبق أن «تعرّضت دولة أبي حمّو لهزّات خطيرة، كادت تقضي على كيان الدّولة نهائيّا»(6)، لولا استماتة الملك الزّياني في الحفاظ على ملكه، نتيجة لما تمتّع به من حنكة سياسيّة وشجاعة عسكريّة.

كان ذلك الملمح السّياسي الدّاخلي والجواري لعصر شاعرنا، وهو كما أسلفنا الذّكر لا يشجّع أيّ ملك، بل لا يمكّنه أيّا كان أن يؤسّس دولة قويّة تنعم بالرّفاهيّة، وتتمتّع بنصيب

---

(1) شارل أندري جوليان. تاريخ إفريقيا الشّماليّة. 202.

(2) شارل أندري جوليان. المرجع نفسه. 203.

(3)أبو زيّان: هو محمّد بن السّلطان أبي سعيد عثمان بن عبد الرّحمان بن يحي بن يغمراسن. ابن عمّ أبي حمّو موسى الثّاني. استخدمه المرينيّون لمزاحمة أبي حمّو. انظر: عبد الرحمان ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. مج2: ص2791.

(4) يحي بوعزيز. المراحل والأدوار التّاريخيّة لدولة بني عبد الواد الزّيانيّة. 21.

(5) انظر: عبد الحميد حاجيات. أبو حمّو موسى الزّياني. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. 1974. ص108.

(6) عبد الرّحمان بن محمّد الجيلالي. تاريخ الجزائر العام. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. ط7. 1994. ج2: ص35.

من الأمن والاستقرار ومنه لا يتسنّى للأدب أن يتطوّر ويزدهر كما يجب له، ولكن مع أبي حمّو حدث العكس.

ولم تكن الأمّة الإسلاميّة في المشرق والأندلس آنذاك بأحسن حال من المغرب الإسلامي، نزاعات داخليّة وفتن قائمة بين الإخوة، أضعفت شوكتهم، ومزّقت صفّ وحدتهم، والأدهى والأمرّ أنّها فتحت شهيّة العالم المسيحي لتحقيق ما صعب عليه من قبل، استباحة المسلمين في عقر دارهم، وإجلاؤهم من الأراضي التّي جاؤوها فاتحين قبل قرون، والقضاء على حكم المسلمين في الأندلس.

وتروي لنا كتب التّاريخ تَمَكُّن الصّليبيّين من الاستحواذ على المدن الإسلاميّة في الأندلس، ولم ينفع مع ذلك المقاومة الشّديدة التي أظهرها المسلمون هناك، ولا الإمدادات التي قدّمها الأشقّاء في المشرق والمغرب.

إذ «كثرت الخلافات والخصومات بين سلاطين الأندلس، فكلّ ذلك كان تشجيعا للعدوّ على الطّمع فيهم(...) يشعل الفوضى بين صفوفهم، ويحاصر المدن ويستولي عليها، الواحدة تلو الأخرى، فلم يبق منها إلاّ غرناطة وأحوازها»[1].

وقد دفعت المأساة الأندلسيّة بإخوة الإسلام هناك إلى الهجرة، هربا من وحشيّة المسيحيّين، وتعطّشهم الشّديد لدماء المسلمين، أولئك المهاجرين الذين «أخذوا يتسلّلون أفواجا نحو المغرب، وكان حظّ الجزائر منهم كبيرا»[2]. فاستوطنوا أهمّ حواضر المغرب الإسلامي، ونالت تلمسان منهم نصيبا كبيرا.

هذا الضّعف الذي ابتليت به الأمّة جمعاء، أفقدها هيبتها، فتطاول عليها حتّى قراصنة النّصارى، الذين أخذوا يغيرون على السّواحل الإسلاميّة، ولم تمنع السّواحل الجزائريّة من تهديداتهم، إذ تمكنّوا من «اعتراض السّفن الجزائريّة والصّديقة لها»[3]، مثلما حدث مع السّفينة الأندلسيّة القادمة إلى تلمسان، محمّلة بالهدايا والتّحف، التي بعث بها أمير بني الأحمر عام 1336م، ولم تكن السّفن وحدها عرضة لهجماتهم، بل كانوا يتخطّفون النّاس أيضا[4].

---

(1) انظر: محمّد طمّار. الرّوابط الثّقافية بين الجزائر والخارج. الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع. الجزائر. 1983. ص177.

(2) محمّد طمّار. المرجع نفسه.177.

(3) يحي بوعزيز. المراحل والأدوار التّاريخيّة لدولة بني عبد الواد الزّيانيّة. 21.

(4) انظر: الجيلالي. عبد الرّحمن. تاريخ الجزائر العام. 2: 184.

وبعد كلّ ما قيل، علينا أن نلاحظ أيّ ظروف سياسيّة تميّز بها عصر أبي حمّو، سواء كانت داخليّة أو خارجيّة، أحوال يصعب معها تفرغه لقرض الشّعر، أو الاشتغال بالأدب، إلا بما تسنّى له من الوقت، في أيّام السّلم والاستقرار، وهي غالبا ما تكون قليلة، لكنّ هذا الملك أبدى بسالة وأظهر عزيمة قويّة على تحقيق طموحاته، والتّصدّي لكلّ المعرقلات خاصّة أعداء الدّاخل، باعتبارهم الأخطر، كما أوجد وقتا للإنتاج الأدبي.

و قد كان «هدف أبي حمّو من التّغلّب على هذه العناصر المناوئة للدّولة في الدّاخل، الرّغبة الشّديدة في نشر الاستقرار في البلاد، فبه يتأتّى له أن يكون دائما على أهبة لردّ كلّ غزو محتمل من الخارج، وبه أيضا يمكنه أن يهتمّ برفع مستوى البلاد، من النّاحية الاقتصاديّة والاجتماعيّة والفكريّة والفنيّة»[1].

كان ذلك مضمون الجانب السّياسي لعصر ملكنا الشّاعر، ورغم سواد المشهد سياسيّا، إلا أنّ أبا حمّو استطاع أن يبدع وأن يشجّع الإبداع في كلّ المجالات.

*** الجانــب الاجتماعــي:**

يتّضح لنا من خلال الاطّلاع على تاريخ الدّولة الزّيانيّة، خاصة زمن حكم السّلطان أبي حمّو موسى الثّاني، أي خلال القرن الثّامن الهجري، أنّ المجتمع في المغرب الأوسط، تكوّن من أصول مختلفة، ممزوجة بعضها ببعض، حيث «كان مجتمع تلمسان وباقي حواضر المغرب الأوسط، يتألّف من السكّان الأصليّين من الأمازيغ وممّن نزل بها من العرب الفاتحين ومن استقرّ بها من القادمين إليها بعد كلّ فتح من الفتوحات، التي قامت بها الدّول التي توالت على هذا القطر من عهد الأدارسة إلى عهد بني عبد الواد» [2].

وقد بني النّظام الاجتماعي على العصبيّة القبليّة، كما هو الشّأن بالنّسبة للقبائل العربيّة مشرقا ومغربا، والقبائل البربريّة في سائر بلاد المغرب، وكان لسجيّتهم تلك آثار سلبيّة على الحياة السّياسيّة في المغرب الإسلامي خاصة الأوسط منه.

وكما هو معروف، ازدهار أيّ مجتمع وتطوّره ورقيّه مرهون بالحالة الاقتصاديّة للبلاد، ومع ما سبق ذكره عن الوضع السّياسي المتردّي للدّولة الزّيانيّة في تلك الحقبة، إلاّ

(1) محمّد طمّار. تلمسان عبر العصور. المؤسّسة الوطنيّة للكتاب. الجزائر. د ت. ص204.
(2) محمّد بوعياد. جوانب من الحياة في المغرب الأوسط. 39.

أنّ وضعها الاقتصادي كان أحسن بكثير، ولعلّ أهمّ ما ميّز اقتصاد الدّولة ازدهار التّجارة فيها، إذ إنّ تجّار تلمسان[1]كانوا يتمتّعون بصيت كبير، حيث وصفوا بالعفّة والنّشاط[2].

أضف إلى تلك السّمعة الطّيّبة لتجّار تلمسان، موقع المدينة الجغرافي وعلاقاتها التّجاريّة مع المغرب والأندلس والبلاد الاستوائيّة، فهم يستوردون سلعا عديدة، ويصدّرون بضائع مختلفة إلى ما وراء الصّحراء، عبر طريق سجلماسة[3]، وصولا إلى تنبكتو وغانا، بل إلى مريتانية والسّينغال ومالي وغانا وغينيا. «و لم تقتصر حركة التجّار على جهة الصّحراء، فوجوههم كانت موالية شطر الأسواق الأوروبيّة، فالسّفن المشحونة بالسّلع تخرج من هنين[4] ووهران[5] وتنس[6] والجزائر وبجاية[7] وعنّابة[8]، قاصدة الأندلس ومرسيلية وموانئ إيطالية.»[9].

إذا فالتّجارة كانت نافقة على أصحابها وعلى خزينة المملكة، ومن ثمّ عمّ الرّخاء أفراد المجتمع الزّياني.

ولم تكن التّجارة كلّ ما امتهنه السكّان، بل إنّ تطوّرها كان مرتبطا بجودة الإنتاج الصّناعي، ووفرة المنتوج الزّراعي، فقد مارس أبناء المجتمع آنذاك الفلاحة أيضا « ويتميّز النّشاط الفلاحي في هذه الدّولة وكما هو الحال في دول المغرب الإسلامي بطابعه

---

[1] تلمسان: مدينة أزليّة لها سور حصين متقن الوثاقة. وهي مدينتان في واحدة. يفصل بينهما سور. انظر الإدريسي. القارّة الإفريقيّة وجزيرة الأندلس. مقتبس من نزهة المشتاق. تحقيق: العربي إسماعيل. ديوان المطبوعات الجامعيّة. الجزائر. 1983. ص149.

[2] انظر: مبارك بن محمد الميلي. تاريخ الجزائر في القديم والحديث. مكتبة النّهضة الجزائريّة. 2004. ج2: ص484.

[3] سجلماسة: مدينة في جنوبي المغرب في طرف بلد السّودان بينها وبين فاس عشرة أيّام تلقاء الجنوب. انظر: الحموي. معجم البلدان. دار صادر للطّباعة والنّشر. دار بيروت للطّباعة والنّشر. بيروت. 1957. مج3: ص192.

[4] هنين: مدينة حسنة صغيرة في نحر البحر. وهي عامرة. كثيرة الزّروع. انظر: الإدريسي. القارّة الإفريقيّة وجزيرة الأندلس. ص254.

[5] وهران: مدينة على مقربة من ضفّة البحر وعليها سور ترابي متقن. وهي تقابل مدينة "مرية" من السّاحل الأندلسي. انظر: الإدريسي. القارّة الإفريقيّة وجزيرة الأندلس. تحقيق: هنري بيريس. الجزائر. 1951. ص158.

[6] تنس: مدينة تقع على مقربة من ضفّة البحر. بعضها على جبل وبعضها في سهل الأرض. تبعد عن تلمسان بسبع مراحل. انظر: الإدريسي. القارّة الإفريقيّة وجزيرة الأندلس. ص152-153.

[7] بجاية: مرفأ بالشّرق الجزائري. لعبت دورا هامّا في تاريخ المغرب. كانت عاصمة بني حمّاد. انظر: الإدريسي. القارّة الإفريقيّة وجزيرة الأندلس. ص160-161.

[8] عنّابة: تقع على شاطئ البحر شرقي الجزائر بين بجاية والحدود التّونسيّة. انظر: التّنسي. تاريخ بني زيّان. ص286.

[9] محمّد طمّار. الرّوابط الثّقافيّة بين الجزائر والخارج. ص237.

الإقطاعي الواسع إذ كانت جلّ الأراضي الزّراعية والرّعويّة (...) عبارة عن إقطاعات للقبائل والعشائر الأمازيغيّة والعربيّة»[1].

هذه الإقطاعات الواسعة أوجبت كثرة في المحاصيل وجودة، فعمّ الخير الوافر أفراد المجتمع، إذ كانت كلّ قبيلة تحقّق الاكتفاء بإنتاج أراضيها، بل وتعرض ما زاد منه للبيع عن طريق تجّار البلاد.

ومن ذلك أيضا التطوّر الكبير الذي عرفته الصّناعة والحرف بتلمسان عاصمة الدّولة، فقد رزق الله هذه الأخيرة صنّاعا وحرفيّين مهرة، غزت شهرتهم جميع الأصقاع.

لذلك فإنّ الازدهار الحاصل في التّجارة والفلاحة استدعى« رقيّ الحرف والصّناعات، وتعدّد أنواعها، فاختصّت كلّ حرفة بسوقها، واشتهرت تلمسان بالمنسوجات، فعرف قماش بالتّلمساني، وهو صوف خالص أو حرير خالص، مختم وغير مختم»[2].

ينبغي أن نلاحظ أنّ المجتمع الزّياني كان عاملا نشيطا منتجا لأرقى الصّناعات وأجود المنتوجات، أغدق عليه نشاطه ربحا وفيرا، فنتج عن هذا الأخير عيشة رغدة لسكّان البلاد «ويبدو ممّا تقدّم أنّ البلاد كانت مزدهرة اقتصاديّا في ظلّ أبي حمّو، وازدهار الاقتصاد يضمن الازدهار الاجتماعي»[3].

ذلك الازدهار الاجتماعي الذي أفرزته ثروة الأفراد العاملين في شتى المجالات الاقتصاديّة كوّن «في الوسط التّلمساني طبقة أرستقراطيّة، وهذه الطّبقة توجّه أعمال الصنّاع والأدباء والفنّانين فترقى»[4]، واتّساع ثروة الأمّة يفيد دائما خزائن الحكومة، وبذلك يتحقّق الرّقيّ والتطوّر للبلاد والعباد.

ويظهر ممّا تقدّم، أنّه رغم ما منيت به السّياسة من هزّات وانكسارات إلاّ أنّ المجتمع كان منغمسا في الخيرات، جرّاء التطوّر الحاصل اقتصاديّا، ذلك الرّغد الذي انعكس على الحياة اليوميّة للأفراد، فأخذوا يرفعون من مستوى معيشتهم، ويرقون بها فوق ما عرفوه من ألوان الحياة البسيطة السّابقة «و لسعة الثّروة اتّسع نطاق المدن واتّخذ النّاس حولها القصور، تحفّها الحدائق تجري من تحتها الجداول»[5].

---

(1) بوزياني الدراجي. نظم الحكم في دولة بني عبد الواد الزّيانية. ديوان المطبوعات الجامعيّة. الجزائر. 1993. ص208.

(2) مبارك بن محمد الميلي. تاريخ الجزائر في القديم والحديث. 2: ص484.

(3) محمّد طمّار. تلمسان عبر العصور. 206.

(4) محمّد طمّار. المرجع نفسه.205.

(5) مبارك بن محمد الميلي. تاريخ الجزائر في القديم والحديث. 2: 484.

ولم تكن ملامح الخير الوفير بادية على الأفراد فقط، بل كانت أوضح على سلطة البلاد، متجلّية في الكمّ الكبير من مشاريع التّعمير المنتشرة هنا وهناك، رغم الحروب المستمرّة، حيث كان أبو حمّو وأعوانه «جادّين في إنشاء القصور الضّخمة والمدارس الفخمة وإقامة المصانع والمنتزهات»(1).

تحوّلت المملكة الزّيانيّة إلى ورشة عمل كبيرة، خدمة للمجتمع الزّياني ومراعاة لمصالحه، فشيّدت «المساجد والحمّامات والمارستانات والبيوت، وعني بالمصالح العامّة»(2).

ويتّضح أيّ إعمار وازدهار تمتّعت به المملكة وقتئذ، خاصّة في العاصمة تلمسان، التي كانت كَمَثَلِ قطعة من الجنّة إذ «أصبحت بناياتها وحدائقها أشبه بإشبيليّة وغرناطة، في روائعها الفنيّة وطبيعتها الفتّانة»(3)، كلّ هذا التطوّر ما كان ليوجد لولا حكمة ملك يدعم الاقتصاد ويرعاه(4).

وكما اهتمّت الحكومة بتوسيع المدن وإعمارها، فقد وجّهت عناية فائقة لتنظيم الحياة الاجتماعيّة، ونشر الاستقرار والأمن داخل تلك الحواضر، لذلك كانت تسهر على رفع منازل الأشراف، وتبجيل العلماء، وإكرام الأعيان من رؤساء القبائل والتّجار والشّعراء وما شابههم «و تجري في سياسة العامّة على قول الحكماء "العامّة إذا قدرت أن تقول قدرت أن تصول" فتضرب بين زعماء القبائل، ليكونوا في حاجة إليها، وتأخذ من أبنائهم رهنا على الطّاعة»(5)، وهذه كانت عادة ملوك بني زيّان ليضمنوا ولاء القبائل الدّائم لهم.

كما سنّت القوانين المختلفة، من أجل ضمان السّير الحسن للحياة اليوميّة داخل المجتمع، لذلك كانت تعمل بنظام الحسبة(6)، حيث كان المحتسب قائما على تحقيق النّظام العام، ومراقبة احترام القانون وشرائع الدّين الإسلامي في المعاملات المختلفة، لذلك كان هذا الأخير يراقب الجودة، فيمنع «الغشّ بأنواعه المختلفة والتّطفيف، والتّحايل على حقوق

---

(1) مبارك بن محمد الميلي. المرجع نفسه. 485.

(2) محمّد طمّار بن عمرو. تلمسان عبر العصور. 206.

(3) محمّد طمّار بن عمرو. المرجع نفسه. 239.

(4) ابن الخطيب. لسان الدّين. الإحاطة في أخبار غرناطة. تحقيق: محمّد عبد الله عنان. الشّركة المصريّة للطّباعة والنّشر. القاهرة. ط1. 1974. مج193/2.

(5) مبارك بن محمد الميلي. تاريخ الجزائر في القديم و الحديث. 2: 449.

(6) تطلق على حسابات الدّولة. وعلى دار المحاسبة والمواريث. وعلى ديوان مراقبة المكاييل والموازين. انظر: موسى لقبال. الحسبة المذهبيّة في بلاد المغرب العربي. الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع. الجزائر. ط1. 1971. ص20.

النّاس، ويراقب المقاييس بأنواعها، وسلامة البضائع المعروضة، ويكافح الغلاء بفرض تسعير مناسب» [1].

ولم تكن هذه الدّورات التّفتيشيّة لتستثني أحدا، فالكلّ مجبر على الانصياع، فالنسّاج والخزّاف والورّاق وغيرهم، كلّ له منهج خاص به يجب أن يحترمه، وإلاّ عرّض نفسه لعقوبة أكيدة، وكان فوق ذلك يراقب نظافة الطّرق ويبعد ما يؤذي المارّة فيها، كمثل المزاريب والمزابل وغيرهما ممّا ينبذه النّاس.

ينبغي أن نلاحظ مدى التّسيير المتقن، لذي فرضته الحكومة لتحافظ على المدن والنّظام داخلها، بل ولتسهيل الحياة الاجتماعيّة للمواطن، بتشجيعها لنشر الأخلاق في التّعاملات وتطبيق تعاليم الدّين الإسلامي فيها.

وفوق كلّ ما عرفناه عن انتعاش الحالة الاقتصاديّة للبلاد، والتطوّر الحاصل على مستوى التّركيبة الاجتماعيّة في سيرورة تعاملاتها، وتحسين وسائل وظروف حياتها، فقد عرف المجتمع الزّياني، الذي يمثّله المجتمع التّلمساني خاصّة، بجميل الأوصاف وحسن الخصال، شهادات أدلى بها الغريب قبل القريب.

فهذا يحي بن خلدون يثني على أهل تلمسان قائلا: «ناس أخيار أولو حياء ووقار، ووفاء بالعهد وعفاف ودين، واقتصاد في المعايش واللّباس والسّكن، على هدى السّلف الصّالح» [2]، ورغم أنّه اشتهر بمبالغاته حول كلّ ما يخصّ الدّولة الزّيانيّة. خاصّة عصر أبي حمّو، فإنّ رأيه هذا، لا يبتعد عن آراء آخرين، لا تربطهم بسلطة الدّولة أيّ روابط.

ومنها ما قاله زائر غريب عن المنطقة، هو حسن الوزان[3] الذي لا صالح له في ثناء ولا ذمّ، حيث أظهر إعجابه الشّديد بأخلاق التّجار، الذين اتّصفوا بالعدل والصّدق والنّزاهة الكبيرة[4].

---

(1) موسى لقبال. المرجع نفسه. 70.

(2) ابن خلدون. بغية الروّاد في ذكر الملوك من بني عبد الواد. تحقيق: حاجيات عبد الحميد. المكتبة الوطنيّة. الجزائر. 1980. ج2: ص22.

(3) حسن الوزان: ولد في غرناطة بين عام 1489 و1495م. وبعد ضياع غرناطة. انتقلت أسرته إلى المغرب. تعلّم في جامع القرويّين وتقلّب في عدّة مناصب. أسر من طرف القراصنة وقدّم هدية إلى البابا ليون العاشر الذي أكرمه وسمّاه (ليون الإفريقي). انظر: الإدريسي. القارّة الإفريقيّة وجزيرة الأندلس. ص5-6.

(4) انظر: عبد الله شريط و محمّد الميلي. الجزائر في مرآة التّاريخ. مكتبة البعث. قسنطينة . ط1. 1965. ص102.

لقد أصبحت تلمسان عاصمة الزّيانيّين قبلة للتجّار من كلّ أنحاء العالم، ومركزا لاجتماع القوافل التّجاريّة، إذ «كانت مركزا تجاريّا هامّا، يقصده تجّار المسلمين والمسيحيّين على السّواء، كما كانت مركزا للقوافل»[1].

ولم يكن التجّار فقط من ولّى وجهه شطرها، بل أصبحت مرغبا لكلّ من أراد أن ينعم بحياة رغدة، وكما قال يحي بن خلدون: «إنّ دار الصّنعة السّعيدة، تموج بالفعلة على اختلاف أصنافهم وتباين لغاتهم وأديانهم»[2].

أولئك المستوطنون كانوا يمارسون شتّى أنواع المهن والصّناعات وما ذلك إلاّ دليل على حسن المعاملة، التي كان يختصّ بها الغرباء في عاصمة الدّولة، على اختلاف أديانهم، ففي «هذا العصر كانت معاملة أهل الذمّة تتمّ في إطار الإسلام، ووفق كتب العهد التي مُنِحوها من الحكّام المسلمين»[3].

ورغم تلك الصّفات الايجابيّة التي عرفت عن المجتمع التّلمساني، هناك صفة سلبيّة ذهب إليها الرّحالة المغربي المسمّى العبدري[4]، إذ أورد قصّة تعطي انطباعا على شيوع صفة الشحّ بينهم.

ويُعتقد أنّ ما كان يتميّز به المجتمع التّلمساني من اقتصاد مع الغرباء هو نتاج الظّروف الصّعبة التي عاناها المجتمع خلال الحروب الطّويلة بين الزّيانيّين والمرينيّين، وربّما لهم بعض العذر إذا عرفنا ما لاقاه سكّان المدينة، خلال الحصار الطّويل الذي ضرب على تلمسان من طرف المرينيّين وما تمخّض عنه من جوع شديد وفاقّة، دفعت بالنّاس إلى أكل الفئران والقطط[5].

وخلاصة القول: أنّ الحالة الاجتماعيّة لعصر الشّاعر أبي حمّو، كانت لا تقارن أبدا بالأوضاع السّياسيّة، فرغم الحرب والفتن، إلاّ أنّ المجتمع كان يتفاعل إيجابيّا ليطوّر نفسه اقتصاديّا وحضاريّا.

قد استطاع أبو حمّو أن يجعل من حاضرته غاية في الجمال والتّنسيق، يسودها النّظام الدّقيق، من خلال جملة من القوانين المختلفة، ذلك التطوّر الاجتماعي الذي أوجده

---

(1) السيّد عبد العزيز سالم. المغرب الكبير. 874.

(2) يحي ابن خلدون. بغية الروّاد. تحقيق: ألفرد بيل. مطبعة فونتانا. الجزائر. 1911. ج2: ص161.

(3) موسى لقبال. الحسبة المذهبيّة في بلاد المغرب العربي. 56.

(4) انظر: العبدري. الرّحلة المغربيّة. تحقيق: أحمد بن جدّو. نشر كليّة الآداب جامعة الجزائر. الجزائر. 1964. ص09.

(5) أقام المرينيّون حصارا شديدا على تلمسان دام ثماني سنين وثلاثة أشهر اضطرّ فيها التّلمسانيّون حتّى إلى أكل الجيف. وغلت الأسعار بما ليس له نظير. انظر: مبارك بن محمد الميلي. تاريخ الجزائر في القديم والحديث. 2: 454.

الازدهار الاقتصادي، أحدث نهضة حضاريّة، فكريّة وثقافيّة لا تقلّ شأنا عمّا ارتقى إليه الأشقّاء في المشرق والأندلس.

*** الجانب الثّقافــي:**

كانت الثّقافة في المغرب الأوسط على أيّام أبي حمّو في أزهى مواسمها وأبهى حللها، ولم تكن وليدة تلك الفترة فقط، بل هي في معظمها امتداد لما تمتّعت به المنطقة في عهود سابقة.

إنّ مدن المغرب الأوسط كانت تعجّ بالعلماء، والفقهاء والأدباء عبر الحقب الزّمنيّة المتتالية عليها، منذ عصر الدّولة الأغلبيّة، وصولا إلى عهد الدّولة الحمّاديّة، هذه الأخيرة التي اعتنت بالفكر والثّقافة اعتناء كبيرا، لم يزاحمها فيه إلاّ ما عرفه المغرب الأوسط في ظلّ الحكم الزّياني.

ويرجع سبب تلك النّهضة الفكريّة والثّقافيّة إلى موقع الدّولة الزّيانيّة الاستراتيجي، إذ أنّها جزء حيويّ من شمال إفريقيا، ذات صلات متينة بالمراكز العلميّة في المشرق والأندلس، حيث كانت في حركة دائمة، سواء بسبب كونها «عقدة مواصلات لطرق القوافل التّجاريّة بين التلّ والصّحراء»[1]، أو لأنّها «محطّة عبور لقوافل الحجّاج الذين يغدون ويروحون»[2].

زد على ذلك ما عُرِفَ عن الجزائريّين منذ القديم، من أنّهم أكثر من يهاجر طلبا للعلم والمعرفة، فينتقلون بين العواصم العلميّة، ويقومون بفريضة الحجّ، ثمّ يعودون إلى وطنهم بزاد وفير من المعارف.

بالإضافة إلى الأعداد الكبيرة من المهاجرين الأندلسيّين الذين قصدوا المغرب الإسلامي، خاصّة الأوسط منه، هربا من بطش الصّليبيّين من جهة وأيضا بسبب ما نمي إليهم من أخبار طيّبة عن الحياة في تلمسان وما جاورها من جهة أخرى، أولئك القادمون «حملوا بالطّبع معهم علومهم وآدابهم وفنونهم» [3].

لقد تعدّدت الأسباب التي جعلت من تلمسان – باعتبارها عاصمة الدّولة الزّيانيّة – صرحا علميّا وثقافيّا كبيرا، يضاهي «عواصم العلم المشهورة إذّاك، كمصر وغرناطة، وتونس وفاس وبجاية»[4].

---

(1) يحي بوعزيز. تلمسان. منشورات وزارة الثّقافة والسّياحة. الجزائر. د ت. ص07.
(2) يحي بوعزيز. المرجع نفسه. 07.
(3) محمّد طمّار. تاريخ الأدب الجزائري. 108.
(4) المهدي البوعبدلي. أهم الأحداث الفكريّة بتلمسان عبر التّاريخ. الأصالة. الجزائر. ع 1975/26. ص124.

يضاف إلى ما سبق سبب جوهريّ كان له التّأثير الأكبر على تلك النّهضة الحضاريّة، حيث تنافس «الحفصيّون والزّيانيّون والمرينيّون، في تقريب العلماء والأدباء من مجالسهم، فتعدّدت المناظرات العلميّة، وازدهرت الفنون في المغرب العربي»[1].

حيث أرادت كلّ دولة منهم التّغلّب على الأخرى، ليس سياسيّا وعسكريّا فقط، بل حضاريّا أيضا، ولمّا كان العلماء هم بناة الحضارة تنافس هؤلاء في جلب وجذب أكبر عدد منهم، للاستفادة منهم علميّا وأدبيّا من جهة، ولكي تُستكمل الصّورة الملكيّة من جهة أخرى، لأنّه من عادة ملوك ذاك الزّمان أن يجالسوا العلماء ويتقرّبوا منهم ليباهوا بهم ملوكا آخرين.

ورغم الأهداف السّياسيّة لما سبق ذكره، إلاّ أنّ ذلك عاد بالفائدة الجمّة على مجتمعات المغرب الإسلامي، خاصّة الأوسط، فازدهرت الثّقافة وتطوّرت وكثر بها أهل العلم والأدب، وتعدّدت المجالس العلميّة والأدبيّة، فغدت تلمسان «على عهد بني زيّان حاضرة من أعظم حواضر العلم والسّياسة بالعالم الإسلامي، ونبغ فيها عدد كبير من الأدباء والشّعراء والعلماء، الذين استقلّوا بملكة التّعليم»[2].

ولم يكن العلماء والأدباء وحدهم الكثر في تلمسان، بل كثرت أيضا الهياكل العلميّة من مدارس ومساجد خصّصت للعلم والتّعليم.

«فسوق الثّقافة راجت رواجا كبيرا، فزخرت المدارس والمساجد بالعلماء والأدباء، وكثر الفنّانون من معماريّين وموسيقيّين وغيرهم» [3].

وقد اشتهرت عاصمة الزّيانيّين بمدارسها الخمس، «فكانت معاهد عليا للتّعليم ولتكوين الإطارات السّامية، في شتّى المجالات على غرار المدارس النّظاميّة التي أنشئت في المشرق وما تمّ تشييده بعدها في سائر أنحاء العالم الإسلامي» [4].

كانت أوّل مدرسة أسّست بتلمسان، هي التي بناها أبو حمّو موسى الأوّل (707-708هـ) في أوّل عهده، ثمّ أمر من بعده ابنه أبوتاشفين الأوّل (718-737هـ) ببناء المدرسة التّاشفينيّة بجانب الجامع الأعظم، وقد كانت تحفة معماريّة رائعة، وبعدها شيّدت مدرسة بقرية العبّاد خارج تلمسان أمر ببنائها السّلطان أبو الحسن المريني، خلال استيلاء المرينيّين على المغرب الأوسط سنة (748هـ)، كما أنشأ ابنه أبو عنان مدرسة رابعة بالقرب

---

(1) محمّد طمّار. تاريخ الأدب الجزائري.108.

(2) محمّد طمّار. المرجع نفسه. 109.

(3) محمّد طمّار. تاريخ الأدب الجزائري.237.

(4) المهدي البوعبدلي. أهمّ الأحداث الفكريّة بتلمسان عبر التّاريخ. 124.

من ضريح ومسجد الوليّ الصّالح أبي عبد الله الشّوذي الاشبيلي[1] الملقّب بالحلوي سنة (754هـ).

وأضاف أبو حمّو موسى الثّاني إلى تلك السّلسلة، واحدة بناها سنة (765هـ) بجانب الضّريح الذي أقيم على قبور أبيه أبي يعقوب يوسف وعمّيه أبي سعيد عثمان وأبي ثابت، سمّاها باليعقوبيّة نسبة لأبيه.

لقد أصبحت تلمسان «في عهد أبي حمّو الثّاني، بفضل مدارسها الخمس ومسجدها الأعظم، مركزا ثقافيّا هامّا، وبلد إشعاع علميّ، يضاهي أهمّ مراكز المغرب الثّقافيّة»[2].

وما برح أولو الأمر في حاضرة الدّولة «يولون هذه المدارس[3]عناية خاصّة، ويجرون الأرزاق والمنح للأساتذة، والطّلبة والموظّفين بها، ويعهدون بالتّدريس فيها لأشهر العلماء»[4].

يضاف إلى ما ذكر من صروح علميّة، مكتبة عظيمة تذكر المصادر أنّ أبا حمّو موسى الثّاني أنشأها عام (760هـ–1359م)، وقد كانت هذه المكتبة موجودة بالجامع الأعظم بتلمسان على يمين المحراب من الجدار القبلي «و قد هدّمت المكتبة وفقد ما كان فيها من كتب حوالي عام (1266هـ–1855م) حين قامت مصلحة الآثار التّاريخيّة الفرنسيّة بإصلاح وترميم ما تلاشى أو انهدم من الجامع الأعظم» [5].

وقد اختصّت تلك المدارس الخمس بنظام معيّن في التّدريس، كان مشهودا له بالنّجاعة والفعاليّة، وما أعداد الخرّيجين منها إلاّ دليل على ذلك، «فإنّ التّعليم بتلمسان كان ينقسم إلى قسمين، قسم يزاول بالمساجد، وقسم يعطى بالمدارس وكانت كلّ المساجد في القرى والمداشر والمدن تعني بحفظ القرآن والحديث كمادّة أولى أساسيّة، ثمّ يُدَرَّس النّحو واللّغة والفقه والأدب» [6].

---

[1] أبو عبد الله الشّوذي (المشهور بالحلوي): من عباد تلمسان. كان قاضيا باشبيلية آخر دولة بني عبد المؤمن فرّ بنفسه إلى تلمسان ومات فيها. انظر: ابن مريم. البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان. ديوان المطبوعات الجامعيّة. الجزائر. 1986. ص69-70.

[2] عبد الحميد حاجيات. أبو حمّو موسى الزّياني. 159.

[3] حول مدارس تلمسان المشهورة. انظر: مبارك بن محمد الميلي. تاريخ الجزائر في القديم والحديث. 491.

[4] المهدي البوعبدلي. أهمّ الأحداث الفكريّة بتلمسان عبر التّاريخ. ص139.

[5] الحاج محمّد بن رمضان شاوش. باقة السّوسان في التّعريف بحاضرة تلمسان. ديوان المطبوعات الجامعيّة. الجزائر. 1995. ص400.

[6] مفدي زكريّا. النّشاط العقلي والتقدّم الحضاري بالجزائر في عهد الزّيانيّين. الأصالة. الجزائر. العدد 1975/26. ص165.

وأمّا المساجد الجامعة، فقد كانت شبيهة بالكليّات في عصرنا الحالي، تدرّس فيها العلوم الإسلاميّة بكلّ فروعها كالفقه وأصوله وغيرهما.

ولم تكن صبغة التّعليم في تلمسان دينيّة فقط، على حساب باقي العلوم الأخرى، بل كان ازدهارا شاملا ومتوازنا لكلّ أنواع المعارف دينيّة كانت أو علميّة.

بعد كلّ ما قيل، يظهر جليّا كم كان متطوّرا عصر أبي حمّو موسى الثّاني ثقافيّا، ولعلّ السّبب في ذلك يعود إلى أنّ هذا الأخير، لم يكن ملكا فقط، بل كان شاعرا رقيقا، نال حظّا من المعارف الأدبيّة، حتّى تملّك ناصية الشّعر، وقد خلّف أبو حمّو «آثارا أدبيّة تنبّئ عن ثقافة عربيّة لا يستهان بها، وتعطينا فكرة صادقة عن الذّوق الأدبي الذي كان سائدا في عهده بالمغرب الأوسط» (1).

ونلاحظ أنّ الوسط الأدبي لم يعرف رقيّا في أيّ عصر من العصور الزيّانيّة كالّذي وجد في عصر أبي حمّو، وطبعا هذا راجع إلى أنّ الملك نفسه من أهل العلم والمعرفة.

وقد اشتهر الملك الزّياني المثقّف بتبجيله الكبير للعلماء وتقديره لهم، والجدّ في طلبهم إليه من كلّ مكان، فكان بلاطه مزيّنا بالعديد من الأسماء اللاّمعة أدبيّا وعلميّا وفقهيّا، وما موقفه مع العالم الجليل أبي عبد الله الشّريف(2)، إلاّ دليل على ذلك، إذ أنّه استدعاه من فاس« فانطلق إلى تلمسان وتلقّاه أبو حمّو براحتيه، وأصهر له أبو حمّو في ابنته، فزوّجها إيّاه وبنى له مدرسة(3)، وأقام الشّريف يدرّس العلم إلى ان هلك رحمه الله»(4).

وكذلك ما فعله مع التّلاليسي(5) الذي اشتهر بصنعة الطّب فحين وصل خبره إليه، أرسل في طلبه واتّخذه طبيبا خاصّا لنفسه، وسبب هذا التّقدير لم يكن لأنّه طبيب ماهر فقط، بل لأنّه شاعر أيضا، تميّز في العربيّة.

ولعلّ أبا حمّو قد سار في اعتنائه الكبير بالعلم والعلماء والأدب والأدباء على خطى سلفه الصّالح، ممّن تملّك زمام الدّولة الزّيانيّة قبله، وهو بذلك قد بعث سنّة أجداده من جديد،

---

(1) عبد الحميد حاجيات. أبو حمّو موسى الزّياني. 185.

(2) عبد الله بن محمّد الشّريف (747ه - 811ه) الموافق (1347م - 1390م) ولد بتلمسان. يعدّ من أكابر علماء بلده. له مشاركة في جميع العلوم. تفوّق في العربيّة وغريبها. وتضلّع في المذهب المالكي والمذاهب الأخرى. انظر: الحفناوي. تعريف الخلف برجال السّلف. أنيس. سلسلة العلوم الإنسانيّة. 1991. ج2: ص55.

(3) انظر: مفدي زكريّا. النّشاط العقلي والتّقدّم الحضاري بالجزائر في عهد الزّيانيّين. الأصالة. ع1975/26. ص165.

(4) ابن مريم. البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان. ديوان المطبوعات الجامعيّة. الجزائر. 1986. 165-166.

(5) التّلاليسي: توفي بعد (767ه - 1362م) هو محمّد بن أبي جمعة بن علي. طبيب. شاعر. أديب برع في الطّب. له قصائد في المديح والوصف والرّثاء وموشّحات جيّدة. انظر: عادل نويهض. معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتّى العصر الحاضر. مؤسّسة نويهض الثّقافيّة للتّأليف والتّرجمة والنّشر. بيروت. لبنان. ط3. 1983. ص63.

بل قد أضاف إلى ذلك الإرث اهتماما أكبر وتبجيلا أعظم، إذ كان «اعتناؤه بالعلم وأهله أشدّ وأقوى من ذي قبل لما امتاز به من إلمام واسع بالعلوم واستعداد للمساهمة في النّشاط الأدبي ونظم الشّعر، فحظي لعلماء والطّلبة بعطفه وتشجيعه، ونال الكتّاب والشّعراء من عطائه وكرمه».[1]

وممّا تفرّد فيه أبو حمّو، اهتمامه البالغ ومنقطع النّظير بليلة ميلاد المصطفى صلّى الله عليه وسلّم، فكانت تروى حول إحياء تلك اللّيلة القصص والحكايات، حتّى غدت أقرب إلى الخيال منها إلى الواقع، وعلى ذلك اتّفقت كلّ المصادر من «أنّ ليلة ميلاده صلّى الله عليه وسلّم، كانت من أعياد سلاطين الدّولة الزّيانيّة وزادها أهميّة، كون ملكها أبي حمّو موسى الزّياني، من فحول الشّعراء».[2]

وقد نقل ابن عمّار[3] عن التّنسي[4] من كتابه المفقود "راح الأرواح" ما يؤكّد ذلك، إذ أورد أنّ أبا حمّو يقيم احتفالا عظيما في كلّ مولد نبوي، بقصر"المشور" في تلمسان، فيدعوا له العامّة والخاصّة[5].

وعليه فقد عرفت الاحتفالات بالمولد النّبوي في تلمسان تطوّرا بالغا نال حظّه من المراسيم المختلفة، على عهد أبي حمّو، فكان موسما سعيدا ينال النّاس فيه خيرا كثيرا.

لقد كان الملك أبو حمّو يشرف بنفسه على تلك المراسيم، فيقيم عرسا شعريّا، يفتتحه هو بقصائد مختلفة، يصف فيها حبّه للرّسول الكريم وشوقه للبقاع المقدّسة، ثمّ يليه عدد كبير من شعراء البلاط، يتنافسون في تلك الصّنعة، وكان يتخلّل ذلك أناشيد دينيّة تغنّى حول المناسبة.

وقد كان يعتني بالحضور أيّما اعتناء، حيث إنّه «يبدي لهم من مظاهر التّرحاب والاحتفاء، ويقدّم إليهم المآكل والمشارب ما يعجز عن وصفه القلم» [6].

---

[1] عبد الحميد حاجيات. أبو موسى الزّياني.159.

[2] عبد الله حمّادي. دراسات في الأدب المغربي القديم. دار البعث للطّباعة والنّشر. قسنطينة. الجزائر. ط1. 1986. ص250.

[3] ابن عمّار: هو العبّاس أحمد بن عمّار مفتي مالكيّة الجزائر. كان من نوابغ عصره. اشتهر بكتابه "نحلة اللّبيب بأخبار الرّحلة إلى الحبيب". انظر: الحفناوي. تعريف الخلف برجال السّلف. سلسلة أنيس. 1991. ص339-340.

[4] التّنسي: هو محمّد بن عبد الجليل التّنسي. مشهور بالحافظ. فقيه وأديب وشاعر. ت(899ه). انظر: الحفناوي. المرجع نفسه. ص190-191.

[5] عبد الله حمّادي. دراسات في الأدب المغربي القديم. 251.

[6] عبد الملك مرتاض. حركة الشّعر المولدي في تلمسان على عهد أبي حمّو الثّاني. الأصالة. الجزائر. ع1975/26. ص311.

وأبو حمّو في هذه المراسيم قد أتى «بما أعي الوصف، وفات الخيال، وفاق السّابق، وأعجز اللاّحق، وأصبح أعجوبة من الأعاجيب على تعاقب الدّهور»[1]، وكان أكثر ما يبهر في تلك الاحتفاليّة التّنظيم الدّقيق لكلّ شيء جميل «فما شئت من نمارق مصفوفة وزرابيّ مبثوثة وبسط موشّاة ووسائد بالذّهب مغشّاة، وشمع كالأسطوانات، وموائد كالهالات، والمباخر منصوبة كالقباب يخالها المبصر تِبْرًا مذابا»[2].

وهكذا يقضي المحتفلون اللّيل كلّه بعد ذلك في ترديد الأوراد والأذكار الخاصّة بمدح النّبي صلّى الله عليه وسلّم، تحفّهم الشّمعدانات العظيمة، وأبو حمّو وسط كلّ ذلك جالس على عرشه، يحيط به علية القوم وتقابله العامّة من النّاس «تطوف عليهم الولدان، قد لبسوا أقبية الخزّ الملوّن، وبأيديهم مباخر ومرشّات، ينال منها كلّ بحظّه وخزانة المنكانة[3]، ذات تماثيل لجين محكمة الصّنعة» [4].

ويبقى الحال على ذلك حتّى بزوغ الفجر، فيقف الجميع بأمر السّلطان لتأدية صلاة الصّبح، وهكذا تنتهي اللّيلة المباركة وتغادرهم كحلم انقضى زمنه، لتجدّد زخرفها في العام المقبل.

وقد استرسل المؤرّخون في وصفهم لتلك الاحتفاليّة المميّزة التي يرعاها الملك أبو حمّو، منتهجا في ذلك ما ورثه عن أجداده من تقاليد تكرّم هذه اللّيلة وقد تحدّث الرّحالة ابن عمّار[5] عن احتفال الزّيانيّين بليلة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم على غرار الممالك الأخرى كالمرينيّين ودولة بني الأحمر، باعتبار هذا الاحتفال كان ظاهرة شاعت بين جميع الدّول الإسلاميّة شرقا وغربا.

كانت تلك صورة مقتضبة عن أحوال الثّقافة والفكر في تلمسان على عهد أبي حمّو، ويتّضح ممّا سبق كم كانت مزدهرة ومشجّعة لكلّ عطاء فكري وأدبي، خاصة أنّ من يقود

---

(1) علي الجندي. نفخ الأزهار في مولد المختار. دار الرّائد العربي. بيروت. لبنان. 1970. ص197.

(2) المقري. نفخ الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب. تحقيق: إحسان عبّاس. دار صادر. بيروت.1988. ج6: ص513.

(3) المنكانة آلة عجيبة الصّنع تصدر أصواتا وحركات. كانت تعرض في احتفالات ليلة المولد النّبوي. انظر وصفها في ص40-41 من كتاب يحي بن خلدون. بغيّة الروّاد. ج2.

(4) محمّد بن عبد الله التّنسي. تاريخ بني زيّان ملوك تلمسان. تحقيق: محمود بوعياد. المكتبة الوطنيّة الجزائريّة. الجزائر. 1985. ص162.

(5) انظر: أبو العبّاس أحمد بن عمّار الجزائري. نحلة اللّبيب بأخبار الرّحلة إلى الحبيب. مطبعة فونتانا. الجزائر. 1902. ص198.

قاطرة الثّقافة إذّاك أديب وشاعر متميّز كأبي حمّو موسى الثّاني، وبفضل رعايته تلك، واهتمامه ذاك، تسارعت عجلة الحضارة في تلمسان عاصمة الدّولة، خاصّة «في مجالي الفكر والأدب حيث عرفت أكبر المفكّرين والأدباء في تاريخ المغرب الإسلامي، ورعتهم وظاهرتهم على تفتيق عبقريّاتهم وإخصاب قرائحهم»[1].

وهكذا استطاع هؤلاء أن يثروا المكتبة الإسلاميّة بعديد مؤلّفاتهم وقيّم إنتاجهم في شتّى أنواع العلوم والمعارف والفنون.

---

[1] عبد الملك مرتاض. حركة الشّعر المولدي في تلمسان على عهد أبي حمّو الثّاني. 331.

# الفصـل الأول

## حياة أبي حمّو موسى الثّاني

## حياة أبي حمّو موسى الثّاني

### 1- مولده ونشأته:

لقد كانت المصادر شحيحة جدّا في حفظ أخبار تخصّ نشأة وحياة أبي حمّو موسى قبل تولّيه عرش الدّولة الزّيانيّة، فلم ترصد طفولته ولا تعليمه ولا معلّميه، ولا حتّى مواقفه وأخلاقه، وهو الأمير الشّاب، إلاّ ما ثبت في بعضها من أخبار تعتني تحديدا بالفترة التي سبقت مباشرة حركته، التي استرجع من خلالها عرش أجداده، بالإضافة إلى ما وصلنا من إشارات طفيفة تعقّبت فترات أسبق من حياته، لكنّ بإيجاز، فلم تكن تلك الأخبار بحجم الرّجل الذي خلّف بصمة واضحة في تاريخ الجزائر القديم سياسيّا وأدبيّا.

**أ- نسبه:**

أورد المؤرّخ يحي بن خلدون في كتابه بغية الروّاد، نسب الملك أبي حمّو موسى الثّاني كاملا، حيث قال «هو موسى بن يوسف بن عبد الرّحمان بن يحي بن يغمراسن بن زيّان بن ثابت بن محمّد بن سدوكسن بن أطاع الله بن علي بن يمل بن يزجن بن القاسم بن محمّد بن عبد الله بن إدريس بن عبد الله بن محمّد بن الحسن بن علي بن أبي طالب بن عبد المطّلب بن هاشم»[(1)].

ومن الملاحظ أنّ يحي بن خلدون، يصل بنسب أبي حمّو إلى الرّسول الكريم عليه الصّلاة والسّلام، وهذا ما نفاه المؤرّخون الآخرون، وعلى رأسهم أخوه عبد الرّحمان بن خلدون، الذي شكّك في إدّعاء هذا النّسب قائلا: « ويزعم بنو القاسم هؤلاء أنّهم من ولد القاسم بن إدريس، مزعما لا مستند له إلاّ اتفاق بني القاسم هؤلاء عليه»[(2)]، وقد اتّفق جميع المؤرّخين على أنّ قبيل عبد الواد، هم بطن من بطون بني مدين من قبيلة زناتة، إحدى كبريات القبائل البربريّة، كما أشار له جوليان شارل أندري في كتابه« تاريخ إفريقيا الشّماليّة»[(3)].

ممّا سبق يتّضح التّشكيك المنطقي في اتّصال نسب أبي حمّو موسى بسيّدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم، وقد أُرجع سبب ادّعاء بعض القبائل البربريّة في المغرب الإسلامي

---

(1) يحي بن خلدون. بغية الرواد. 2: 13.

(2) عبد الرّحمان ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. دار ابن حزم للطّباعة والنّشر والتّوزيع. لبنان. 2003. مج2/2746-2747

(3) انظر: شارل أندري جوليان. تاريخ إفريقيا الشّماليّة. 200.

اتّصال أنسابها بالرّسول الكريم، طلبا منهم للشّرف العظيم ورفعة المكانة بين سواها من القبائل.

**ب- مولـده:**

ولد أبو حمّو موسى في غرناطة بالأندلس «عاصمة بني الأحمر سنة 723»[(1)]، في نفس السّنة التي عاد فيها والده إلى تلمسان، إثر استدعاء الملك الزّياني أبي تشفين لوالده أبي يعقوب يوسف (689هـ) وإخوته أبي سعيد وأبي ثابت وإبراهيم[(2)].

وتذكر المصادر أنّ جدّ أبي حمّو، يحي (639هـ) أمّره والده على سجلماسة وعقد له على ولاية العهد من بعده، إلاّ أنّ هذا الأخير لم يعش طويلا[(3)]حيث توفّي بتلمسان سنة (669هـ)، فانتقلت ولاية العهد من بعده إلى أخيه أبي سعيد عثمان، وبقي الحكم في خلفه حتّى حين.

وكان من أولاد يحي، عبد الرحمان الذي ولد بسجلماسة أثناء حكم والده، واشتهر هذا الأخير بالشّجاعة والفروسيّة إلى درجة أنّ عمّه أبا سعيد تخوّف منه على العرش، فأرسله إلى الأندلس هو وأولاده سنة (694هـ) [(4)]، فتنقّل كثيرا إلى أن استقرّ بغرناطة وتوفّي بها سنة (716هـ) تاركا أبناءه هناك، وعلى رأسهم أبو يعقوب والد أبي حمّو موسى، حتّى كان ما ذكرناه آنفا من استقدامه مع إخوته إلى تلمسان بطلب من الملك الزّياني أبي تاشفين الأوّل، وبذلك عاد أبو يعقوب يوسف إلى تلمسان، وقد ولد له في ديار الغربة أبو حمّو موسى.

**ج- نشأتـه:**

عندما عاد أبو يعقوب وإخوته إلى تلمسان، استقبلهم ابن عمّهم السّلطان أبو تاشفين الأوّل بكلّ ترحاب وكرم كبيرين «فرفع منازلهم وأعظم لهم الجرايات»[(5)]، ولعلّ سبب هذه اللّفتة الطّيّبة من السّلطان الزّياني، رغبته في تعويض أبناء عمّه عن سنين الغربة والمحنة التي عاشوها مجبرين مذعنين في ذلك لرغبات من سبقه على العرش، وربّما كان السّبب

---

[(1)] عبد الحميد حاجيات. أبو حمّو موسى الزّياني.71.

[(2)]انظر: يحي بن خلدون. بغيّة الروّاد. 2: 16.

[(3)]انظر: المرجع نفسه. 2: 15-16.

[(4)]انظر: عبد الحميد حاجيات. أبو حمّو موسى الزّياني. 70.

[(5)]التّنسي. عبد الله محمّد. تاريخ بني زيّان ملوك تلمسان. 160.

الثّاني اطمئنانه الشّديد لأبناء عمومته، ويقينه الأكيد من عدم سعيهم وراء ملكه، وإلاّ لما كان استقدمهم أصلا مغامرا بكرسيّ السّلطة.و تحت هذه الرّعاية، وككلّ الأمراء عاش أبو حمّو في قصور آل زيّان وتذوّق العزّ والجاه وحياة التّرف، فنشأ على نشأة الأمراء والملوك، وعرف ما عرفوه من ألوان النّعيم.

لكن ذلك لم يدم طويلا، فسرعان ما أدارت الدّنيا ظهرها للدّولة الزّيانيّة وحاكميها، حيث استطاع المرينيّون الاستيلاء على تلمسان سنة (737هـ)، فاضطرّ أكثر الأمراء الزّيانيّين وأبناؤهم إلى مغادرة الوطن نجاة بأنفسهم، وكان على رأسهم أبو حمّو موسى رفقة والده، وقد بلغ إذّاك أربعة عشر عاما من عمره.

وقد فضّل الوالد الاتّجاه نحو فاس بحثا عن الأمان والاستقرار[1] وخوفا من تهديدات السّلطة الجديدة.

لقد زال عن أبي حمّو ما ألفه من لين العيش ورغده، وشرب من الكأس التي سبقه إليها والده وأعمامه، غربة وألما على فراق الوطن والأهل.

لم تذكر المصادر الكثير عن حياة أبي حمّو موسى في فاس، ولا عن نشاطه هناك، إلاّ ما ثبت عن صاحب " روضة النّسرين" حين أكّد أنّه قد أدرك أبا حمّو بفاس « وهو يسكن بها في عين أصلتين، يتعيّش بردّ الفكّ [2] للمفكوكين، وذلك في دولة المولى أبي الحسن المريني» [3].

**د- تعليمــه:**

لم نجد في أيّ مصدر من المصادر التي وقعت بين أيدينا ما يشير إلى تعليم أبي حمّو موسى ولا معلّميه، فلم يبق لنا إلا تحكيم العقل والمنطق من أجل الاقتراب من حقيقة الزّاد العلمي الذي يمكن أن يكون قد تحصّل عليه.

من المنطقي أن يكون أبو حمّو موسى قد حفظ القرآن الكريم أو جلّه على الأقل، كعادة أهل ذاك الزّمان، والمنطقي أيضا أنّه قد نال حظّا وفيرا من العلوم الدّينيّة والأدبيّة، وربّما علوم أخرى كما جرت عليه العادة مع أبناء الأمراء، إذ أنّ أبا حمّو موسى كما أسلفنا

---

[1] انظر: عبد الحميد حاجيات. أبو حمّو موسى الزّيانين. 72.

[2] الفكّ: فكّ الرّهن يفكّه فكّا و افتكّه. انظر: ابن منظور. لسان العرب. مادّة(فكّك).

[3] عبد الحميد حاجيات. أبو حمّو موسى الزّياني. ص72. نقلا عن: ابن الأحمر. روضة الشّريف. مطبوعات القصر الملكي. الرّباط. 1962. ص58.

عاش فترة تقارب أربعة عشر عاما في كنف الملك أبي تاشفين الأوّل، الذي فتح قصوره لأبناء عمومته وأهلهم، لذلك فمن المؤكّد أنّ أبا حمّو موسى قد لحقه ما يلحق أبناء الأمراء في تلك القصور الزّيانيّة.

ولا نغفل أنّ سنّ أبي حمّو في ذلك الوقت كان مناسبا جدّا لتحصيل العلوم بشتّى أنواعها، خاصّة وأنّ التّعليم في ذلك العصر كان يبدأ مبكّرا مركّزا من حيث النّوع والكمّ.

وقد كانت تلمسان أيّامها تتمتّع بسمعة عالميّة كبيرة، حيث كانت من أهمّ العواصم العلميّة في العالم الإسلامي، تعجّ بالعلماء في كلّ أنواع المعارف والعلوم، دينيّة كانت أو علميّة وأدبيّة.

وكما هو معروف دائما يحصل أبناء الصّفوة على أحسن المعلّمين وأشهر العلماء، فيتعلّمون على أيديهم ويتأدّبون، أضف إلى ذلك اغتراب أبي حمّو موسى في فاس في عمر ملائم لاكتساب المعارف، فبعد أربعة عشر عاما يبقى العمر مناسبا لطلب العلوم، بل يصبح أنسب لطلب ما صعب منها في عمر أصغر.

ولا ننسى أن نضع في الحسبان، مكانة فاس العلميّة، حيث كانت من بين أهمّ المراكز العلميّة الإسلاميّة وقتئذ، ضمّت بين جنباتها أسماء لامعة وعديدة لعلماء مشهورين، ليس في المغرب الإسلامي فقط، بل في العالم الإسلامي كلّه.

تلك الفترة التي قضاها هناك، أضافت إلى رصيده المعرفي الذي أُسِّسَ له في الوطن تلمسان، «و ذلك أنّها تناسب فترة تحصيل العلوم في حياته، إذ تمتدّ من سنّ الرّابعة عشر إلى السّابعة والعشرين» [1].

تلك العوامل السّابقة، تشير في مجملها إلى حتميّة استفادة أبي حمّو موسى من الظّروف التي أحاطت بحياته في فترة التزوّد بالعلوم، بحصوله على كمّ معرفي لا بأس به، مكّنه فيما بعد من احتلال مكان مرموق في قائمة الشّعراء والأدباء الجزائريّين في القرن الثّامن الهجريّ.

---

(1) عبد الحميد حاجيات. المصدر السابق. 73.

والأدلّة على استفادته من تلك المعارف كثيرة، لعلّ أوّلها تأليفه لكتابه الشّهير " واسطة السّلوك في سياسة الملوك"[1]، الذي أظهر فيه أسلوبا عاليا في النّثر، لا يتأتّى إلاّ لذي معرفة واسعة بالعربيّة وعلومها، ذلك الأسلوب المتقن الذي عبّر به عن أفكار سياسيّة ومعلومات عسكريّة، لا تكون إلاّ لمطّلع جيّد على كتب السّياسة وأنظمة الحكم، والبرهان على هذا، ما أوردته وداد القاضي[2]، في إحدى مقالاتها حول الموضوع.

أمّا ثاني الأدلّة، فما تمتّع به هذا الأخير من قدرات في مجال نظم الشّعر، إذ أنّه أبدع قصائد كثيرة وتشهد له بمتانة اللّغة وجمال الصّورة، وسلاسة الأسلوب، خاصّة في قصائد المولديّات، التي أثبت من خلالها أنّه صاحب قريحة خلاّقة، وهذا ما سنراه في حينه.

وفي المولديّات دائما ظهرت ثقافته الإسلاميّة واسعة، شاملة ومعبّرة عن تكوين الشّاعر الجيّد في مجال العلوم الدّينيّة، كما تثبت اطّلاع أبي حمّو الواسع واستيعابه الكبير لما اطّلع عليه.

**ه- العـودة إلى تلمسـان:**

بقي أبو حمّو موسى رفقة والده وعدد من أمراء بني زيّان في فاس، كما أشير له سابق، إلى أن قام عمّاه أبو سعيد وأبو ثابت بحركتهما [3] لاسترجاع عرش أسلافهما من بين يدي المرينيّين.

عندها رجع المغتربون إلى الوطن، وحينها فضّل والد أبي حمّو موسى اعتزال تلمسان مخلّفا وراءه ما احتوته من قصور وحدائق، ورغد العيش وترف الأمراء واكتفى بالسّكنى في

---

[1] ألّف أبو حمّو كتابه من أجل ابنه أبي تاشفين ضمّنه آراءه السّياسيّة والعسكريّة، وهو كتاب مطبوع طبعة قديمة من قبل مطبعة الدّولة التّونسيّة، 1862م. كما يوجد في شكل مخطوط بالمكتبة الوطنيّة بالجزائر.

[2] وداد القاضي . مقال " النّظريّة السّياسيّة للسّلطان أبي حمّو الزّياني الثّاني ومكانتها بين النّظريّات السّياسيّة المعاصرة لها " أوردت مقالها في مجلّة الأصالة. العدد 1975/27. ص98. وقد تحدّثت فيه عن نبوغ أبي حمّو السّياسي وتأثّره بالمفكّر السّياسي الإسلامي " المرادي" إذ أنّه اطّلع على إنتاجه وإنتاج غيره من مُؤَلّفي السّياسة وتأثّر بأفكارهم.

[3] انظمّ الأميران أبو سعيد وأبو ثابت إلى جيوش أبي الحسن المريني وخاضا مع أمراء زيّانيّين آخرين معارك تحت لوائه وكان هذا الأخير يجد منافسة شديدة من ابنه أبي عنان. وفي ظل هذه الظّروف تفطّن الأميران. فانسحبا رفقة بني عبد الواد وفرسانهم وتمكّنا من استرجاع الملك في 22 جمادى الآخرة (749ه). انظر: عبد الحميد حاجيات. أبو حمّو موسى الزّياني. 25.

ضواحيها تحديدا في ندرومة [1]، تفضيلا للزّهد وانقطاعا للعبادة، وما كان على أبي حمّو موسى إلاّ الاقتداء بوالده في ذلك.

لكنّ عبد الحميد حاجيات في كتابه "أبو حمّو موسى الزّياني" رأى غير ذلك[2]، وأرجع ابتعاد أبي يعقوب عن تلمسان لدافع سياسي، كون التّقاليد المعمول بها سياسيّا، حسب رأيه تقول: أنّ الحكم يكون لأكبر الإخوة وهو حال أبي يعقوب، فاستنتج أنّ انقطاع الوالد وابنه للزّهد كان بعد ميولهما للعبادة أوّلا، رغبة منهما في إدخال الطّمأنينة إلى قلبي الملكين أبي سعيد وأبي ثابت، أو ربّما لأنّهما أُرغما على ذلك.

ولكنّا نرى عكس هذا، ولا نشكّ في انقطاع أبي يعقوب للعبادة دون اعتبارات سياسيّة، ذلك أنّه لا يمكن لأبي يعقوب أن يطمع في ملك أخويه الأصغرين وفق التّقاليد السّياسيّة المذكورة سالفا، كون الأخوين لم يرثا الملك عن أبيهما مثلا، بل افتكّاه من مغتصب انتزع الملك من أبناء عمومتهم مدّة من الزّمن، وقد قاما بتلك الحركة بمفردهما دون مشاركة أبي يعقوب، فكيف له إذا أن يطمع في ملك لم يسع لأجله ولم يكن لأبيه من قبل.

وعليه لا تصحّ مقارنة الموقف بما حدث مع والد أبي يعقوب مع أخيه من قبل، لأنّ الوالد يحي كان وليّا للعهد، وبموته قد يجوز لأولاده من بعده الطّمع في ملك أبيهم، الذي صار لعمّهم أبي سعيد، ومنه لا مجال لمقارنة هذا بذاك فالموقف مختلف تماما.

وما نعتقده نحن، أنّ أبا يعقوب بعد أن خبر حياة الأمراء والملوك في كنف الأمير أبي تاشفين، وبعد ما حدث بعدها من استيلاء المرينيّين على ملك تلمسان، وما تبع ذلك من اضطراره لمغادرة الوطن نجاة بالنّفس، وبعد أن تذوّق حياة الدّعة في فاس بعيدا عن هموم السّياسة وحساباتها، فضّل أن يتدارك الأمر هذه المرّة لينال حظّا من الرّاحة في كنف حياة بسيطة تفرّغ فيها لعبادة الله فقط، وما كان على أبي حمّو إلاّ إتّباع أبيه في ذلك، حتّى ولو لم يكن راغبا فيه كثيرا كرغبة أبيه.

أمّا حول ما لمّح إليه عبد الحميد حاجيات، من انقلاب حياة أبي يعقوب بعد تملّك ابنه أبي حمّو عرش تلمسان من زهد وعبادة[3]، إلى سعي وراء الدّنيا والسّلطة، فذلك يعود

---

[1] ندرومة: تقع بين تلمسان وهنين. وهي مدينة كبيرة عامرة وآهلة. انظر: الإدريسي. القارّة الإفريقيّة وجزيرة الأندلس. مقتبس من كتاب نزهة المشتاق. 254.

[2] انظر: عبد الحميد حاجيات. أبو حمّو موسى الزّياني. 74.

[3] عبد الحميد حاجيات. المرجع السّابق. 74.

غالبا إلى رغبته في تثبيت ملك ابنه ومساعدته لترسيخ سلطانه، ومحاربة المناوئين له، حيث كان أبو يعقوب قائدا لأحد جيوش ابنه، ولأنّ الوضع يفرض نفسه، فوصول الملك إلى ابنه يتطلّب منه واجبات يقتضيها الحال، وتقتضيها حاجة أبي حمّو المَاسّة إلى والده، خاصّة مع تلك الاضطرابات التي كانت تواجه دولته، إذا فمن المنطقي أن يتخلّى الوالد عن عيشة الزّهد والتّعبّد لتلبية نداء البنوّة.

وتعود أخبار أبي حمّو موسى لتختفي بعد ما ذكرناه، إلى أن تظهر مجدّدا على إثر استيلاء المرينيّين على تلمسان مرّة أخرى، وإلقاء القبض على الأمير أبي ثابت وبعض خاصّته.

فبعد هذه الأحداث تشتّت جمع بني عبد الواد، فنجى كلّ واحد منهم بنفسه، متفرّقين في البلاد، ويذكر يحي بن خلدون في هذا الصّدد ما حدث للأمير أبي حمّو أيّامها.

فقد أكّد أنّ جمعا ضمّ الأمير أبا ثابت وبعض رفاقه وابن أخيه قد وقع بين يدي المرينيّين وهم متّجهون صوب الدّيار الحفصيّة نجاة بأنفسهم.

و في هذه الحادثة يروي يحي بن خلدون دورا بطوليّا قام به أبو حمّو، حيث تحدّث عن بذل أبي حمّو موسى لحياته فداء لعمّه أبي ثابت مدّعيا أنّه هو، لولا تعرّف البعض على شخص عمّه[1].

و الملاحظ أنّ هذه الحادثة لم ترد إلاّ عند يحي بن خلدون، فلم يذكرها أخوه عبد الرّحمان، ولا صاحب زهر البستان، إلاّ التّنسي صاحب " نظم الدّر والعقيان"، الذي نقلها عن يحي بن خلدون، كما نفى بعض الدّارسين المحدثين صحّة الخبر استنادا لرأي عبد الحميد حاجيات[2]، الذي اعتبرها أقرب للأسطورة منها للحقيقة، مستندا في ذلك إلى أسباب وجيهة ومنطقيّة نشاطره الرّأي حولها.

ومهما يكن من صحّة تلك الحادثة أو عدمها، فالثّابت تاريخيّا تمكّن أبي حمّو موسى من الوصول إلى مملكة بني حفص، وهنالك كان على موعد مع الحظ الذي أجلسه على عرش تلمسان فيما بعد.

---

(1) انظر: يحي بن خلدون. بغيّة الروّاد. 2: 17-18.

(2) انظر: عبد الحميد حاجيات. أبو حمّو موسى الزّياني. 78-79.

وصل أبو حمّو موسى إلى تونس في 6 شوّال (753هـ)، فنزل على الحاجب أبي محمّد بن تافراكين، الذي أحسن استقباله وأكرم ضيافته وأنزله منزلة الملوك والسّلاطين، فنال أبو حمّو موسى بذلك قسطا من الرّاحة والاستقرار بعد ما لقيه من أهوال الطّريق هربا من المرينيّين وأشياعهم[1]، « وامتدّت إقامته بتونس إلى أوائل رجب (758هـ) »[2]، ولم ينقطع خلال إقامته هناك عن تتبّع أخبار الوطن، والسّؤال عن مآل تلمسان وأهل عشيرته في الأماكن التي قصدوها، ولم ينس تتبّع أخبار المرينيّين وسلطانهم أبي عنان، وللحصول على هذه المعلومات كان يترقّب وصول الوافدين من المغرب الأوسط، ويجتمع بهم[3].

وفي تلك الأثناء كانت مملكة بني حفص مهدّدة من طرف المرينيّين الذين استولوا بالفعل على أجزاء منها، كقسنطينة سنة (758هـ)، ممّا جعل أبو حمّو يغادر تونس إلى الضّواحي مدّة شهرين[4]، وبعد مدّة قرّر الالتحاق بالسّلطان الحفصي أبي إسحاق وحاجبه ابن تفراكين، وقصد جميعهم قفصة، وبعد خروجهم سقطت تونس في يد الملك المريني أبي عنان[5]، وفي تلك الأثناء أيضا، انفصلت قبيلة الدّواودة عن السّلطان أبي عنان، لأنّه قدم على إلغاء امتيازاتها في بعض المناطق، فغضب هؤلاء وقرّروا الالتحاق بجيوش الملك الحفصي وشاركوه محاربة المرينيّين فعلا.

أمّا أبو حمّو في ظلّ هذه الأحداث المتسارعة، تفطّن إلى القوّة الكبيرة التي يتمتّع بها عرب الدّواودة [6]، فعمل على تمتين علاقته بزعمائها لنيّة في نفسه، وقد تحقّق له ما أراد، فأظهرت الدّواودة فيما بعد رغبة في مآزرة أبي حمّو موسى حتّى يستردّ عرش أسلافه، وهدفها من وراء ذلك الانتقام من المرينيّين وإشغالهم عن مملكة بني حفص، وذلك بزرع عدوّ قريب من ديارهم.

---

[1] انظر: الجيلالي. تاريخ الجزائر العام. 2: 180.

[2] عبد الحميد حاجيات. أبو موسى الزّياني. 81.

[3] انظر: عبد الحميد حاجيات. المصدر نفسه. 81.

[4] انظر: الجيلالي. تاريخ الجزائر العام. 2: 180.

[5] انظر: الجيلالي. المرجع نفسه. 2: 180.

[6] الدّواودة: قبيلة عربيّة كانت في خدمة المرينيّين إلى أن ثار أفرادها على الملك المريني أبي عنان وأعانوا أبا حمّو على استرجاع ملكه. انظر: جوليان. شارل أندري. تاريخ إفريقيا الشّماليّة. 200.

كما انضمّ قوم سقير بن عامر[1]لهذا الحلف، واشترك ثلاثتهم في الإغارة على الأراضي المرينيّة لإجلائهم منها، وواصلوا التّقدّم إلى أن جاءت البشرى بوفاة الملك المريني أبي عنان (27 ذي الحجّة 759هـ) [2]، عندها قرّر أبو حمّو موسى استرداد عرش أجداده المسلوب، بادئا بالعاصمة تلمسان، وقد رافقه في هذه الحركة العسكريّة السّياسيّة «صولة بن يعقوب بن علي، وكافّة أولاد عثمان بن سباع بن يحي بن مسعود من أعلام ذلك الرّهط»[3] بالإضافة إلى حليفه سقير وقومه من بني عامر، وفعلا تمكّن من تحقيق مبتغاه وتحقيق حلم بني عبد الواد في (الفاتح من ربيع الأوّل سنة 760هـ) [4].

وهكذا استطاع أن يعيد إحياء الدّولة الزّيانيّة، بعد أفولها زمنا، وخلّص بلاده مجدّدا من الاحتلال المريني، فكان له في ملك تلمسان أيّاما مشهودة نعرّج على ذكرها فيما سيلي من عناوين يضمّها بحثنا.

**و- بعـد الملـك:**

تزوّج أبو حمّو نساء كثيرات بعد وصول الملك إليه، ورزق منهنّ أولادا كثرا، لكنّ أوّل زواجه كان بندرومة حين كان برفقة والده وفي مقامه هناك ولد له أوّل أولاده أبو تاشفين سنة (752هـ) [5]، والثّابت تاريخيّا ذِكْرُ جلّ أولاده، أوردهم يحي بن خلدون حيث قال: «و أبو تاشفين أكبر أولاد مولانا الخليفة، الذي هم محمّد المنتصر ومحمّد أبو زيّان، ويوسف وعمر والنّاصر وعثمان، وفارس وعبد الله وأحمد والسّعيد، وعلي، ويعقوب، وأبو بكر، وداود وزيّان»[6].

و نلاحظ أنّ يحي بن خلدون لم يذكر أسماء بناته على عادة العرب الذين يعتدّون إلاّ بالبنين مفاضلة بهم، لكنّ على الأقلّ نعلم أنّه رزق أيضا بفتاة وأكيد ليست الوحيدة، تلك التي زوّجها أبو حمّو موسى من العالم الكبير أبي عبد الله الشّريف.

---

[1] بنو عامر: قبيلة عربيّة ساندت أبا حمّو في حركته لاسترجاع تلمسان. وكان زعيمهم وقتها سقير بن عامر. انظر: يحي بن خلدون. بغية الروّاد. 2: 22.

[2] انظر: يحي بن خلدون. المصدر نفسه. 2: 24.

[3] محمّد بن عبد الله التّنسي. تاريخ بني زيّان من ملوك تلمسان. 22.

[4] انظر: يحي بن خلدون. بغية الروّاد. 2: 37.

[5] انظر: يحي بن خلدون. المصدر نفسه. 2: 17.

[6] يحي بن خلدون. المصدر نفسه. 2: 273- 274.

فأمّا محمّد المنتصر ومحمّد أبو زيّان وعمر فإنّهم لأمّ واحدة، كان قد تزوّجها في ميلة، بينما يوسف فهو لأمّ أخرى وهي ابنة يحي الزّابي التي تزوّجها سنة (759هـ) [1].

حاول أبو حمّو أن يكون عادلا بين أولاده في حبّه والامتيازات التي يقدّمها لكلّ منهم، ولأنّه ابنه الأكبر، أوصى أبو حمّو لأبي تاشفين بولاية العهد[2]، بل أشركه في الحكم أيضا، بسبب ما فرضته عليه أولويّات السّلطة من تشكيل جيوش لمحاربة أعداء الدّاخل والخارج وتثبيت قواعد الملك وأسسه، إذ أصبح أبو تاشفين قائدا لأحد جيوش أبيه، التي تحارب هنا وهناك، وفق ما تقتضيه الحاجة.

لكنّه لم يهمل حقّ أبنائه الآخرين عليه، فقد كان يعطف عليهم، ويخصّهم بالمجالسة والمؤانسة، ثمّ قرّر فيما بعد أن يولّي بعض أولاده على نواحي المنطقة الشّرقيّة سنة (777هـ)[3].

فولّى المنتصر على مليانة، وأبا زيّان على المديّة ويوسف على تدلس وما يليها، وهنا أحسّ أبو تاشفين بالغيرة من إخوته، بل والخوف منهم على عرشه مستقبلا [4].

بعد تعيين أبي زيّان على المديّة، حدثت اضطرابات كثيرة وفتنة كبيرة بها، فقرّر أبو حمّو نقل ابنه منها، وتوليته على وهران، هذا التّصرّف أثار حفيظة أبي تاشفين، وأظهر ما كان يكتمه من غيرة وحسد وتخوّف، فطلب من والده أن يعقد له على وهران[5]، ولأنّه أظهر قوّة وشدّة وقدرة على إماطة كلّ من يقف في طريق طموحاته، كان على والده أن يجاريه في تلبية جميع رغباته تفاديا لشرّه، ويومها فقط أدرك أبو حمّو أنّه عليه أن يواجه عدوّا جديدا، هو الأخطر بين كلّ أعدائه لأنّه الأقرب منه.

عاش أبو حمّو حياة مليئة بالأحداث والاضطرابات، ومليئة أيضا بالانتصارات والانكسارات والهزّات، لكنّه رغم ذلك ظلّ شامخا ثابتة جذوره في الأرض حتّى لحظاته الأخيرة.

---

(1) انظر: عبد الحميد حاجيات. أبو حمّو موسى الزّياني. 138.

(2) انظر: عبد الحميد حاجيات. المصدر نفسه. 138.

(3) انظر: عبد الحميد حاجيات. المصدر نفسه. 138.

(4) انظر: عبد الحميد حاجيات. المصدر نفسه. 139.

(5) انظر: الميلي. تاريخ الجزائر في القديم والحديث. 2: 456.

فقد كان عليه مواجهة خطر بني مرين الذين ما يئسوا يوما من استرجاع ملك تلمسان، فكانت بينهم أيّاما متداولة، وعليه أيضا مواجهة الفتن التي يثيرها العرب هنا وهناك في أرجاء المملكة، بالإضافة إلى ابن عمّه أبي زيّان بن سعيد الذي كان مدعوما بجيوش بني مرين، يحاول المرّة تلو الأخرى انتزاع العرش منه.

لكنّ أكثر شيء وجب عليه مواجهته هو خطر ابنه، ووليّ عهده أبي تاشفين، الذي أصبح خطره يستفحل يوما بعد يوم، وطعمه في العرش بل استعجاله ليرث ملك أبيه يزداد تدريجيّا وبسرعة فائقة.

**2- أبو حمّو الملك:**

لقد كانت الجزائر قديما محظوظة أن كان على رأسها ملك ذو شخصيّة نادرة ندرة ما احتوته من خصال رفيعة، وخلال سامية، قلّما تجتمع لإنسان واحد، فجعلته بحقّ ومن غير مزايدة رجلا مميّزا وملكا عظيما، فحقّ للجزائر الحديثة أن تفتخر به، وأن تباهي به الأمم، لأنّه كان الملك صاحب البصمة الأبقى في تاريخها السّياسي القديم.

هذا الملك تمكّن من «استجماع خصال الفضل علما وأدبا وجودا وشجاعة»[1]، بل كان الأخطر بين ملوك الجزائر «في السّياسة والنّهضة بالعلوم والآداب»[2]، فهو السّلطان الأقوى عزما والأشدّ بأسا، قام بأعمال كثيرة وجليلة، وتحمّل من المشاق والآلام ما لم يمرّ على أحد قبله، وكان رغم ذلك صابرا، متحدّيا، مواصلا سيره، لتحقيق طموحاته في تكوين دولة قويّة الأساس، ذائعة الصّيت، خالدة على مرّ الأيّام، وما بقاؤه على كرسيّ العرش قرابة الواحد والثّلاثين عاما، إلاّ أكبر دليل على ذلك.

تميّز أبو حمّو موسى بدهاء كبير وحنكة سياسيّة، فكان كما وصفه يحي بن خلدون «كسرى السّياسة بالمغرب»[3]، ولأنّه كذلك ولكي يحافظ على ما وصل إليه، وليلتفّ أتباعه من حوله، كان أوّل ما قام به أن كافأ كلّ من آزره وحارب معه حتّى استردّ عرش أجداده، بما يعجز القلم عن عدّه وبما يشابه الخيال من الوصف.

---

(1) عبد الله حمّادي. دراسات في الأدب المغربي القديم. 250.

(2) محمّد طمّار. تاريخ الأدب الجزائري. 155.

(3) يحي بن خلدون. بغية الروّاد. 2:2.

و يورد يحي بن خلدون ذلك قائلا: « وكان أهمّ ما بدأ به أعلى الله مقامه الإحسان إلى أنصار الدّعوة، ووفود الهناء على بابه من العرب والعامريّة والمعقليّة[1] وهم زهاء ثمانية آلاف فكسا كلاّ منهم على قدره ونفل خواصّهم الخيل المسوّمة والسّروج المرفّهة والعدّة المحلاّة بالعسجد[2] واللّجين[3]، ثمّ المال المتعدّد» [4].

و لم يكتف بهذا، بل توجّه إلى أتباعه من قبيلة بني عبد الواد فأكرمهم بما لا نظير له «فاستركب منهم في يوم واحد ألف فارس، يكسي الرّجل منهم بقدره ويدفع إليه فرس مسرّج ملجّم ومهماز، وسيف ورمح وثلاثة من الذّهب وعشرون برشالة من القمح وثلاثون من الشّعير»[5].

هي بحقّ نظرة سياسيّة ثاقبة، فإكرام هؤلاء نظير ما قدّموه، سيجعلهم رهن إشارته، مؤتمرين بأوامره، ذائدين عنه، وعن المملكة بالنّفس والنّفيس، ولم يكن هذا كلّ شيء بل أقطعهم أراضي واسعة أفرادا وقبائل من أجل نفس الأسباب، وتدعيما لنفس النّظرة.

ولم يكن أبو حمّو موسى الملك المفضّل للحرب، ولا الرّاغب فيها، وإنّما هي متطلّبات الوضع الذي فرض نفسه، فهو على رأس دولة تحيط بها الأخطار من كلّ جانب ويتربّص بها كلّ متربّص، في الدّاخل والخارج على السّواء، لذلك «اضطرّ هذا الأديب المؤثر للدّبلوماسيّة على الحروب إلى قضاء ملكه في قمع الثّورات ومقاومة الأدعياء»[6] [1].

عندما وجد أبو حمّو نفسه أمام أمر محتوم، كان أحسن من تصدّى وأذكى من دبّر، إذ ظهرت حنكته السّياسيّة متجلّية، حين عرف عدوّه فواجهه، خاصّة عدوّ الدّاخل المتمثّل في تلك القبائل غير الثّابتة على منهج ولا دائمة الإخلاص لفريق على حساب الآخر، فهي كثيرة التّقلّب في مواقفها، ففي الوقت الذي تُظهر فيه الطّاعة والولاء لأبي حمّو وسلطانه، لا تتوانى في عقد تحالفات ضدّه، والمشاركة في مؤامرات تهدّد عرشه.

---

[1] المعقل: قبيلة عربيّة مواطنهم بين زناتة. وقد كانوا أحلافا لهم. وأكثر ولائهم لمرين. انظر: مبارك بن محمّد الميلي. تاريخ الجزائر في القديم والحديث. 2: 372. 373.

[2] العسجد: الذّهب. وقيل هو اسم جامع للجوهر كلّه من الدّر والياقوت. انظر: ابن منظور. لسان العرب. مادّة (عسجد).

[3] اللّجين: الفضّة. لا مكبّر له. انظر: ابن منظور. المصدر نفسه. مادّة (لجن).

[4] يحي بن خلدون. بغية الرّوّاد. 2: 39.

[5] يحي بن خلدون. المصدر نفسه. 2: 39.

[6] شارل أندري جوليان. تاريخ إفريقيا الشّماليّة. 2: 206.

ولأجل ذلك كان هذا الملك « دائم اليقظة، عارفا بتقلّبات القبائل والتّمرّد والثّورة، وهذا ما يفسّر تلك الهجومات المفاجئة التي كان يشنّها من وقت إلى آخر في أطراف البلاد، حتّى يبيّن لهم أنّه يعرف الحركات والدّسائس والمؤامرات التي تدبّر في طيّ الخفاء ضدّ سلامة الدّولة»[1].

وللأسباب السابقة الذّكر، كان يشعل فتيل الفتنة بين القبائل المناوئة له، كسرا لشوكتها ودرءا لخطرها، ولكي تنشغل بما بينها عنه وعن ملكه.

فالتّصدّي للقبائل التي شقّت عصا الطّاعة، لم يكن آخر همومه السّياسيّة حيث كان عليه مواجهة العدوّ الأزلي للدّولة، بنو مرين وأشياعهم، وكان له في ذلك صولات وجولات.

ومن المهام الأولى التي قام بها عشيّة تولّيه السّلطة، إعادة النّظر في نظام الحكم، و«تمهيد جوانب ملكه، وتطهير أمصار مملكته من بني مرين»[2].

فكانت ورقة السّلم والحرب هي الرّابحة، فإذا وجد نفسه قادرا على مواجهة المرينيّين وجيوشهم بادرهم بالحرب، وفي الوقت الذي يوجس فيه ضعف إمكانيّاته، أو أنّ الفرصة غير مواتية للصّراع العسكري، قَبِل بالسّلم معهم ومدّ لهم اليد في ذلك.

وسياسيّا دائما عمل أبو حمّو على تنظيم جنده بالصّورة التي يضمن بها إخلاصهم، ويَأْمَنُ بها خديعتهم، فكان يرى أنّه من الواجب «أن يعادل عدد المماليك عدد الأنصار، حتّى تتوازن قوى الجيش وإذا ما حاول الأنصار العصيان أو التّمرّد، واجههم السّلطان بالمماليك»[3].

كما عمل على استخدام القوّة العسكريّة لزرع الرّعب في قلوب الأعداء حيثما كانوا داخليّا أو خارجيّا، وتأتى له ذلك من خلال الاستعراضات العسكريّة التي يقوم بها بين الفترة والأخرى، فيجمع لها حشود الجند، ويستعرض القادة فيالقهم أمام حشد الصّفوة، يتوسّطهم أبو حمّو بكامل أبّهته الملكيّة، ويصف يحي بن خلدون ذلك قائلا: «صدرت الأوامر العلية للقبيل الأعزّ وكافّة القوّاد المذكورين بحشد العساكر إلى الحضرة الكريمة لتعرض بين يدي

---

[1] محمّد طمّار. تلمسان عبر العصور. 203.

[2] محمّد طمّار. المرجع نفسه. 146.

[3] بوزيّان الدّراجي. أنظمة الحكم في دولة بني عبد الواد الزّيانيّة. 257.

خليفة الله، فجلس أمير المؤمنين أيّده الله تعالى لعرض جيوشه المظفّرة في خباء مطلّ من أعلى هضبة على بسيط مستوّ، اصطفّت به الكتائب لا يحويها عدد»[1].

لم تكن عبقريّة أبي حمّو الملك القويّ، والسّياسي المحنّك لتستثني سمة القائد فيه، بوصفها إحدى الخصال التي كوّنت شخصيّته المتكاملة، فسرعان ما ظهرت قدرته العسكريّة، وتجلّى تفوّقه كقائد حكيم[2]، يستشعر عدوّه أينما كان فيتصدّى له، ويواجه كلّ موقف بما يليق به، وكان في ذلك يتأرجح بين اللّجوء إلى الحيلة والخديعة أو المواجهة الفعليّة في ساحات القتال، ومرّات أخرى إلى عقد الصّلح وطلب السّلم وسواء في هذه أو تلك، اتّضح تميّزه وتفوّقه.

غير أنّ كثرة الأعداء وتنوّع أحقادهم، كانت تتغلّب على إمكانيّات هذا القائد أحيانا، خاصّة الضّربات القادمة من الدّاخل من طرف القبائل الحاقدة على مجد بني عبد الواد عموما وما وصل إليه أبو حمّو موسى تحديدا.

فقد كان أحيانا «لا يفوز فوزا مبينا في وقائعه مع الأعداء، وذلك يرجع إلى خيانة توجين ومغراوة، الذين كانوا ينظرون إلى مجد " أبي حمّو " نظرة حقد وغيظ، يرون أنفسهم أندادا لبني عبد الواد»[3].

فهم لم يتمكّنوا يوما من التّسليم بالأمر الواقع في أن يكونوا أتباعا لبني عبد الواد، الذين كبحوا جماح أطماعهم، في الاستحواذ على المغرب الأوسط، بل وألزمهم مليكهم أبو حمّو الطّاعة وكلّ ما يترتّب عليها من إذعان وتقديم للجبايات.

لم يعرف أبو حمّو القيادة ملكا فقط بل إنّه تسلّم زمام القيادة قبل اعتلائه عرش تلمسان، فكانت بادرة ذلك متمثّلة في رحلة استرجاع ملك آل زيّان الضّائع، والمخاطر التي لحقت به في سبيل تحقيق حلمه، فانطلاقا من تونس، برز سليل بني عبد الواد كقائد باسل يخوض المعارك كأحسن ما يكون عليه القادة، حيث لم يتوقّف عن مضايقة فلول بني مرين ومطاردتهم أينما كانوا حتّى حقّق مبتغاه.

---

(1) يحي بن خلدون. بغية الروّاد. 2: 181.

(2) انظر: أبو حمّو موسى الثّاني. واسطة السّلوك في سياسة الملوك. مطبعة الدّولة التّونسيّة. تونس. 1279ه/1862م. ص78.

(3) محمّد طمّار . تلمسان عبر العصور. 203.

لقد خاض أبو حمّو معارك كثيرة عشيّة اعتلائه عرش تلمسان، فما كانت مرين وأشياعها ليقفوا مكتوفي الأيدي، ومجد قبيلة عبد الواد يلوح من جديد.

وكان يدخل في معارك شرسة لاسترجاع أقطار المغرب الأوسط التي استولى عليها المرينيّون، لكن ذلك لم يتحقّق له بسهولة، ولم يستطع استرجاع جلّ أقطاره من أوّل معركة، بل تطلّب منه ذلك الوقت الكثير، وتكرار المحاولات أحيانا كما حدث مع مدينة وهران، حيث كانت مطلب أبي حمّو الأوّل بعد استيلائه على تلمسان.

تلك المحاولات كانت تدخل ضمن تنظيم شؤون الدّولة التي باشرها أبو حمّو، والذي استطاع الحصول على تأييد الكثيرين بسبب السّياسة المنتهجة، كبيعات وجدة[1]، وندرومة وهنين، ثمّ توالت بيعات مستغانم[2]، وغيرها من المدن في حين كانت وهران والجزائر وغيرهما تعاني تحت وطأة الاحتلال المريني[3].

وقد كان على أبي حمّو الملك القائد أن يدخل معارك أخرى لا تقلّ شراسة عن تلك التي جمعته مع المرينيّين، حيث كان عليه أيضا التّصدّي لابن عمّه أبي زيّان الذي نافسه الملك فعلا على بعض مناطق المغرب الأوسط الشّرقيّة[4] كالمديّة[5]، وحصوله على طاعة الجزائر، بسبب الدّعم الذي كان يلقاه من الجيران في المغرب الأقصى.

وإضافة إلى ما سبق، وجد الملك أبو حمّو نفسه أمام عدوّ أشرس من السّابقين، أجبره على الدّخول في معارك ضارية، دفاعا عن ملكه أوّلا، ثمّ عن حياته في نهاية الأمر، ولم يكن ذاك العدوّ سوى ابنه الأكبر أبي تاشفين الذي «رفعه عن الباقين وأشركه في أمره وأوجب له الوزارة»[6]، لكنّ الغيرة من إخوته وطمعه الشّديد في الاستيلاء على ملك أبيه جعله ابنا عاقّا وناكرا للجميل.

---

[1] وجدة: مدينة قدمة على بعد 80 كم غربي تلمسان كانت تابعة لمملكة بني عبد الواد، وهي اليوم تابعة للمغرب الأقصى. انظر: التّنسي. تاريخ بني زيّان. 287.

[2] مستغانم: مدينة قديمة تعدّد ذكرها عند المؤرّخين القدامى. تقع على شاطئ البحر على بعد 90 كم شرق وهران. انظر: الإدريسي. القارّة الإفريقيّة وجزيرة الأندلس. 171- 172.

[3] انظر: عبد الحميد حاجيات. أبو حمّو موسى الزّياني. 93.

[4] انظر: عبد الرحمان الجيلالي. تاريخ الجزائر العام. 2: 184.

[5] المديّة: مدينة تقع على بعد 80 كم جنوب الجزائر العاصمة. انظر: التّنسي. تاريخ بني زيّان. 287.

[6] عبد الرحمان ابن خلدون. تاريخ ابن خلدون. 2: 2802.

ورغم الحياة القاسية التي عاشها أبو حمّو موسى فترة حكمه، ممزّقا بين إخماد الفتن الدّاخليّة والوقوف في وجه الحملات القادمة من الخارج، إلاّ أنّ تلك القسوة لم تؤثّر على تكوين شخصيّة الملك المتطلّع إلى خدمة الرّعيّة ومراعاة حقّهم عليه، فكان نعم المسؤول المحبّ لشعبه والمخلص له والذّائد عن حدوده، لذلك كان وعلى كثرة مسؤوليّاته، وعلى قلّة فترات الاستقرار، طوال مدّة ملكه يقوم «بأعباء الملك أحسن قيام»(1).

ومن ثمّ فقد خصّص وقتا محدّدا يجلس فيه على عرشه ليتشاور مع رجال بلاطه في شأن أحوال الدّولة، فيراعي مصالح الأمّة ويعمل على متابعة مشاريع الشّعب المقامة في شتّى أنحاء المملكة من إنشاء للمدارس أو المساجد أو الحثّ على تحقيق الأمن في الطّرقات سلامة للمواطنين وما شابه ذلك من إنجازات تعود بالفائدة على البلاد والعباد.

كما أنّه حدّد توقيتا آخر يستقبل فيه الوفود القادمة للتّهاني أو التّقرّب أو إظهار الولاء، ووقتا مقدّسا يخصّصه لسماع شكاوى المواطنين أو طلباتهم أو التّدخّل لحلّ بعض نزاعاتهم، ولأجل كلّ ما سبق كان «يجلس لمصالح العباد طرفي النّهار وزلفا من اللّيل»(2).

ويقول صاحب " تاريخ بني زيّان " في هذا الشّأن « ولمّا استقرّ المولى أبو حمّو من هالة في نصابه، وانتزع دولته من يد غصّابه، ساس أهل مملكته بالسّيرة الحسنى، وغمر الرّعيّة قسطاس عدله الأسنى، وقسّم أوقاته بين حكم يقضيه وحقّ يمضيه، وعاقّ يرضيه، وسيف لحماية الدّين ينضيه، وجفن على عوراء الأمّة يغضيه»(3).

ونتيجة لهذا الجهد المبذول، استطاع أن يصل بالدّولة إلى أعلى المراتب بين نظيراتها، إذ لم تشهد الجزائر تطوّرا كبيرا في مجال العلوم والآداب كما كان في عهد هذا الملك المتميّز، رغم ما تخلّل عهدته الملكيّة من اضطرابات فلو «حظي هذا الملك بشيء من الاستقرار لوصل بدولته إلى مراتب في منتهى الرّقيّ والازدهار، نظرا لما كان يتحلّى به من علم وأدب وما لديه من طموح وحوافز تُؤَهله للنّجاح في مهامّه»(4).

ولا نبتعد عن السّياسة دائما لنجد أنّ هذا الملك الذي أجاد داخليّا، قد تفوّق أيضا في السّياسة الخارجيّة، إذ عمل على تمتين علاقاته ببعض أمراء بني حفص أيّام سلمه معهم،

(1) الحاج محمّد بن رمضان شاوش. باقة السّوسان في التّعريف بحاضرة تلمسان. 105.

(2) يحي بن خلدون. بغية الروّاد. 02: 11.

(3) محمّد بن عبد الله التّنسي. تاريخ بني زيّان ملوك تلمسان. 160.

(4) بوزيّان الدّراجي. نظم الحكم في دولة بني عبد الواد الزّيانيّة. 34.

وكان توجّهه الأكبر نحو الأندلس وحاكميها فهي مسقط رأسه قبل أن تكون قطرا إسلاميّا عزيزا يعاني تحت وطأة الغزو الصّليبي، الذي قلّص حدوده واستنزف ثرواته وقضى على الكثير من الأرواح البريئة هناك، بل أفجع المسلمين في معقل حصين للإسلام.

لقد عمل أبو حمّو على تقوية علاقاته مع ملوك بني الأحمر(1)، ولأنّ الأندلس حينها كانت في أسوأ حالاتها، تحتاج لكلّ مساعدة ومعونة، فقد اعتاد أبو حمّو أن يتقدّم بمساعدات كبيرة لإخوانه الأندلسيّين، نصرة للإسلام والمسلمين وتدعيما لعلاقاته الجيّدة بملوكهم، فكانت تلك المعونات قيّمة جدّا، تضمّ المحاصيل الكثيرة، والآلاف المؤلّفة من الدّنانير الذّهبيّة.

ولم تكن تلك المنح عابرة أو طارئة، وإنّما ثابتة سنويّا، وهو يحاول من خلالها، أن يكفّر عن عجزه على المشاركة الفعليّة عسكريّا في الجهاد العظيم الحاصل هناك ذودا عن الإسلام.

كان يصل إلى بابه رسل الأندلس القادمين لحمل المعونات الممنوحة ويصف صاحب "بغية الروّاد" مشهدا مماثلا إذ يقول: « وصل إلى الباب العليّ الفقيه الكاتب إبراهيم بن الحاج رسولا من الأندلس يطلب من أمير المسلمين أيّده الله إرفاد المسلمين بالأندلس وإعانتهم على مجاورة عدوّ الله ورسوله حسبما جرت عادته بذلك، فوجّه معه إليهم خمسين ألف قدح من الزّرع وثلاثة آلاف دينار من الذّهب»(2).

و من الأمور التي جرت عليها العادة أن يستصرخه شعراؤها شعرا يذكي الحميّة رجاء مساعدته التي تعتبر خير معين لجيوش المجاهدين هناك، وكان على رأس أولئك الشّاعر الكبير لسان الدّين بن الخطيب(3) إذ كان يحضر إلى تلمسان محمّلا بقصائد رنّانة، يمدح فيها السّلطان ثمّ يشكو له سوء الحال، فيحرّك في نفس أبي حمّو مشاعر الغيرة على الدّين ورحم الملّة، وهو العاجز عن موافاتهم إلى ساحات القتال، بسبب أعباء ملكه، حينها يجود

---

(1) بنو الأحمر: كانت أهمّ الدّول التي حكمت بعد اضمحلال الموحّدين. مدّة أكثر من قرنين ونصف في غرناطة. انظر: أحمد السّعيد سليمان. تاريخ الدّول الإسلاميّة ومعجم الأسر الحاكمة. دار المعارف. مصر. د.ت. ج1.ص35.

(2) يحي بن خلدون. بغية الروّاد. 2: 114.

(3) لسان الدّين بن الخطيب: هو أبو عبد الله محمّد بن عبد الله من مواليد 25 رجب 713ه/ 16 نوفمبر 1313م. من أكبر شعراء زمانه. أديب ومؤرّخ أندلسي. انظر: المقري. أزهار الرّياض في أخبار القاضي عياض. تحقيق: مصطفى السقّا. وإبراهيم الأبياري. وعبد الحفيظ الشّلبي. مطبعة لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر. القاهرة. 1939. ص186 وما بعدها.

على إخوانه فيمدّهم «في سبيل الله بالأحمال العديدة من الذّهب والفضّة والخيل المسوّمة والمراكب المشحونة زرعا»[1].

و لم تكن هبات أبي حمّو وإحسانه، بل وشعوره بالمسؤوليّة اتجاه إخوانه الأباعد فقط، وإنّما كان كذلك مع الأقربين الأولى بالمعروف. فمن بين مواقفه المشرّفة اتّجاه شعبه في لحظات المحنة، موقف جليل حفظه له التّاريخ وخطّه بحروف من ذهب.

حيث ثبت تاريخيّا أنّ الجزائر في مرحلة من مراحل حكم السّلطان أبي حمّو موسى قد تعرّضت لريح صرصر عاتية أفسدت الحرث واقتلعت الأشجار، وهدّمت المباني وأتت على الممتلكات، بل أزهقت العديد من الأرواح أيضا[2]، وكان من مترتّباتها أن تعرّضت البلاد لمجاعة كبيرة لم يعرف لها مثيل في هذا القطر، فأصاب النّاس الجوع وهم من عرف عنهم أنّهم أهل الخيرات كلّها، إذ لطالما كانوا يتقاسمون ألوان النّعيم، وقد ذهب بعض المؤرّخين إلى أنّ الخلق من شدّة الجوع كانوا يأكلون بعضهم بعضا على سبيل المبالغة، وهنا وفي هذا الموقف الجلل ظهر مليكهم كأحسن من يقود أمّة في مواسم فرحها وقرحها على السّواء، حيث لم يتردّد أبو حمّو في فتح أبواب خزائنه لإنفاق أموالها على شعبه[3]، وأطلق يده معطاءة في ذلك، حتّى أخذ الله بيد الرّعيّة وأخرجهم من محنتهم، فكان بحقّ نعم الرّاعي المسؤول عن رعيّته.

ومن جهة أخرى ظهرت ألمعيّة أبي حمّو في السياسيّ المحنّك الذي يسوس الأمور بحكمة، ويزنها بميزان العقل ويتروّى في اتّخاذ القرارات حين مني بعقوق ابنه الأكبر، ووريث عرشه بل وذراعه الأيمن في تسيير الملك وقيادة الجيوش، فتجلّى نبوغه السّياسي في مجاراته لتعنّت ابنه بتلبية كلّ أطماعه لا خوفا منه ولا رعبا وإنّما لبصيرة له وبعد نظر، حتىّ يتمكّن من تنظيم أموره وتدبّر شؤونه في هدوء وفي الخفاء، ليتسنّى له بعدها التّصدّي لهذا العدوّ القريب، وما إذعانه لطلب أبي تاشفين في الحصول على منطقة " وهران " وانتزاعها من أخيه إلاّ دليل على ذلك، وكان إنكاره لمخطّطه في الانتقال إلى الجزائر ومن ثمّ اتّخاذها عاصمة جديدة له، بل وتظاهره بالانصياع لرغبات ابنه دليل آخر وأكبر على دهاء الملك.

---

(1) يحي بن خلدون. بغية الروّاد. 2: 174.

(2) انظر: عبد الملك مرتاض. حركة الشّعر المولدي. الأصالة. 1975/26. ص316.

(3) انظر: عبد الملك مرتاض. المرجع السابق. 316.

وعبقريّة أبي حمّو موسى الملك، لم تتجلّ في السّياسة فقط، بل ظهرت ملامحها أيضا في اهتمامه بركيزة نهوض الأمم والشّعوب، ألا وهي العلم والعلماء، فكان أحسن من اهتمّ بهما ورفع قدريهما في دولته وبجّل كلّ ذي علم ومعرفة ونبوغ دينيّ أو علميّ أو أدبيّ.

وقد أقرّ التّاريخ بأن «كان بلاطه ملتقى العلماء والشّعراء»[1]، يزدحم بعدد كبير منهم في شتّى العلوم والآداب، على رأسهم أسماء لامعة، كيوسف الثّغري[2]، وبوجمعة التّلاليسي، ولا ننسى كاتبه الخاص المؤرّخ يحي بن خلدون[3]، والفحّام[4]، وغيرهم كثير من مشاهير ضمّتهم جنبات تلمسان وأحاطتهم عناية أبي حمّو موسى.

أمّا تقديره للشّعر والشّعراء تحديدا، فهو لا يوصف ولا يحاط به، وربّما يرجع سبب ذلك لكونه هو نفسه شاعر ملفق، ولكثرة ولعه بالشّعر، كان يخصّص له مهرجانا كبيرا بمناسبة ذكرى المولد النّبوي الشّريف، فيأخذ مجلسه فيه لينشد أوّلا ثمّ يستمع لأروع القصائد التي أجهدت أصحابها لتظهر في حلّة بهيّة بهاء تلك اللّيلة المباركة.

لقد كان أبو حمّو فعلا ودون مبالغة «أيّام دولته مكرّما للعلماء ومجلاّ لهم (...) وأمّا اعتناؤه بالعلم يقصر اللّسان عن الإحاطة به»[5]، تلك العناية التي دفعته إلى تشييد المدارس العديدة ثمّ تجهيزها، بل وصرف مرتّبات قارّة للمعلّمين فيها، ومنح خاصّة بالطّلبة وأماكن إيواء لهم أيضا[6].

كما عمل على جذب أحسن العلماء للتّدريس فيها، وبذل لهم العطاء تقديرا لهم ولعلمهم، فكانت هذه المجهودات والمساعي لهذا الملك المتعلّم المحبّ للعلم وراء إجادة

---

(1) انظر: عبد الحميد حاجيات. أبو حمّو موسى الزّياني. 147.

(2) الثّغري: (توفي في أواخر القرن الثّامن الهجري. أوائل القرن 15 ميلادي). محمّد بن يوسف القيسي التّلمساني، شاعر، أديب، كاتب، من أشهر شعراء وبلغاء تلمسان، له قصائد كثيرة. انظر: عادل نويهض. معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتّى العصر الحاضر. 92.

(3) يحي بن خلدون: أخ المؤرّخ عبد الرّحمان بن خلدون، ألّف في دولة أبي حمّو موسى الزّياني بغية الروّاد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، كان كاتبا وشاعرا. انظر: مبارك بن محمّد الميلي. تاريخ الجزائر في القديم والحديث. 2: 453.

(4) ابن الفحّام: هو أبو الحسن علي بن أحمد، أخذ عن أبي عبد الله بن النّجار واشتهر بصنع المنكانة، انظر: عبد الحميد حاجيات. الحياة الفكريّة بتلمسان في عهد بني زيّان. الأصالة. 1975/26. ص153.

(5) عبد الله حمّادي. دراسات في الأدب المغربي القديم. 250.

(6) انظر: التّنسي. تاريخ بني زيّان. 180.

معلّمي تلمسان، ومن ثمّ تفوّق الطّلاّب، فما لبث أن ذاع صيتهما معا، فغدت تلمسان مطلب كلّ عالم يريد أن ينفع بعلمه، ومطمح كلّ طالب علم يبحث عن المعرفة.

وحينها استطاعت عاصمة أبي حمّو أن تنافس أشهر العواصم العلميّة في العالم، وذلك بفضل «بذل السّلطان أبو حمّو الثّاني خلال هذا الدّور طاقة جبّارة كي يجعل من دولته منارا للعلم والأدب والفنّ في المغرب الإسلامي»[1].

ولعلّ أهمّ ما ميّز هذا الملك العظيم، قدرته الفائقة بل النّادرة إلى درجة الأسطوريّة على تحمّل شتّى أنواع المصائب والهموم، وأيضا ما كان يمتلكه من قوّة عجيبة مكّنته من تحدّي الصّعاب والتّغلّب عليها.

تلك الأزمات التي مرّت عليه لم تتمكّن منه، فما خارت قواه ولا عزفت نفسه عن طلب مطمحها، فكانت كلّ عاصفة تهبّ محاولة اقتلاعه، تتلاشى أمام صلابة روحه وقوّة عزمه، ولو مرّ على غير أبي حمّو موسى ما تكالب عليه لسقط هامدا سقوطا لا نهوض بعده.

فهي خيانة القبائل وعصيانها وتآمرها عليه في داخل الحدود أوّلا، وهي حربه الضّروس طويلة الأمد مع أعداء الدّولة الدّائمين بني مرين وأتباعهم من أبناء قبيلة بني عبد الواد ومن القبائل الأخرى الخائنة ثانيا، والمجاعة الكبيرة التي بليت بها الأمّة والتي أهلكت النّسل والحرث ثالثا.

أمّا الرّابعة وهي قاسمة الظّهر، والتي تكفي منفردة لتقضي على أعظم الملوك وأقوى الرّجال، خيانة القريب الأقرب، فلذة كبده، ابنه ووليّ عهده، هذا الابن الذي حلم والده أيّام ملكه المبكّرة أن يجعل منه ملكا عظيما يخلّفه على رأس الدّولة الزّيانيّة.

ومن أجل ابنه أبي تاشفين، وليغدو حلمه واقعا، ألّف له كتابا خاصّا ينبّهه فيه إلى مهامّ الحكم ولعبة السّياسة، وتقاليد تنظيم الجيوش، ولم يكتف بهذا بل أوصى له بولاية العهد، وأشركه مقاليد الحكم وسلّمه قيادة الجيوش.

كلّ هذا ليحصل في الأخير على ابن عاقّ وناكر للجميل، يستعجل موت أبيه ليرثه على عرش الملك، والأدهى والأمرّ يسعى جاهدا لتحقيق ذلك[1].

---

[1] بوزيّان الدّراجي. نظم الحكم في دولة بني عبد الواد الزّيانيّة. 34.

لقد ساءت العلاقة بين أبي حمّو وابنه أبي تاشفين «فشمّر لعقوقه وعداوته»[2]، وتوالت الأحداث حاملة بين طيّاتها صراع الأب وابنه، إلى أن قرّر أبو حمّو أن يترك تلمسان قاصدا الجزائر ليتّخذها عاصمة جديدة، يجعلها منطلقا لتثبيت ملكه، لكنّ سرعان ما عرف ابنه بالخير عن طريق جواسيسه وواجهه بما سمع، لكنّ أبا حمّو أنكر وأضمر في نفسه شيئا آخر، إذ قرّر إرسال أموال لابنه المنتصر وكتاب له بتوليته على الجزائر، لكنّ أمره كشف مرّة أخرى، وهنا قام أبو تاشفين بعزل والده عن العرش، وبعد ذلك قرّر الحشد لقتال إخوته الأمراء، فحاصرهم في جبل تيطري[3]، ثمّ أرسل من يقتل والده وإخوته الآخرين في تلمسان، إلاّ أنّ أبا حمّو لمّا سمع بمقتل أبنائه المقيمين بتلمسان استنجد بسكّان المدينة، فهرّبوه من القصر وجدّدوا له البيعة « فطار الخبر إلى أبي تاشفين بمكانه من حصار تيطري، فانكفأ راجعا إلى تلمسان فيمن معه من العساكر والعرب»[4].

بعد سماع أبي تاشفين خبر هروب والده، لحق به على الفور، وحينها استعصم بمئذنة المسجد نجاة بنفسه، فرقّ قلب ابنه عليه واكتفى باعتقاله، ومرّة أخرى لجأ أبو حمّو للحيلة فطلب من ابنه أن يرسله لبيت الله الحرام حاجّا، فلبّى الابن طلبه وأرسله بحرا، لكنّ أبا حمّو نزل في بجاية، ومنها انطلق يستنفر طوائف العرب فاجتمعوا إليه، غير أنّ قبيل بني عبد الواد قرّروا الالتفاف حول ابنه[5].

وحين بلغ أبا تاشفين الخبر، قصد ملك المغرب مستنجدا، فرأى هذا الأخير الفرصة مواتية للتّخلّص من عدوّ الدّولة اللّدود، فأرسله على رأس جيش كبير[6]، وفي ذلك الوقت تمكّن أبو حمّو من دخول تلمسان بعد هروب ابنه، واستقدم أبناءه، ثمّ جعل جيشه يعسكر

---

[1] انظر: أبو الفلاح عبد الحي الحنبلي. شذرات الذّهب في أخبار من ذهب. تحقيق: لجنة إحياء التّراث العربي. دار الآفاق الجديدة. د ت. ج5. ص344.

[2] عبد الرحمان بن خلدون. التاريخ. 2805.

[3] تيطري: جبل واقع في بلاد توجين بين سعيدة والمديّة. انظر: يحي بن خلدون. بغية الروّاد. 2: 193.

[4] عبد الرحمان بن خلدون. التاريخ. 2806.

[5] انظر: الميلي. تاريخ الجزائر في القديم والحديث. 2: 457.

[6] انظر: عبد الحميد حاجيات. أبو حمّو موسى الزّياني. 153.

بالغيران[1]، فاستطاعت عيون بني مرين معرفة المكان « وجاءوا لتلمسان فلقيهم أبو حمّو بجيشه بجبل ورنيد[2]، فاقتلوا شديدا (...) بموضع يقال له الغيران من بني ورنيد»[3].

لكنّ القدر لم يخدم أبا حمّو هذه المرّة، حيث كَبَا بِهِ فرسه وسقط أرضا، فأدركه بعض فرسان بني مرين وتعرّفوا عليه، فقتلوه قعصا بالرّماح، وجاءوا برأسه إلى ابنه أبي تاشفين ومن معه، وكان ذلك في (أوّل ذي الحجّة 791هـ الموافق لـ:21 نوفمبر 1389م)[4].

كان ذلك أبا حمّو موسى الثّاني الملك الذي تفتخر الجزائر أنّها أنجبته رجلا عظيما وحوته قائدا وزعيما، ولم يكن أقلّ تميّزا في مجال الشّعر على غرار القيادة والسّياسة.

### 3- أبـو حمّـو الشّاعــر:

سمة أخرى ميّزت شخصيّة أبي حمّو موسى، بل دعامة من دعائم الإنسان فيه، أخذت بلبّه على قلّة الوقت المخصّص لإظهارها، ألا وهي قرض الشّعر.

لقد كان الملك الغنيّ بما امتلكه من مواهب شاعرا مجيدا، يشهد الجميع له بذلك[5]، من شعراء عاصروه، أو مؤرّخين حفظوا لنا أجزاء من شعره، وحتّى بعض النقّاد المحدثين الذين اطّلعوا على هذا الشّعر ودرسوه.

فلأبي حمّو موسى شعر كثير « يمثّل عصره أغراضا وأسلوبا، موزّعا بين كتب التّاريخ»[6]يشهد على شاعريّة الرّجل. ولأنّه شاعر وصاحب ثقافة، فقد اهتمّ بالشّعر، ورافق الأدباء والشّعراء وجالسهم واستمع إليهم كما أسمعهم شعره، حيث كان «أديبا يحبّ الأدباء، ويجيز الشّعراء، له مجالس خاصّة يحضرها كبار العلماء، وفحول الشّعراء، تناقش فيها قضايا العلم والأدب، فلا تكاد تعرض مسألة إلاّ ولأبي حمّو فيها رأي محمود ونقد بنّاء»[7]،

---

(1) الغيران: منطقة جنوب تلمسان ناحية سبدو. انظر: مبارك بن محمّد الميلي. تاريخ الجزائر في القديم والحديث. 2: 457.

(2) جبل ورنيد: جبل بمنطقة تلمسان. انظر: يحي بن خلدون. بغية الروّاد. 2: 243

(3) الآغا بن عودة المزار. طلوع سعد السّعود. تحقيق: بوعزيز يحي. دار المغرب الإسلامي. الجزائر. د ت. ج1. ص188.

(4) انظر: عبد الحميد حاجيات. أبو حمّو موسى الزّياني. 154.

(5) انظر: عبد الملك مرتاض. حركة الشّعر المولدي. الأصالة. ع 1975/26. ص317. وعبد الرحمن الجيلالي. تاريخ الجزائر العام. 2: 181.

(6) قاهر محمّد الشّريف. لسان الدّين بن الخطيب وتراثه الفكري في تلمسان. مجلّة الأصالة. ع 1975/26. ص243.

(7) قاهر محمّد الشّريف. المرجع نفسه. 242-243.

حتّى إنّ المقرّي قد وصفه في مُؤَلّفه "أزهار الرّياض" بأنّه « يقرض الشّعر ويحبّ أهله»[1]، وباعتلائه العرش الزّياني، تطوّرت الثّقافة في عاصمة الدّولة، وفُتِح الباب واسعا لتنافس المتنافسين في قرض الشّعر وإجادته، وقد كان أبو حمّو في مقدّمة هؤلاء الشّعراء الذين ضمّهم بلاطه، لذلك « زاحمهم في هذه الصّناعة ولم تصرفه مشاغل الملك عن مجاراتهم»[2].

لقد تمازج في تلمسان حينها أثر المشرق والأندلس في حضارة البلاد وثقافتها، هذا الأثر كان أكثر وضوحا في الشّعر « الذي أبدى فيه أصحابه براعة وصنعة ومهارة فنيّة، تجعل هذا الشّعر لا يقلّ قيمة عمّا كان ينظم في كلّ الأقطار الإسلاميّة في الشّرق والغرب»[3].

وما أبو حمّو موسى إلاّ واحد من أولئك، يجري عليه ما يجري عليهم، كما كان جليّا تأثّر هؤلاء الشّعراء جميعا بكبار شعراء العرب، سائرون في إنتاجهم على نفس الطّريقة التي عالج بها عظماء التّراث الشّعري العربيّ قصائدهم في كلّ أغراضهم، وكان من أمثلة ذلك اتّخاذ أهل القافية من المغاربة « أبا تمّام والمتنبّي مثالين ينسجون على منوالهما كلّما أرادوا التّعبير عن معاني القوّة والحزم وضبط الأمور وسلوك الجدّ في الحياة كما فعل أبو حمّو الثّاني في شعره»[4].

ورغم ذلك الانبهار بالمشارقة وإنتاجهم باعتبارهم أصل الشّعر العربيّ، غير أنّ المغاربة استطاعوا أن يجدوا لهم خصوصيّة تميّزوا بها وحتّى إن لم تكن تلك الجدّة في المواضيع أو الشّكل أو بنية القصيدة، ففي الأغراض الحاضرة بشدّة على السّاحة الشّعريّة، وعلى رأسها الفخر والحماسة وشعر الحكمة باعتبارها أكثر الأغراض تداولا، بالإضافة إلى المولديّات خصوصا في مرحلة أبي حمّو موسى.

كان الملك الزّياني أحد المهتمّين بغرض المولديّات، بل والمشجّع على القرض فيه، عبر تلك الاحتفاليّة العظيمة التي يقيمها في كلّ مولد لتكون منبرا للقصائد المولديّة، وقد كان هذا الغرض يحتلّ نصيب الأسد في تعداد قصائده التي وصلت إلينا.

---

(1) قاهر محمّد الشّريف. المرجع نفسه. 243 نقلا عن: المقرّي. أزهار الرّياض في أخبار عياض. 1: 249.

(2) قاهر محمّد الشّريف. المرجع نفسه. 372.

(3) رشيد مصطفاوي. تلمسان في الأدب العربي. الأصالة. الجزائر. ع 1975/26. ص360.

(4) مصطفاوي رشيد. تلمسان في الأدب العربي. 360.

ولعلّ اهتمام أبي حمّو موسى البالغ بإحياء المولد النّبوي الشّريف، هو الذي شجّع الشّعراء أن يتناولوا هذا الغرض، بل أن يتنافسوا فيه أيضا، فقد كان صاحب الرّيادة والأسبقيّة في سنّ ظاهرة الاحتفال بمناسبة المولد النّبوي داخل المملكة الزّيانيّة[1].

ولعلوّ شأن هذه المناسبة كان الملك الزّياني الذي لا تنتهي معاركه السّياسيّة والعسكريّة، يخصّص وقتا حتّى ولو لم يكن طويلا لتحضير قصائد مولديّة يفتتح بها المراسيم الاحتفاليّة الخاصّة بليلة المصطفى، ولأنّ الجميع يدرك قدر هذه اللّيلة عند ملك البلاد، لم يكن الشّعراء وحدهم من يقرض شعرا بخصوصها، وإنّما زاحمهم في ذلك الأمراء والوزراء والأطبّاء وعلية القوم من رجالات الدّولة الزّيانيّة، الذين يزدحم بهم بلاط أبي حمّو، وكان في مقدّمة هؤلاء جميعا صاحب العرش الزّياني، الذي حفظت كتب التّاريخ والأدب عنه إحدى عشرة قصيدة مولديّة، أثبتها صاحب " بغية الروّاد "[2] تتراوح بين ما هو حسن وما هو جيّد.

واعتاد أبو حمّو أن يلقي قصائده المولديّة في بداية الحفل البهيج المقام بمناسبة ذكرى المولد محاولا تقديم أحسن ما عنده، ثمّ تتوالى أسماء أخرى تريد تقديم أجود ما قد يسمع في ليلتهم تلك.

ولعلّ من بين أجود القصائد المولديّة تلك التي أنشدها أبو حمّو موسى بمناسبة مولد سنة (760هـ) [3] يقول في مطلعها:

نَـامَ الأَحْبَابُ ولَمْ تَنَـمِ ... عَيْنِي بِمُصَارَعَةِ النَّـدَمِ
وَالدَّمْـعُ تَحَـدَّرَ كَالدِّيَمِ[4] ... جرح الخدّين فوَا أَلَمِـي

إلى أن يصل لغرض القصيدة فيقول:

يَا رَبِّ سَأَلْتُكَ تَغْفِـرْ لِـي ... بِشَفِيعِ الخَلْق مِنَ الأُمَـمِ
أَدْعُوكَ إِلَهِي مُعْتَـذِرًا ... فِي ضَوْءِ الصُّبْحِ وفِي الظُّلَمِ

---

[1] المقرّي. أزهار الرّياض في أخبار القاضي عياض. أعيد طبع الكتاب بإشراف اللّجنة المشتركة لنشر التّراث الإسلامي بين حكومة المملكة المغربيّة وحكومة دولة الإمارات العربيّة المتّحدة. د ت. ج2. ص242.

[2] صاحب " بغية الروّاد" هو يحي بن خلدون كاتب الدّولة في عهد أبي حمّو موسى ونحن نقصد الجزء الثّاني من الكتاب.

[3] وردت هذه القصيدة في كتاب " بغية الروّاد " ليحي بن خلدون. 2: 41-42 كما وردت في كتاب " واسطة السّلوك" لأبي حمّو موسى. 10-11.

[4]الدّيم: الدّيمة: المطر الذي ليس فيه رعد ولا برق. والجمع ديّم. انظر: ابن منظور. لسان العرب. مادّة (دوم).

قَلْبِي اِنْفَطَرَا والدَّمْعُ جَـرَى وَالرَّكْبُ سَرَى نَحْوَ العَلَـمِ

ولم يكن إنتاج أبي حمّو موسى مقتصرا على المولديّات فقط، وإن كان لها الحظّ الأوفر في شعره، بل تعرّض أيضا لأغراض أخرى كالفخر والشعر السياسي والرّثاء، هذه الأغراض هي ما وصلنا من شعر الملك الزّياني، لكنّ من المؤكّد أنّ أبا حمّو تناول أغراضا أخرى، فليس من المنطقيّ أن تقتصر قريحة شاعر مجيد كأبي حمّو على أربع أغراض فقط.

والمتتبّع للشّعر في تلك الحقبة التّاريخيّة، يجد غرضا آخر كان يزاحم المولديّات وهو الوصف، خاصّة وصف تلمسان وهي ما كانت عليه من الجمال الطّبيعيّ الممزوج بجمال الحضارة ومظاهرها، ذلك الجمال الذي فجّر عواطف شعراء كثر منسابة كحنين ابن خميس[1] إلى تلمسان، وغيره من الشّعراء، فكيف يمكن لأبي حمّو موسى أن يشذّ عن هذه القاعدة، خاصّة وتلمسان كانت مطلبه وحلمه الذي تحقّق في إعادة بعث دولة أجداده.

من المؤسف أنّ شعر أبي حمّو موسى لم يصلنا منه إلاّ القليل، ويبقى أغلبه في حكم الضّائع أو المفقود، كما أنّ الأغراض كانت قليلة لا يمكن أن يجود بها وحدها شاعر في قامة أبي حمّو.

ولم يحفظ لنا التّاريخ أيضا شعرا لأبي حمّو قبل اعتلائه الملك، وكأنّ شاعريّته مرتبطة بملكه، ونستغرب أن تخلو كتب المؤرّخين من شعر أبي حمّو المبكّر باعتباره شاعرا قبل أن يكون ملكا، وأغلب الظنّ أنّه قبل تولّيه عرش تلمسان كان شاعرا مغمورا، لا يعرفه أحد إلاّ من كان قريبا منه ويعيش في محيطه الاجتماعي، فلا يمكن الزّعم أنّ قريحته قد تفجّرت فجأة، عشيّة حصوله على إرث الزّيانيّين في تلمسان، فالشّعر الذي وصلنا يعبّر عن نفسه وهو أكبر دليل على شاعريّة أبي حمّو، ويتّضح جليّا أنّه نتاج تجارب شعريّة كثيرة سبقت حقبة الإمارة.

وإذا تتبّعنا القصائد التي وصلتنا، وجدنا أنّ أوّلها كان الشعر السياسي الذي يتضمّن أحداثا سياسيّة عاشها، حيث كانت أولى قصائد أبي حمّو موسى التي حفظتها الكتب تلك التي نظمها قبيل حركة إحياء الدّولة الزّيانيّة[2].

---

[1] انظر: المقرّي. نفخ الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب. تحقيق: عبد الحميد محي الدّين. القاهرة.1949. ج1. ص291.

[2] مطلع القصيدة: حَـانَ الفِرَاقُ فَكُنْـتُ مِنْهُ بِمَنْــزِلِ وَدَنَا الـرَّحِيلُ فَكُنْـتُ فِيـهِ بِــأَوَّلِ

ذكرت هذه القصيدة فقط في"كتاب زهر البستان" نقلها عبد الحميد حاجيات في كتابه " أبو حمّو موسى الزّياني". 295.

و لعلّ تركيز أبي حمّو بداية على هذا الغرض راجع إلى الظّروف المحيطة به، فهو بصدد بعث دولة قد قضي عليها، وهذا الموضوع كان وحده المسيطر على تفكيره، لا يترك المجال للتّعبير عن غيره، ولأنّ الشّعر هو ترجمة للمشاعر والأحاسيس والأفكار، كانت أشعاره الأولى تعبيرا صادقا عن حالته في تلك الحقبة.

لقد جعل أبو حمّو من تلك القصائد مجالا لتدوين الأحداث التي مرّت به، وإشارة إلى المعارك التي خاضها «و لا شكّ أنّ منزلة أبي حمّو الاجتماعيّة ونفسيّته والبيئة التي عاش فيها تنعكس كلّها في شعره»[1].

ومن المنطقيّ أنّ هذه القصائد التي سبقت بقليل استيلاءه على ملك تلمسان، قد سجّلت في كتب مؤرّخي الدّولة الزّيانيّة، كيحي بن خلدون وغيره، بعد وصول الملك لأبي حمّو تكريما له وإعلاء لشأنه ولأنّها ليست ببعيدة العهد عن فترة تدوينها في كتب التّاريخ.

غير أنّ شعره الذي سبق الملك والأحداث المحيطة به، لا يعثر عليه في أيّ مرجع تاريخيّ، إذن فإنّ السّلطة والعرش خدمت كثيرا أبا حمّو الشّاعر، ولولاها لما وصلنا شعره، ولما أحصيناه ضمن شعراء الجزائر في القرن الثّامن الهجريّ.

لم يكن الشعر السياسي وحده الذي نظم فيه أبو حمّو شعرا، وإنّما الفخر والرثاء أيضا على الرّغم من أنّ ما وجد في الرثاء لا يتعدّى القصيدتين قالهما رثاء لأبيه الذي كان يحضى بمكانة كبيرة في قلبه.

والمتتبّع لحياة أبي حمّو يلاحظ أنّ مجال الرّثاء كان مفتوحا أمام الشّاعر بسبب تلك الأحداث الكثيرة المؤلمة التي مرّت عليه، وقد كان من المتوقّع على الأقلّ، العثور ضمن شعره قصائد يرثي فيها مدينته العزيزة تلمسان التي ضاعت من آل زيّان وصارت في حوزة بني مرين، أكثر من مرّة قبل ملكه وبعده.

كما كان من المتوقّع العثور على قصائد حول شعر الشكوى أو الحكمة محاكاة للأوضاع السّيئة التي عاشها أبو حمّو، المتمثلة في العدد الكبير من النّكبات والمصائب التي مني بها ابتداء بحروبه مع جيرانه بني مرين وصولا إلى نكبته العظمى المتمثّلة في عقوق ابنه أبي تاشفين.

---

[1] عبد الحميد حاجيات. أبو حمّو موسى الزّياني. 209.

وتبقى المولديّات هي التي تتصدّر قائمة قصائده كمّا ونوعا، ولعلّ الأمر لا يرجع إلى شيوع هذا الغرض وقتئذ فقط، وإنّما لميل نفسه إليه وارتياحها أيضا.

فالسّلطة في ذلك الزّمان شرّ بكلّ المقاييس، أعباء كثيرة وانعدام تامّ للأخلاق السّياسيّة، حتّى بين الأب وابنه فوليّ العهد يستعجل الاستيلاء على العرش، بل ويعمل مجدّا لتحقيق ذلك، لاغيا في سبيل رغبته المجنونة لكلّ المبادئ والقيم، حتّى أنّه يتجاهل أقوى العلاقات الإنسانيّة، فهو يتجرّد من إنسانيّته ليصبح عبدا ذليلا لرغباته وأهوائه.

تلك الظّروف جعلت نفس أبي حمّو موسى تضطرم براكين من العواطف الحزينة والانفعالات المؤلمة، وهو الشّاعر الذي يفيض رقّة وإحساسا، فلم يجد متنفّسا لكلّ تلك الهموم القاصمة الظّهر إلاّ المولديّات، حيث ترجم مواجعه وصاغها في شكل آهات، يبثّها بين جنبات قصائده المولديّة، يعبّر فيها عن شوقه للبقاع المقدّسة وإلى جوار الحبيب المصطفى صلّى الله عليه وسلّم.

فاختياره للمولديّات كان مقصودا، لأنّ روحه المعذّبة والمتعبة والدّائرة حول نفسها تتوق إلى الأمان والسّكينة، وهاتان الصّفتان لا تتوفّران إلاّ بذكر الله تعالى، والشّوق إلى حبيبه صلّى الله عليه وسلّم، لعلّه بذلك يمنح روحه المنهكة فرصة للرّاحة، استعدادا لمواصلة الدّوران حول الحلقة المفرغة التي تسمّى السّلطان.

والمطّلع على شعر أبي حمّو يجده يتأرجح بين الجيّد والحسن[1]، فقد نظم قصائد رائعة، تضاهي نظيراتها عند كبار الشّعراء المغاربة والأندلسيّين، أفكارا وأسلوبا وحسن حبك وصنعة.

كما أنّنا نعثر دائما بين تلك القصائد على ما هو أقلّ جودة قد يقترب إلى النّظم أكثر منه إلى الشّعر، ويعود سبب ذلك في نظرنا إلى عدم تنقيح أبي حمّو لشعره، على عادة الشّعراء لضيق وقته وكثرة مسؤوليّاته بالإضافة لقلّة استقراره في عاصمة ملكه.

ولذلك فمن المنطقي أن يكون بعض شعره لا يسمو إلى مستوى شاعريّته، فعادة تنقيح الشّعر مارسها كلّ الشّعراء بل أعظمهم عبر التّاريخ العربي، ويحضرنا في ذات الموضوع ما كان يصنعه شعراء الجاهليّة الذين كانوا يضعون قصائدهم في ميزان المراجعة والتّدقيق والإضافة والحذف، حتّى تخرج القصائد في أبهى صورة ترضي أصحابها، وكانت هذه

---

[1] انظر: عبد الحميد حاجيات. أبو حمّو موسى الزّياني. 64.

العمليّة تتطلّب الوقت الطّويل، وقد كان تنقيحهم ذاك من المتعارف عليه بين أشعرهم ومن هو أقلّ شاعريّة.

ومهما يكن، فأبو حمّو ليس بأشعر العرب حتّى يشذّ عن القاعدة، فيأتي شعره جيّدا من أوّل وهلة دون معالجة أو تعديل.

وخلاصة القول، إنّ أبا حمّو موسى شاعر امتلك أهمّ صفات الشّعراء من رقّة مشاعر وأحاسيس مرهفة وقدرة على توظيف الكلمة والمعنى حتّى وإن لم تخدمه الظّروف التي عاشها ليبرز شاعريّته الحقيقيّة التي كادت تتلاشى وسط هموم الحياة وأعباء الملك.

وأبو حمّو رغم إجادته للشّعر، لم يكن أحسن شعراء عصره، وإنّما حاول السموّ إلى مراتبهم لمنافستهم، فكما سبق الإشارة إليه، كان الشّعر أوّل ما كان بالنّسبة لأبي حمّو متنفّسا لما يعانيه من آلام، ولم يكن يملك لا الوقت ولا الجهد لتقديم أحسن ما لديه.

ومهما يكن يبقى أبو حمّو موسى أحد شعراء الجزائر البارزين في القرن الثّامن الهجري، مع العلم أنّ ما وصل من شعره، لا يمكن أن يكون كلّ ما جادت به قريحته، ولعلّ ما ضاع أو أهمل منه هو أجود ما قاله.

ولقد ذكرت المصادر التّاريخيّة الأدبيّة كتابا للتّنسي جمع فيه القصائد التي نظمها أبو حمّو، كما تضمّن الأشعار التي قيلت فيه، وسمّي هذا الكتاب "راح الأرواح فيما قاله أبو حمّو أو قيل عنه من الأمداح"، لكنّ هذا الكتاب يبقى في حكم المفقود[1].

ومن ثمّة سيكون الحكم مجحفا في حقّ شاعريّته إذا كان المنطلق فيه ما توفّر لدينا من إنتاجه القليل، لكن سنحاول ومن خلال الأشعار التي وصلتنا والأغراض القليلة التي عالجتها، التّعرّف على تلك الشّاعريّة ولو بصورة نسبيّة، وهذا ما سنتطرّق إليه في فصلنا القادم، لكشف أسرار تخصّ هذا الشّاعر.

---

[1] عبد الحميد حاجيات. أبو حمّو موسى الزّياني. 209.

# الفصـل الثـــاني

# موضوعاته الشّعريّـة

## موضوعاته الشّعريّـــــة

كلّ المؤشّرات تدلّ أنّ لأبي حمّو شعرا كثيرا، لكن الذي وصلنا منه، لا يرقى إلى إمكانيّات هذا الشّاعر، فالمتوفّر لدينا هو وإحدى وعشرون قصيدة، جاءت متفرّقة بين الكتب الأدبيّة، التي عنيت بالتّأريخ للدّولة الزّيانيّة، "كبغية الروّاد"، ليحي بن خلدون، و"نظم الدّر والعقيان" للتّنسي، بالإضافة إلى كتاب أبي حمّو موسى الثّاني، "واسطة السّلوك في سياسة الملوك"، الذي ألّفه بنفسه وضمّنه جملة من أشعاره، ويبقى أهمّ مصدر بين هذه العناوين، كتاب حاجيات عبد الحميد، الذي جمع فيه كلّ شعر أبي حمّو، وقام بتحقيقه، وقد أسماه "أبو حمّو موسى الزّياني، حياته وآثاره".

قصائده، وعلى قلّتها، تناولت أربعة أغراض رئيسيّة، تمثّلت في الشّعر السّياسي، وعددها ثلاث قصائد، والفخر بأربع قصائد، إضافة إلى الرّثاء، الذي جاء في قصيدتين، وأخيرا المولديّات، صاحبة النّصيب الأكبر، حيث وردت في اثنتي عشرة قصيدة، وإلى جانب هذه الأغراض، حاولنا استقراء أغراض أخرى، جاءت متفرّقة بين ثنايا القصائد، وهي: الغزل، والوصف، والحكمة، وهذه القصائد باختلاف أغراضها عبّرت عن أفكار أبي حمّو، ومشاعره، وبعض الأحداث التي عايشها، باعتبار أنّ الشّاعر، في شعره، لا يُعنى «إلاّ بتصوير نفسه والتّعبير عن شعوره وحسّه » [1].

وستشمل هذه الدّراسة، كلّ أغراض أبي حمّو الشّعريّة المتوفّرة، ممّا سيسهّل علينا الاقتراب أكثر من شخصيّته، والتّقاطع مع ما امتلكه من فكر وحسّ، وقدرة على التّعبير عن ذاته ومحيطه.

### 1- الشّعر السّياســي:

لقد كانت علاقة السّياسة بالشّعر العربي قويّة، وطويلة الأمد، تتوغّل في عمق التّاريخ العربي، فلطالما كان العرب يتّخذون من الشّعر سجلاً يدوّنون فيه معاركهم وانتصاراتهم، وكان لسان الشّاعر لديهم سيفا قاطعا يسلّط على الأعداء، لذلك «كانت القبيلة من العرب، إذا نبغ فيها شاعر، أتت القبائل فهنّأتها وصنعت الأطعمة، واجتمعت النّساء يلعبن بالمزاهر،

---

[1] **أحمد حسين الزيات.** تاريخ الأدب العربي. دار نهضة مصر للطّبع والنّشر. القاهرة. مصر. د ت . ص31.

لأنّه حماية لأغراضهم وتخليدا لمآثرهم، وإشادة لذكرهم، وكانوا لا يهنّئون إلاّ بغلام يولد أو شاعر ينبغ فيهم، أو فرس تنتج» [1].

ولم تقتصر تلك العلاقة بين الشّعر والسّياسة على العصر الجاهلي فقط، بل استمرّت وتطوّرت في العصر الأموي، فتعدّدت « الفرق والأحزاب وصار لكلّ فريق أو حزب شاعر يحميه، فللشّيعة شعراء، وللخوارج شعراء... » [2].

وتطوّرت العصبيّة السّياسيّة، واتّسعت رقعتها، وواكب الشّعر هذه التّغيّرات، بل ووُظِّفَ في خدمتها، «فكانت هذه العصبيّات كثيرا ما تتأثّر بالأحداث السّياسيّة، والاجتماعية والإقليمية التي تحيط بها، فلها شكل في "الشّام"، وآخر في **"العراق"** وثالث في "خرسان"، ورابع في "المغرب العربي" و"الأندلس" » [3].

وهكذا انتقلت الصّراعات إلى المغرب العربي، فكانت أرضه مسرحا لحروب عديدة، في مقدّمتها النّزاع الدّائم القائم بين الدّول الثّلاث: الحفصيّة والمرينيّة، والزّيانيّة، فكان لزاما على الشّعر، مواكبة هذه الأحداث والتّعبير عن أفكار ومشاعر وأحزان المحيطين بها، كما كان مجالا للدّفاع عن أحزابهم ومعتقداتهم الفكريّة والسّياسيّة.

لقد كان عصر أبي حمّو مليئا بالصّراعات السّياسيّة بين الدّولة الحفصيّة والمرينيّة، كما كانت حياته سلسلة من الأزمات والمعارك والانتصارات السّياسيّة، والانكسارات أحيانا، وبعد أن افتكّ تلمسان من المرينيّين، دخل في حرب طويلة معهم، لم تنته إلاّ بموته، ولم يكن أمام أبي حمّو إلاّ الشّعر، يدوّن فيه أخبار معاركه ويصفها، ويخوّف بها أعداءه ويتوعّدهم، ويضمّنه طموحاته السّياسيّة.

وبعد الاطّلاع على شعر أبي حمّو المتوفّر لدينا، يمكننا أن نقسّم شعره السّياسي إلى قسمين هما: شعر الأحداث التّاريخيّة ووصف المعارك، وشعر الوعد والوعيد.

### أ- <u>شعر الأحداث التّاريخيّة ووصف المعارك:</u>

لقد وردت قصيدتان في هذا النّوع من الشّعر، الأولى هي قصيدته "الميميّة" المطوّلة، حيث ضمّت اثنين وتسعين بيتا، وقد قالها بعد أن وُفِّقَ في حركته التي قام بها لاسترجاع

---

(1) **ابن رشيق.** العمدة. 1: 65.

(2) **نوار بوحلاسة.** الشّعر الزّياني (633-692ه/ 1235-1554م). رسالة ماجستير غير منشورة (مخطوط). 363ص. معهد الآداب واللّغة العربيّة. جامعة قسنطينة. 1989. ص49.

(3) **نوار بوحلاسة.** المرجع نفسه. 51.

ملك تلمسان، فكانت هذه القصيدة بمثابة سجلّ، دوّن فيه كلّ مجريات تلك الحركة، فوصف فيها معاناته وأسفاره الطّويلة والشّاقّة، كما صوّر فيها المعارك الضّارية التي خاضها في سبيل تحقيق حلمه، فكانت مزيجا من التّأريخ ووصف المعارك.

بدأ أبو حمّو في تجميع جيشه في الدّيار التّونسيّة، فاجتمع له قبيل من بني عبد الواد، إضافة إلى حلفائه من بني عامر، وقصد الجمع تلمسان، يغمرهم أمل كبير بتحقيق الحلم، يقول الشّاعر في بعض أبيات "ميميّته":

وَخُضْتُ الفَيَافِي فَدْفَدًا بَعْدَ فَدْفَدٍ ... لِنَيْلِ العُلاَ والصَّبْرُ إِذْ ذَاكَ لاَزِمِي

وَكَمْ لَيْلَةٍ بِتْنَا عَلَى الجَدْبِ والطَّوَى ... نُرَاقِبُ نَجْمَ الصُّبْحِ فِي لَيْلٍ عَاتِمِ

عَلَى مَتْنِ صِهَّالٍ أَغَرٍّ مُحَجَّلٍ[1] ... مَدِيدِ الخُطَى لَمْ يَخْشَ صَعْبَ الصَّلاَدِمِ[2][3]

يريد الشّاعر من خلال هذه الأبيات أن يصوّر معاناته، والمشاقّ التي صبر عليها في سبيل نيل مبتغاه، فقد قطع الفيافي الشّاسعة، متحمّلا كلّ الصّعاب من أجل إحياء مجد بني عبد الواد البائد، متسلّحا بالصّبر الجميل، فقد يناله الجوع، ولعلّه يفترش الأرض ويلتحف السّماء، لكن رغم ذلك يتسلّح بالعزيمة، ويمتطي فرسه الأصيل، وهو يراقب صبح نصره الذي سيمزّق ليل الغاصبين.

ويرصد الشّاعر كلّ تحرّكاته التي قام بها انطلاقا من تونس وصولا إلى عاصمة ملكه تلمسان، فيقول عن بعضها:

وَجُبْتُ الفَيَافِي بَلْدَةً بَعْدَ بَلْدَةٍ ... وَ طوَّعْتُ فِيهَا كُلَّ بَاغٍ وبَاغِمِ

وَجِئْتُ لأَرْضِ الزَّابِ تَذْرُفُ أَدْمُعِي ... لِتِذْكَارِ أَطْلاَلِ الرُّسُومِ الطَّوَاسِمِ

وَشَبَّكْتُ عَشْرِي فَوْقَ رَأْسِي فَلَمْ أَجِدْ ... بِهَا مُخْبِرًا غَيْرَ الرُّبَى والمَعَالِمِ

وَجَاوَزْتُهَا مَا بَيْنَ هَوْجِ هَجَائِنِ ... رِقَاقِ الهَوَادِي عَالِيَاتِ القَوَائِمِ

وَجُزْتُ بِأَرْضِ رِيغٍ رَاغَتْ بِأَهْلِهَا ... بِبُلْقَعَةٍ قَفْرٍ قَفَتْهَا عَزَائِمِي[4]

---

(1) **محجّل:** من الخيل أن تكون قوائمه الأربع بيضاء. انظر: **ابن منظور**. لسان العرب. مادّة:(حجل).

(2) **الصّلادم:** مفرده: الصّلادم: القوي شديد الحافر. انظر: **ابن منظور**. المصدر نفسه. مادّة:(صلد).

(3) **أبو حمّو موسى بن يوسف بن زيّان**. واسطة السّلوك في سياسة الملوك. 16.

(4) **عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 301.

الملاحظ، من خلال ما تقدّم، أنّ سفر الشّاعر كان طويلا ومضنيا، وأنّه قد مرّ بالعديد من القرى والمدن، بل وخاض معارك مع الموالين لأعدائه هناك، فقصد بلاد الزّاب، وأرض ريغ، وكلّه عزم على تحقيق هدفه.

ثمّ ينتقل أبو حمّو لتصوير إحدى المعارك القويّة التي جمعت جيشه بقبيلة سويد، حليفة المرينيّين، يقول:

وَ لَمَّا بَدَا لِي غَيْهَبُ القَوْمِ ظَاهِرًا وحَيُّهُمْ بَيْنَ الظِّلاَلِ الغَيَاهِمِ [1]
جَبَذْنَا مَجَاذِيبًا وجَدَّتْ جِيَادُهَا وَجَالَتْ كَمَا العُقْبَانِ بَيْنَ السَّقَاهِمِ
وَ ضُمْرٌ عَنَاجِيجٌ عَلَى صَهَوَاتِهَا كِرَامٌ سِمَاحٌ بِالنُّفُوسِ الكَرَائِمِ
نُطَارِدُ فِيهَا الخَيْلَ بِالخَيْلِ مِثْلَهَا فَكَانَ عَلَى الأَعْدَاءِ كَرُّ الهَزَائِمِ
حَمَلْنَا عَلَيْهِمْ حَمْلَةً مَضَرِيَّةً فَوَلُّو شِرَادًا مِثْلَ جَفْلِ النَّعَائِمِ
فَوَلَّتْ سُوَيْدٌ ثُمَّ خَلَّتْ مُجِيرَهَا وَشَيْخُ حِمَاهَا فِي لُجُوجِ المَصَادِمِ
كَمْ خَلَّفُوا مَا بَيْنَ بَكْرٍ وبُكْرَةٍ كَمْ غَادَةٍ مُلْتَفَّةٍ فِي الهَدَائِمِ[2][3]

يصوّر الشّاعر تفاصيل المعركة، حيث ظهر جيش الأعداء عن بعد، فوقف أتباع أبي حمّو مستعدّين، ثمّ التقى الجمعان، واحتدم القتال وكان النّصر لفريق الشّاعر، فقد كان أتباعه فرسانا أشاوس، على صهوات الخيل، تضطرم أنفسهم حماسة لمواجهة العدوّ، وجيادهم تصول وتجول في الميدان، وكأنّها العقبان الحائم حول فريسته، يطاردون فلول الخصوم، ولقد كانت حملة جيش أبي حمّو قويّة، جعلت المرينيّين يولّون الأدبار وكأنّهم النّعام خوفا وجبنا. حينها استولى الفريق المنتصر على غنائم قبيلة سويد الفارّة.

ونجد الشّاعر بعد هذا التّصوير الدّقيق، يتغنّى بنشوة النّصر على خصومه، فيقول[4]:

وَ هَبَّتْ رِيَاحُ النَّصْرِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَ جَاءَتْ إِلَيْنَا مُبْهِجَاتُ الغَنَائِمِ
وَ لَمَّا قَضَيْنَا الأَمْرَ فِي الحَرْبِ مِنْهُمُ رَحَلْنَا بِعَوْنِ اللهِ نَحْوَ المَعَالِمِ

---

[1] **الغياهم:** جمع الغيهم: كالغيهب. انظر: **ابن منظور**. لسان العرب. مادّة: (غيم).
[2] **الهدائم:** الثياب. انظر: **ابن منظور**. المصدر نفسه. مادّة: (هدم).
[3] **عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 304.
[4] **عبد الحميد حاجيات**. المصدر نفسه. 302-303.

ثمّ يتحدّث عن تبشيره بوفاة عدوّه الملك المريني أبي عنان[1]، فيقول مسرورا لهذا الخبر:

أَلاَ أَيُّهَا النَّاعِي البَشِيرُ الذِي نَعَى ... أَمِيرَ مَرِينَ حُزْتَ أَسْنَى المَقَاسِمِ
لَقَدْ قَرَّبَ اللهُ البَعِيدَ بِهَلْكِـهِ ... فَبُشْرَاكَ بِالخَيْرَاتِ يَا خَيْرَ قَـادِمِ [2]

وينتقل أبو حمّو في موضع آخر، ليصف مجريات المعركة الحاسمة، التي دارت بينه وبين بني مرين، تلك المعركة التي أسفرت عن نصر عظيم، مكّنه أخيرا من تحقيق حلم راوده طويلا، وهو إعادة بعث دولة أسلافه من جديد، ودخول تلمسان ملكا متوّجا، يقول[3]:

قَدِمْنَا وكَانَ الفَتْحُ يَرْجُو قُدُومَنَـا ... وَ كَانَ عَلَى الأَعْدَاءِ شَرُّ المَقَادِمِ
وَصَفُّوا صُفُوفًا ثُمَّ صُفَّتْ صُفُوفُنَا ... و سَالَتْ دُمُوعُ القَوْمِ مِثْلَ العَنَادِمِ[4]
وَ جَالَتْ لُيُوثُ الحَرِبِ بَيْنَ صُفُوفِهَا ... وَ خَطَّ بِهَا الخَطِيّ بَيْنَ الحَلاَقِمِ
وَ لاَحَ شُعَاعُ الهِنْدِ بَيْنَ خَمِيسِهَا ... كَبَرْقٍ تَبَدَّى بَيْنَ دَرْجِ الأَرَاقِمِ
سَمَوْنَا إِلَى اِصطَفْطِيفَ[5] واشْتَدَّ بَيْنَنَا ... حُرُوبٌ تُشِيبُ الرَّأْسَ قَبْلَ الفَطَائِمِ
كَرَرْنَا عَلَيْهِمْ كَرَّةً بَعْدَ كَرَّةٍ ... وقَدْ سُعِّرَتْ لِلْحَرْبِ نِيرَانُ جَاحِمِ[6]
بِضَرْبٍ يُزِيلُ الهَامَ [7] عَنْ مُسْتَقَرِّهِ ... وَ طَعْنٍ مَضَى بَيْنَ الكِلَى والحَيَازِمِ
فَهَذَا أَسِيرٌ صَفَّدَتْهُ يَدُ الوَغَـى ... وَ هَذَا قَتِيلٌ فِي عُجَاجِ المَصَـادِمِ
فَطُوبَى لِعَبْدِ الوَادِ عِنْدَ ازْدِحَامِهِمْ ... لَقَدْ جَدَّلُوا فِي الحَرْبِ كُلَّ مُزَاحِمِ

لقد اقترب جيش أبي حمّو من تلمسان، فوجد أتباع المرينيّين في انتظارهم، واصطفّ الجيشان وبدأت المعركة، الشّاعر يتحدّث عن معركة دامية، خاصّة عندما اقتربوا من "اصطفطيف" لقد وصفها بأنّ هولها يشيب الرّأس قبل الفطائم، لقد كان القتال متواصلا

[1] **أبو عنان:** أحد ملوك بني مرين. وهو ابن السّلطان أبي الحسن. توفّي (760ه). انظر: **يحي بن خلدون.** بغية الروّاد. 2: 24-61.
[2] **عبد الحميد حاجيات.** أبو حمّو موسى الزّياني. 304.
[3] **عبد الحميد حاجيات.** المصدر نفسه. 305-306.
[4] **العنادم:** جمع العندم: دم الغزال. تخضب به الجواري. انظر: **ابن منظور.** لسان العرب. مادّة: (عندم).
[5] **اصطفطيف:** نهر صغير يسيل قرب تلمسان. انظر: **حاجيات عبد الحميد.** أبو حمّو موسى الزّياني. 305.
[6] **الجاحم:** النّار. أو المكان شديد الحرّ. انظر: **ابن منظور.** لسان العرب. مادّة: (جحم).
[7] **الهام:** جمع هام: الرّأس. انظر: **ابن منظور.** المصدر نفسه. مادّة: (هوم).

وشديدا، يعمّه القتل والذّبح والطّعن والأسر، وقد انتصر جيش الشّاعر انتصارا باهرا، ألحق بأعدائه هزيمة نكراء، والفضل في ذلك، يعود لشجاعة بني عبد الواد، والقبائل الموالية.

وبعد تلك المعاناة، وتلك المعارك الكثيرة والضّارية، تحقّق لأبي حمّو ما كان يطمح إليه، فأنصت إليه وهو يعبّر عن فرحته الكبرى بدخول تلمسان:

دَخَلْتُ تِلِمْسَانَ التِي كُنْتُ أَرْتَجِي    كَمَا ذَكَرْتُ فِي الجَفْرِ أَهْلَ المَلاَحِمِ
فَخَلَّصْتُ مِنْ غُصَّابِهَا دَارَ مُلْكِنَا    وَ طَهَّرْتُهَا مِنْ كُلِّ بَاغٍ وجَارِمِ
لَقَدْ أَسْلَمُوهَا عُنْوَةً دُونَ عُـدَّةً    لَقَدْ طَلَّقُوهَا بِالقَنَا والصَّـوَارِمِ[1][2]

أمّا إذا انتقلنا إلى قصيدته الثّانية، والتي قالها إثر مغادرة تلمسان، بعد استيلاء المرينيّين عليها، وتشرّده في الصّحراء[3]، نجده يصوّر مجريات المعركة، التي كانت سببا في تخلّيه عن العرش فترة من الزّمن، يقول في بعض أبياتها:

وَ فَوَارِسٌ مِنْ فَوْقِهِنَّ عَوَابِيسٌ    بِسِلاَحِهَا مِنْ أَبْتَرٍ وأَمْلَـدِ
فَكَأَنَّهُمْ أُسْدُ الشَّرَى فِـي غَابِـهَا    وَ السَّيْفُ قَرْعُ زِنَادِهِ لَمْ يُصْلَدِ
فَيَجُولُ بَيْنَ جَمَاجِمٍ وغَلاَصِـمٍ    وَ يَقِدُّ كُلَّ مُدْرَعٍ ومُحَـدِّدِ
وَ مَقَانِبٌ[4]مِنْ خَلْفِهِنَّ عَسَاكِـرٌ    طَافَتْ بِنَا مِنْ كُلِّ شَهْمٍ أَمْجَـدِ
مِنْ عَامِرِيٍّ ضَيْغَمٍ يَوْمَ الوَغَـى    أَوْ مَعْقَلِـيٍّ بِهِمَّةٍ لَمْ يُرْفَـدِ
وَ زْنَاتَةُ مِنْ خَلْفِنَا وأَمَامِـنَا    مِنْ كُلِّ لَيْثٍ فِي الحُرُوبِ مُمَجَّدِ
وَ طُبُولُنَا زَأَرَتْ كَأُسْدٍ فِي الوَغَـى    وَ بُنُودُنَا خَفَقَتْ بِنَصْرٍ مُنَجَّـدِ[5]

يسرد الشّاعر في هذه الأبيات تفاصيل استعداد جيشه لخوض المعركة، فيصوّر فرسانه، من أبناء عامر وزناتة، والمعقليّة، وهم آخذين كامل عدّتهم العسكريّة، يجولون في الميدان وسيوفهم مجرّدة تنتظر القتال، وسط دقّات الطّبول، ورايات الجيش الخفّاقة.

وبعد هذا الاستعداد، تبدأ المعركة الحاسمة، فيصف الشّاعر تفاصيلها قائلا[1]:

---

(1)**الصّوارم:** مفرده صارم: السّيف القاطع. انظر: **ابن منظور**. المصدر السابق. مادّة: (صرم).

(2)**عبد الحميد حاجيات** أبو حمّو موسى الزّياني. ص307.

(3)**انظر: عبد الحميد حاجيات.** المرجع نفسه. ص127. 128.

(4)**المقانب:** جماعة الخيل والفرسان. وقيل هي دون المائة. انظر: **ابن منظور**. المصدر نفسه. مادّة: (قنب).

(5)**عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 329.

وَ اصْطَفَّتِ الجَمْعَانِ واحْتَدَمَ الوَغَى ... لَكِنَّهَا خَبُثَتْ بِسَعْيِ المُـرَدِّ
وَ جَرَتْ غَشَائِمٌ[2]خَارِبِينَ لِحِزْبِنَا ... مِنْ كَافِرِي نِعْمَائِنَا أَوْ جُحَّـدِ
حَتَّى تَفَرَّقَ جَمْعُنَا وتَشَتَّتُـوا ... بِسُعَاةِ كُلِّ مُظَلِّلٍ أَوْ مُفْسِـدِ
فَالبَعْضُ مِنْهُمْ قَدْ أَزَى لِعَدُوِّنَـا ... وَ البَعْضُ فَرُّوا كَالنِّعَامِ الشُـرَّدِ
كَفَرُوا بِأَنْعُمِنَا وَخَانُوا عَهْدَنَـا ... وَ أَتُوا مِنَ الخُذْلاَنِ مَا لَمْ يُعْهَـدِ
فَهُنَاكَ فُرْسَانُ العِدَى طَافَتْ بِنَا ... مِنْ كُلِّ طَاغٍ فِي الوَغَى أَوْ مُعْتَدِ

يظهر مشهد الجيشين قد اصطفّ للقتال، واحتدمت المعركة، لكن سرعان ما مالت الكفّة للأعداء، بسبب تمرّد بعض الأتباع، ممّا أحدث خللا في تنظيم الجيش، فتفرّق جمع المقاتلين، وانبثّ الفزع بينهم، فانقسموا بين مستسلم للعدوّ، وجبان اتّخذ الفرار سبيلا للنّجاة، وهنا طوّق الأعداء ما تبقّى من الجيش المنهزم.

ثمّ ينتقل أبو حمّو إلى مشهد آخر، هو تكملة للمشهد الأوّل فيقول[3]:

دَارَتْ بِنَا الأَعْدَاءُ فَصِرْنَا بَيْنَهُـمُ ... كَالدُّرَةِ البَيْضَـاءِ بِلَيْلٍ أَسْوَدِ
كَانَ اللهُ ثَالِثَنَـا بِهَـا ... وَ لَكَمْ لَهُ عَقْدُ الشَّدَائِدِ مِنْ يَدِ

فبعد تفرّق الجمع، لم يبق من جيش الشّاعر إلاّ أفراد قلائل، في مقدّمتهم أبو حمّو وابنه أبو تاشفين، حيث وجدا نفسيهما وسط الأعداء، يحيطون بهم من كلّ جانب، لكن ورغم هذا المأزق، فإن روح أبي حمّو القتاليّة والمتفائلة لم تخمد، فقد غمر قلبه إيمان كبير بأنّ الله لن يتخلّى عنه.

**ب- <u>شعر الوعـد والوعيـد:</u>**

يعدّ شعر الوعد والوعيد أحد أنواع الشّعر السّياسي، ولم نعثر في شعر أبي حمّو إلاّ على قصيدة واحدة، قد قالها بعدما قام بغارة على النّاحية الشّرقيّة من المغرب الأقصى في أواخر سنة (766هـ)[4]، وتمثّل هذه القصيدة أهمّ بواكير شعر الوعيد في العصر الزّياني[5]،

---

[1]**عبد الحميد حاجيات.** المرجع نفسه. 329.
[2]**الغشائم:** مفرده: الغشم: الظّلم والغضب. انظر: **ابن منظور.** لسان العرب. مادّة: (غشم).
[3]**عبد الحميد حاجيات.** أبو حمّو موسر الزيّاني. 330.
[4]انظر: **عبد الحميد حاجيات.** المصدر نفسه. 323.
[5]انظر: **نوار بوحلاسة.** الشّعر الزّياني. 84.

وقد نظمها في حقّ الوزير المريني "عمر بن عبد الله الياباني"[1]، الذي كان يسيطر على الملك المريني أبي زيّان.

جاءت القصيدة مطوّلة في ثمانية وخمسين بيتا، يتوعّد فيها أبو حمّو خصمه الياباني، وينعته بجملة من الصّفات السيّئة، كما يستعرض فيها قوّة جيشه، ويتغنّى بانتصاره، ولعلّ من أهمّ الأبيات التي يتجلّى فيها الوعيد، قول الشّاعر:

قَدْ خُنْتَ بَعْدَ أَيْمَانٍ مُؤَكَّدَةٍ    وَ تِلْكَ عَادَتُكُمْ فِي سَالِفِ الحِقَبِ
وَ كَمْ تُجِيبُ لِدَاعِي الغَيِّ مُبْتَدِرًا    وَ إِنْ دَعَوْتُكَ يَوْمَ الحَرْبِ لَمْ تُجِبِ
فَانْصُبْ إِلَى الحَرْبِ مَيْدَانًا تَشِيبُ لَهُ    سُودُ الذَّوَائِبِ بَيْنَ الحَرْبِ و الحَرَبِ
قَدِمْتَ طَائِرَكَ المَشْؤُومَ أَنَّ لَـهُ    دَلاَئِلاً ظَهَرَتْ فِي مَنْزِلٍ خَـرِبِ
أَخْطَأْتَ فِي رَأْيِ مَنْ خَابَتْ رِوَايَتُهُ    حَتَّى اقْتَحَمْتَ الرَّدَى مِنْ غَيْرِ مَا سَبَبِ
تَخُوضُ بَحْرًا ولاَ تَخْشَى عَوَاقِبَهُ    وَ لَيْسَ تَسْلُكُ لُجَّ البَحْرِ بِالنُّجُبِ[2]

يتّهم أبو حمّو عدوّه بالخيانة، ويجعلها صفة ملازمة له، كما يتّهمه بالجبن لأنّه لم يلبّي دعوته للحرب، وفي البيت الثّالث يتوعّده صراحة، ويأمره أن ينصب ميدانا للقتال الشّرس، ثمّ ينعته بسوء الرّأي والمشورة، لأنّه استهان بعدوّه ولم يدرك حقّا أيّ الرّجال سيواجه.

ويواصل الشّاعر أبياته، مهدّدا عدوّه، مستعرضا قوّته أمامه، ومفتخرا بشساعة ملكه، الذي يعتبره أبو حمّو عطيّة من الله وتكريما، إلى أن يصل إلى أبيات يتوعّد فيها خصمه من جديد، واصفا إيّاه بعدد من النّعوت المخزية، يقول[3]:

هَتَكْتَ سِتْرَ مَرِينَ طَالَمَا سُتِـرُوا    قَتَّلْتَ مَالِكَهُمْ غَدْرًا بِـلاَ سَبَـبٍ
تَعَمُّدًا جُرْأَةً أَخْلَيْتَ دَارَهُـمْ    وَ لَمْ تَدَعْ لِبَنِي الأَمْلاَكِ مِنْ عَقِبٍ
فَلاَ يَغُرُّكَ مَا قَدْ كَانَ مِنْ لَعِبِ    شَمِّرْ إِزَارَكَ جَاءَ الحَقُّ فَارْتَقِبِ
لَمَّا دَعَوْتَ عَلَى بُعْدٍ أَجَبْتُكُمُ    وَ قَدْ دَعَوْنَاكَ مِنْ قُرْبٍ فَلَمْ تُجِبِ
وَ قَدْ نَهَضْتُ بِعَوْنِ اللهِ مُتَّكِـلاً    عَلَى الإِلَـهِ ومَنْ يَرْجُوهُ لَمْ يَخِبِ
بِعَسْكَرٍ لُجُبٍ ضَاقَ الفَضَـاءُ بِـهِ    كَالبَحْرِ أَعْظِمْ بِهِ مِنْ عَسْكَرٍ لُجُبِ

---

[1] انظر: **عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزيّاني. 323.

[2] **عبد الحميد حاجيات**. المصدر نفسه. 323-324.

[3] **عبد الحميد حاجيات**. المصدر نفسه. 324.

عَرَمْرَمٍ زَاخِرٍ فَاضَتْ مَوَاكِبُهُ      كَأَنَّهُ سُحُبٌ أَرْبَتْ عَلَى سُحُبِ

مِنْ كُلِّ لَيْثٍ شُجَاعٍ فَارِسٍ بَطَلٍ      حَامِي الذِّمَارِ مِنَ الأَعَاجِمِ والعَرَبِ

يا لها من أوصاف ذميمة، تلك التي ينعت بها أبو حمّو عدوّه، فهو من فضح أهله بني مرين، بعد أن كانوا في ستر طيلة أيّامهم، بل وقتل ملكهم غدرا وعدوانا، ثمّ ينتقل الشّاعر مرّة أخرى ليتوعّد خصمه بلقاء دامي، قد أعدّ له كلّ أسباب النّصر، متّكلا على الله، يغمره يقين بالنّصر المحقّق، فهذا جيش عظيم لا نظير له، تضيق الأرض على اتّساعها أن تضمّه، فهو كالبحر كبرا، أو كالسّحب عددا، يجمع خيرة الفرسان البواسل، الذين يماثلون اللّيوث قوّة وشجاعة، وعلى اختلاف أجناسهم من عرب وعجم، يتقاسمون هدفا واحدا القضاء على عدوّهم والانتصار لمليكهم.

و تضطرم نفس أبي حمّو، حقدا وغضبا على عدوّه، فأنصت إليه وهو يقول[1]:

لاَ بُدَّ مِنْ سَاعَةٍ بَيْنِي وبَيْنَكُمْ      تَغِيبُ شَمْسُ الضُّحَى فِيهَا ولَمْ تَغِبِ

وَ تَكْتَسِي الأَرْضُ ثَوْبًا كَالعَقِيقِ ولاَ      تَجْرِي الجَدَاوِلُ إلاَّ مِنْ دَمٍ سَرِبِ

وَ الخَيْلُ جَائِلَةٌ والأُسْدُ ذَاهِلَةٌ      والأَرْضُ عَارِيَةٌ مِنْ ثَوْبِهَا القَشِبِ[2]

هُنَاكَ تَجْنِي ثِمَارًا كُنْتَ غَارِسَهَا      وَ يَحْكُمُ الدَّهْرَ بِالآيَاتِ والعَجَبِ

وَ نَأْخُذُ الثَّأْرَ مِمَّنْ دَنَا وقَصَا      مِنَ العُدَاةِ وهَذَا مُنْتَهَى أَرَبِي

إنّه ليوم عصيب، ذاك الذي يتوعّد به أبو حمّو عدوه، يوم لشدّة هوله تغيب فيه الشّمس ضحى، وتستعير فيه الأرض اللّون الأحمر بدل الأخضر، هناك ستكون ساعة انتقام من العدوّ، لأنّه سيدفع ثمن استهانته بخصمه، ويجني ما قد زرعه من قبل، حينها فقط ستهدأ نفس أبي حمّو، لأنّه حقّق أربه وأخذ ثأره من ألدّ أعدائه.

وما نستخلصه بعد هذه الدّراسة، أنّ شعر أبي حمّو السّياسي، استطاع أن يواكب الأحداث التّاريخيّة التي عاشها، وبالرّغم من قلّة القصائد في هذا اللّون، لكنّها تبقى ذات أهميّة كبرى في تسجيل الأحداث التّاريخيّة الهامّة في حياة الشّاعر، وفي إثراء رصيده الشّعري.

## 2- <u>الفخـر:</u>

---

[1] **عبد الحميد حاجيات**. المصدر السابق. 326.

[2] **القِشْبُ:** الجديد والخلق. انظر: **ابن منظور**. لسان العرب. مادّة: (قشب).

يعتبر الفخر من أوسع أبواب الشّعر العربي، باعتباره المعبّر الأساسي عن طبيعة العربي، التي تميّزت دائما بالنّخوة والأنفة والعزّة « و الافتخار هو المدح نفسه، إلاّ أنّ الشّاعر يخصّ به نفسه وقومه »[1]، وفي هذا اللّون الشّعري نلاحظ تمازج الفرد بالجماعة، كما يتميّز بتضخّم الذّات لكن سرعان ما تتحلّل لتذوب في القبيلة، فالشّاعر «يضع فنّه قبل كلّ شيء في خدمة فخره بنفسه واعتزازه بمجد قبيلته » [2].

و ينقسم الفخر إلى قسمين: أوّلهما فخر فردي وهو يدلّ على «بلورة الشّخصيّة الفرديّة وتحرّرها من ربقة المجتمع، كما يدلّ على نزعة عنيفة نحو إثبات الذّات » [3]، لذلك يعدّ هذا اللّون الشّعري أكثر الأغراض تصويرا للنّفس وارتباطا بها.

أمّا القسم الثّاني من الفخر هو القومي، ويذكر فيه الشّاعر مكارم قومه ومفاخرهم، ويكون «هذا الفخر عندما تذوب شخصيّة الأديب في جماعته بحيث يغدوا معهم كلاّ واحدا، فإذا فخر بهم عاد الفخر عليه » [4].

و لا يرجع فخر الشّاعر بنفسه وقومه وإشادته بحسبه وخصاله إلى عاطفة الأنانيّة وحبّ الذّات دائما، فقد يكون الشّاعر مضطرّا لمساجلة خصومه، أو إنهاض همم قومه الخامدة وإعادة تذكيرهم بما أحرزوه من أمجاد في أوقات سابقة، ونحن بتفهّمنا للنّفس البشريّة نطالب الشّاعر فقط بالصّدق حين يفتخر « و التّجرّد عن مظاهر الكبرياء وتمثيل الحقائق الواقعيّة التي لا تركن إلى الخيال، بل إلى الواقع نفسه في تصوّرها وتصويرها»[5].

إنّ الدّارس لشعر أبي حمّو موسى الثّاني، يلاحظ أنّه لم يسلك مسلك المبالغة في فخره دائما، وإنّما كان الفخر عنده منصبّا حول شجاعته وبطولاته في ساحات الوغى، إضافة إلى ما حازه من كريم الخصال ورفيع الأخلاق، وهو بذلك يشابه من سبقه من شعراء في فخرهم.

---

[1] **ابن رشيق**. العمدة. تحقيق: **عبد الحميد محمّد محي الدّين**. دار الجيل. بيروت. لبنان . ط5. 1981. ج1.ص143.

[2] **كارل بروكلمان**. تاريخ الأدب العربي. الهيئة المصريّة العامّة للكتاب. 1993. ج1+2. ص115.

[3] **علي بوملحم**. في الأدب وفنونه. المطبعة العصريّة للطّباعة والنّشر. صيدا. لبنان. (د.ت). ص61.

[4] **علي بوملحم**. المرجع نفسه. 62.

[5] **عبد المنعم خفّاجي**. الآداب العربيّة في العصر العبّاسي الأوّل. دار الجيل. بيروت. 1992. ص204.

فمن الصّور الحاضرة بشدّة في فخريّات أبي حمّو، تغنّيه بشجاعته وإقدامه في حروبه العديدة التي خاضها دفاعا عن ملكه، وطلبا للتّوسّع على حساب الدّولة المرينيّة، ومن ذلك قوله[1]:

وَ قَدْ أَلِفْتُ مِنَ الهَيْجَاءِ عَاطِلَـةً[2] ... تَشُبُّ يَوْمَ الوَغَى والحَرْبُ نِيرَانِ
وَ كَمْ سَقَيْتُ كُؤُوسَ المَوْتِ صَافِيَةً ... وَ قَدْ حَمَيْتُ بِحَدِّ السَّيْفِ أَوْطَانِـي
وَ كَمْ قَهَرْتُ عَدُوًّا ظَالِمًا غَشِمًا ... يَوْمَ اللِّقَاءَ بِأَظْعَانٍ وأَطْعَـانِ
وَ كَمْ عَمَّرْتُ دِيَارًا قَلَّ عَامِرُهَا ... وَ قَدْ جَعَلْتُ دِيَارَ الأُنْسِ عُمْرَانِ
وَ قَدْ أَقَمْتُ رُسُومًا قَبْلَ نَاصِرِهَا ... يَوْمَ الهِيَّاجِ وكُلُّ النّاسِ عَادَانِـي
حَتَّى ظَفِرْتُ بِشَـيءٍ كُنْتُ أَطْلُبُـهُ ... فَالحَمْدُ للهِ فِي سِرٍّ وإِعْـلاَنِ
نَعَمْ ولاَ بُدَّ لِي مِنْ أَخْذِ أَرْضِهِمْ ... بِالمُرْهَفَاتِ وجُرْدٍ تَحْتَ عُقْبَـانِ
حَتَّى أُرَوِّي سُيُوفِي مِنْ دِمَائِهِـمْ ... رَيَّ الحَجِيجِ إِذَا حَلَّتْ بِحِسْيَـانِ

فالشّاعر يرى في نفسه بطولة نادرة، فهو الحامي للحمى يوم الكريهة، وهو القاهر للأعداء يوم يلتقي الجمعان، كما أنّه تحدّى الجميع وخاض الصّعاب حتّى ظفر بما كان يسعى لأجله، وهو إعادة بعث الدّولة الزيّانيّة من جديد، ولكنّ ورغم هذا الإنجاز، عليه أن يواصل سلسلة انتصاراته، وعليه أن يلحق بأعدائه شرّ الهزائم، بل ويحاربهم في عقر دارهم حتّى يروّي سيوفه من دمائهم.

و حول الشّجاعة والفروسيّة دائما، يقول أبو حمّو معتدّا بنفسه:

فَمَا بِسِوَى العَلْيَاءِ هِمْنَا جَلاَلَـةً ... إِذَا هَامَ قَوْمٌ بِالحِسَانِ النَّوَاعِـمِ
بُرُوقُ السُّيُوفِ المَشْرَفِيَّاتُ والقَنَا ... أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ بُرُوق المَبَاسِـمِ
وَ أَحْسَنُ مِنْ قَدِّ الفَتَاةِ وخَدِّهَا ... قُدُودُ العَوَالِي أَوْ خُدُودُ الصَّوَارِمِ
وَ أَمَّا صَهِيلُ السَّابِحَاتِ لَدَى الوَغَى ... فَأَشْجَى لَدَيْنَا مِنْ غِنَاءِ الحَمَائِمِ
إِذَا نَحْنُ جَرَّدْنَا الصَّوَارِمَ لَمْ تَعُدْ ... لأَغْمَادِهَا إِلاَّ بِحَزِّ الغَلاَصِـمِ
نُوَاصِلُ بَيْنَ الهِنْدِ والهَامِ والطَّلَى ... بِتَفْرِيقِ مَا بَيْنَ الطَّلَى والجَمَاجِمِ
فَيَرْغَبُ مِنَّا السِّلْمَ كُلُّ مُحَارِبٍ ... وَ يَرْهَبُ مِنَّا الحَرْبَ كُلُّ مُسَالِمِ

---

[1] **عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 315.

[2] **عاطلة:** عطلة من الإبل الحسنة العطل إذا كانت تامّة الجسم. انظر: **ابن منظور**. لسان العرب. مادّة: (عطل).

نَقُودُ إِلَى الهَيْجَاءِ كُلَّ مُضْمَرٍ وَنَقْدُمُ إِقْدَامَ الأُسُودِ الضَّرَاغِمِ

وَ مَا كُلُّ مَنْ قَادَ الجُيُوشَ إِلَى العِدَى يَعُودُ إِلَى أَوْطَانِهِ بِالغَنَائِمِ[1]

يستعين أبو حمّو بصور غزليّة، ليؤكّد على أنّه رجل يفضّل الحرب والقتال على أيّ شيء آخر، فإذا كان غيره يهيم بالحسان من النّساء، فهو هائم بالسّيف المجرّد، والخيل الجائلة في ميادين المعارك، كما يفتخر الشّاعر بقوّته التي ذاع صيتها حتّى تجنّبه كلّ مسالم ومحارب، ويختم هذه الأبيات مفتخرا بأنّه خير من قاد الجيوش، بل وخير من عاد بالغنائم.

كما يفتخر أبو حمّو بقبيلته، على أنّ هذا الفخر لا ينفصل عن فخره بنفسه، يقول في بعض الأبيات:

لاَ بُدَّ مِنْ طَيِّ السَّرَى لِبِلاَدِهِمْ مِنْ فَوْقِ صِهَّالٍ أَغَرٍّ مُحَجَّلِ

وَ أَسِيرُ فِي إِعْلاَئِهِ مُتَبَخْتِرًا مُتَوَشِّحًا مُتَقَلِّدًا فِي جَحْفَلِ

وَ قَبِيلُ عَبْدِ الوَادِ مُحْدِقَةٌ بِنَا مِنْ كُلِّ لَيْثٍ ضَارِبٍ بِالمِنْصَلِ

وَ لَهَا عُوَالٌ كَالشُّهُوبِ إِذَا بَدَتْ قَدْ عَدَّلَتْ لِلْحَرْبِ أَيَّ تَعَدُّلِ

وَ الخَيْلُ تَعْثُرُ فِي الأَعِنَّةِ ضُمَرًا مِنْ أَشْقَرٍ وأَدْهَمٍ ومُحَجَّلِ[2]

فالشّاعر يتوعّد أعداءه المرينيّين، بأن يقصد بلادهم محاربا، متبخترا على رأس جحفل من المقاتلين، في مقدّمتهم رهطه بنو عبد الواد، حيث يشبّه أبو حمّو أهله باللّيوث القويّة المحاربة، فهم مستعدّون لخوض المعارك بكلّ بسالة من فوق جياد أصيلة أعدّت للحرب والقتال.

و الفخر «صفة مشتركة بين الشّعراء جميعا قديمهم وحديثهم، فلا يتصوّر شاعر قط لم يفخر بنفسه » [3]، وأبو حمّو واحد من أولئك يرى في نفسه جملة من الخصال الحميدة، من بينها قوّة التّحمّل، إذ يقول[4]:

لَوْ ذَاقَ قَاسِي القَلْبِ مَا قَدْ ذُقْتُـهُ لَغَدُوا سُكَارَى فِي مَحَلٍّ مُهْمَلِ

أَوْ حَلَّ مَا بِي بِالجِبَالِ تَدَكْدَكَتْ دَكًّا وأَمْسَتْ مِثْلَ كُحْلِ المُكَحَّلِ

---

[1] **عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 318.

[2] **عبد الحميد حاجيات**. المصدر نفسه. 297.

[3] **عبد الحليم حنفي**. شعر الصّعاليك. الهيئة المصريّة العامّة للكتاب. ط1. 1997. ص319.

[4] **عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 296.

وَ الحَالُ تُنْبِىءُ والكَوَاكِبُ تَشْهَدُ    أَنِّي أُرَاقِبُهَا ولَمْ أَتَخَيَّلِ
حَالِي يَطُولُ ومِحْنَتِي لاَ تَنْقَضِـي    كَمْ لِي بِمَيْدَانِ الوَغَى مِنْ مَحْفَلِ

فهو الرّجل الجلد، الذي لا تقهره الظّروف على قسوتها، فلو أنّ غيره قد ناله بعض حاله لهلك، أو أنّ معاناته نزلت بالجبال لدكّتها دكّا من شدّة هولها، فهو صاحب الأحزان القويّة والمحن الصّعبة، لكن وعلى الرّغم من آلامه، يبقى الفارس الذي خبر ميادين الوغى وخبرته.

و نجده في موضع آخر، يفتخر بإحياء دولة أجداده، وقدرته على حمل أعباء الملك، يقول(1):

أَحْيَا وأَعَادَ قَبِيلَ أَبِـي    مِنْ عَبْدِ الوَادِ أُولِى الأَسَلِ
أَحْيَاهَا بِـي، وبِأَعْرَابِـي    وَ أَنَا الزَّابِي والدَّوْلَـةُ لِـي
بِي أَحْيَاهَا، بِـي أَنْشَأَهَـا    لِي أَعْطَاهَـا، أَزَلَ الأَزَلِ
اللهُ قَضَى، والحُكْمُ مَضَـى    وَ لَنَا فَرَضَا، فَدَعُوا عَذَلِـي
فَلَهُ الشُّكْرُ ولَـهُ الأَمْـرُ    مِنْهُ النَّصْرُ، لاَ مِنْ قِبَلِـي
حَمَّلَنِي المُلْكَ ومَنْ يَقْـوَى    يَحْمِلُ مَا فِيهِ مِنَ الثِّقَـلِ
إِلاَّ بِمَعُونَـةِ خَالِقِنَـــا    مَوْلَى النِّعْمَاءِ وخَيْرُ وَلِـي

يرى الشّاعر أنّ الله عزّ وجلّ اختاره لإحياء دولة أجداده من جديد، فهو يفتخر أن يكون هذا الشّخص الذي حقّق حلم قبيلته بني عبد الواد، لذلك لا يكفّ أبو حمّو عن شكر الله تعالى على نعائمه، ويعود ليفتخر مرّة أخرى بقدرته على تحمُّل مسؤوليّات الملك بمعونة المولى عزّ وجلّ.

و من صور الفخر القديمة التي رسمها الشّعراء، الفخر بمكارم الأخلاق والفضائل، وقد سلك الشّاعر هذا المسلك في قوله(2):

أَحْمِي المَظْلُومَ وأَنْصُـرُهُ    وَ أُقِيمُ الحَقَّ عَلَـى عَجَـلِ
أَنْزَلْتُ النَّـاسَ مَنَازِلَهُـمْ    وَ تَرَكْتُ الظَّالِمَ فِي وَجَـلِ
وَ أَنَا لِلطِّفْلِ كَوَالِـدِهِ    وَ أَسُوقُ الشَّيْخَ عَلَـى مَهْـلِ

(1) **عبد الحميد حاجيات**. المصدر نفسه. 310.
(2) **عبد الحميد حاجيات**. المصدر السابق. 310-311.

وَ الرِّفْقُ كَذَلِكَ مِنْ شِيَمِــي وَ العَدْلُ بِهِ أُعْطِـي أَمَلِــي
وَ أُنِيلُ القَاصِـدَ حَاجَتَــهُ وَ أُنِيلُ المَالَ بِـلاَ مَلَـلِ

و لعلّ اعتداد أبي حمّو بشخصه، هو من دفعه إلى الافتخار بكلّ خلق رفيع وسمة عالية، حيث يرى في نفسه، حامي المظلوم وناصره على من ظلمه، بل مقيم العدل فور وقوع الظّلم، كما أنّه العطوف والحنون على الأطفال الصّغار الضّعاف كأنّه أب محبّ، وكذلك هو الرّحيم بالشّيخ الكبير، محسن لمعاملته، بالإضافة إلى عطائه الكبير على المحتاجين، فهو يبذل ماله دون بخل أو ملل.

و يقول الشّاعر في موضع آخر، مفتخرا بحماية "السّبيع" [1]الذي قصده مستجيرا:

وَ نَنْصُرُ مَظْلُومًا ونَمْنَـعُ ظَالِمًا إِذَا شِيكَ مَظْلُومٌ بِشَوْكَةِ ظَالِـمِ
وَ يَأْوِي إِلَيْنَا المُسْتَجِيرُ ويَلْتَجِـي وَ يَحْمِيهِ مِنَّا كُلُّ لَيْثٍ ضُبَارِمِ[2]
أَلَمْ تَرَ إِذْ جَاءَ السُبَيِّعُ قَاصِـدًا إِلَى بَابِنَا يَبْغِي إِلْتِمَاسَ المَكَـارِمِ
أَلاَ أَيُّهَا الآتِي لِظِـلِّ جِنَابِنـا نَزَلْتَ بِرُحْبٍ فِي عِرَاضِ المَكَارِمِ
وَ قُوبِلْتَ مِنَّا بِالذِي أَنْتَ أَهْلُـهُ وَ فَاضَ عَلَيْكَ الجُودُ فَيْضَ الغَمَائِمِ
كَذَا دَأْبُنَا لِلْقَاصِدِينَ مَحَلَّنَـا حِمًى ونَدَى يُنْسَى بِهِ جُودُ حَاتِمِ [3]

فهو يباهي، أنّ قصده "السّبيع" مستجيرا، طالبا للحماية، ثمّ يؤكّد بأن هذا الوفد، لن يجد إلاّ كلّ تكريم وحفاوة لأنّه ينزل عند أهل المكارم، الذين يفيضون على ضيوفهم غمائم من الجود والكرم.

كما أدّى افتخار الشّاعر بنفسه إلى ذكر نسبه، وهذا الأمر كان من المتعارف عليه منذ الجاهليّة، حيث يقول في أحد أبياته:

وَ نَحْنُ ذَوُو التِّيجَانِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ لَعَمْرُكَ مَا التِّيجَانُ غَيْرُ العَمَائِمِ[4]

فهو يرى أنّه من سلالة ملوك تنتمي لبني هاشم، وهي الرّفعة التي لا تقاربها رفعة، ثمّ يسترسل حتّى يفتخر بانتمائه لآل زيّان، فهو سليل عزّ تذلّ له الملوك وتخضع، يقول[5]:

---

[1] **السّبيع:** أحد أمراء الدّولة المرينيّة. انظر: **عبد الحميد حاجيات**. المصدر نفسه. 123.

[2] **ضبارم:** الشّديد الخلق من الأسد. انظر: **ابن منظور**. لسان العرب. مادّة: (صوم).

[3] **عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 319. 321.

[4] **يحي بن خلدون**. بغية الرّوّاد. 2: 95.

[5] **يحي بن خلدون**. المصدر نفسه. 2: 95.

مَنَاقِبُ زَيَّانِيَّـةٌ مُوسَوِيَّـةٌ يُذَلُّ لَهُ عِزُّ المُلُوكِ العَمَاقِـمِ
يَقْصُرُ عَنْ إِدْرَاكِهَا كُلُّ مُبْتَـغٍ وَ يَعْجَزُ عَنْ إِحْصَائِهَا كُلُّ نَاظِـمِ

ومن بين ما افتخر به أبو حمّو، الانجازات التي حقّقها في مجال الحرب والسّياسة، يقول[1]:

شَدَدْنَا بِهَا أَزْرًا وشِدْنَا بِنَاءَهَـا وَكَمْ مَكَثَتْ دَهْرًا بِغَيْرِ دَعَائِـمِ
نَظَمْنَا شَتِيتَ المُلْكِ بَعْدَ افْتِرَاقِـهِ وَكَمْ بَاتَ نَهْبًا شَمْلُهُ دُونَ نَاظِـمِ
وَرِضْنَا جِيَّادَ المُلْكِ بَعْدَ جُمَاحِهَا فَذُلَّتْ وقَدْ كَانَتْ صِعَابَ الشَّكَائِمِ

فالشّاعر يتحدّث عن تلمسان، عاصمة ملكه ويفتخر أنّه شيّد بناءها، وقد كانت بغير دعائم من قبل، كما يعتدّ بأنّه أقام ملكا فيها، وحصّنها من طمع الطّامعين، فقد أتقن السّياسة، وأجاد إمارة الدّولة، وروّض المُلْكَ بين يديه، وكأنّ هذا الأخير جواد جامح بين يدي فارس ماهر.

وأخيرا يمكننا القول، بأنّ فخر أبي حمّو لم يخرج عن المألوف في المفاخر العربيّة، فقد كان يدور حول أمجاده الشّخصيّة والقوميّة، حيث طرق ما شاع في فخر العصور الأدبيّة السّابقة من كرم وشجاعة نادرتين، وحسب وشرف، وأخلاق سامية.

كما تضمّن فخره أحداثا سياسيّة ميّزت حياته كملك وقائد عسكريّ، وأكثر ما ميّز شعره، الاعتدال في الفخر والابتعاد عن المغالاة والمبالغة.

**3- <u>الرّثـاء:</u>**

يعدّ الرّثاء من أهمّ الموضوعات التي تحرّك العاطفة الإنسانيّة، وتثير النّفس وتذكّر الإنسان بفلسفة وجوده، وهي الحياة والموت، « وهو مزيج من لوعة ومدح وتهديد»[2]، الرّثاء أصدق الشّعر لأنّه يصدر من قلوب جريحة وأرواح تتلوّى حرقة لفقدان حبيب لها أو قريب « إذ طالما بكى شعراؤنا من رحلوا عن دنياهم وسبقوهم إلى الدّار الآخرة، وهو بكاء يتعمّق في القدم منذ وجد الإنسان، ووجد أمامه هذا المصير المحزن»[3].

---

(1) **عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 321-322.

(2) **حنّا الفاخوري**. الجامع في تاريخ الأدب العربي. دار الجيل. بيروت. لبنان. ط1. 1986. ص130.

(3) **شوقي ضيف**. الرّثاء. دار المعارف. ط4. (د.ت). ص50.

ويشبه الرّثاء المدح في بعض الجوانب، غير أنّ الشّاعر يبثّ في رثائه ما يدلّ على أنّ المقصود شخص ميّت «فينبغي أن تتوخّى في المرثيّة ما تتوخّى في المديح »[1]، حيث أنّ الرّثاء «يوافق المدح في المعاني ويخالفه في المشاعر»[2]، وذلك لأنّ الشّاعر قد ينسى حزنه وألمه، ويبالغ في ذكر خصال الفقيد وشمائله.

وينقسم شعر الرّثاء إلى ثلاثة جوانب أساسيّة وهي: النّدب والتّأبين والعزاء، فالنّدب يصوّر لوعة الشّاعر المتّقدة على الفقيد ومشاعره تكون غاية في الصّدق والقوّة، أمّا التّأبين فهو أقرب إلى الثّناء منه إلى الحزن الخالص لأنّ الشّاعر يرثي شخصيّة مرموقة في المجتمع وينوّه بمنزلتها، وأخيرا العزاء الذي يتّخذه الشّاعر ليتفكّر ويتعمّق في حقيقة وجوده، ويصل من خلال تأمّلاته إلى فلسفات عميقة حول الحياة، ووجود الرّثاء متّصل « بمجموع الارتدادات النّفسيّة كظهور الموت العنيف في سياق الحياة مع ما يستدعي ذلك من التّمرّد والدّعوة إلى الثّأر، واللّوعة أمام المحتوم والخضوع لمشيئة القدرة» [3].

لم تصلنا من مراثي أبي حمّو موسى إلاّ قصيدتين، قالهما رثاء لأبيه أبي يعقوب، وهما قصيدتان تفيضان مشاعر رقيقة وصادقة، وتعبّران عن مدى تعلّق الشّاعر بوالده ومحبّته الكبيرة له « ولا ريب أنّ رثاء الأقارب كان في العادة أقرب إلى العاطفة »[4]، كما تظهران حجم حزن أبي حمّو وألمه، وتبرزان درجة اللّوعة التي ألمّت به.

ولم تخرج مراثي الشّاعر عن نموذج قصيدة الرّثاء العربي، حيث بدأ قصائده بوصف حاله، وما تجرّعه من حزن وألم نتيجة هذا المصاب الجلل، وما لحق به من حرقة ولوعة، ثمّ يسترسل على نهج الشّعراء الأوائل في ذكر مكارم المتوفّى وخصاله، وما حازه من شرف في ميادين الوغى، ويختم بالدّعاء له وطلب الرّحمة، وهذا ما سنتناوله بشيء من التّفصيل في الجزء الخاص ببناء القصيدة في فصلنا القادم.

---

(1) **أبو هلال العسكري**. كتاب الصّناعتين. تحقيق: **علي محمّد البجاوي ومحمّد أبو الفضل إبراهيم**. المكتبة العصريّة. صيدا. بيروت. 1986. ص131.

(2) **غازي طليمات و عرفان الأشقر** . الأدب الجاهلي. دار الفكر. سورية. 2001. ص242.

(3) **رجيس بلاشير**. تاريخ الأدب العربي. ترجمة: **إبراهيم الكيلاني**. المؤسّسة الوطنيّة للكتاب. الدّار التّونسيّة للنّشر. تونس. 1986. ج1.ص458.

(4) **عمر فروخ**. تاريخ الأدب العربي. دار العلم للملايين. لبنان. ط4 .1981. ج1.ص83.

قد يضمّن الشّاعر أبياته وجع روحه لفقد هذا العزيز الغالي فيقول[1]:

فَبَكَيْتُ مِنْ أَسَفٍ لِذَلِكَ كَمَا بَكَتْ حُزْنًا عَلَيْهِ مَنَازِلِي ورُبُوعِـي
وَ جَزَعْتُ مِنْ أَلَمِ الفُرَاقِ ولَمْ أَكُنْ يَوْمَ الكَرِيهَةِ فِي الوَغَى بِجَزُوعِ
لَمْ تُنْصِفِ الأَيَّامُ حَرَّ فِرَاقِـهِ لَكِنَّهُ قَدْ أَنْصَفَتْـهُ دُمُوعِـي
عَجَبًا لأَجْفَانِي سَخَتْ بِدُمُوعِهَا وَ القَلْبُ مُحْتَرِقٌ بِنَارِ ضُلُوعِـي

ففجيعة الشّاعر لم تكن بسيطة ولا هيّنة، لأنّ الفقيد هنا هو والده الذي تعلّق به، وكان له طيلة حياته نعم الوالد الحنون والمحب، لذلك كانت حرقته عليه عظيمة عظمة ارتباطه به، لقد بكاه بكاء مريرا كما بكته المنازل والرّبوع التي تعوّدت عليه أيضا، وسخت جفونه بدموع فيّاضة، لكنّها لم تستطع على غزارتها إطفاء نار قلبه الذي يحترق بين ضلوعه.

ثمّ يسترسل الشّاعر مصوّرا حجم مصيبته، فيقول[2]:

الدَّهْرُ أَفْجَعَنِي وغَيَّرَ بَاطِنِـي حَتَّى أَضَرَّ بِقَلْبِي المَفْجُوعِ
فَعَدِمَتُ سِلْوَانِي وبَانَ تَصَبُّرِي وَ فَقَدْتُ خِلاَّنِي فَزَادَ نُزُوعِـي
وَ لَكَمْ خَشِيتُ الفَقْدَ قَبْلَ وُقُوعِـهِ وَ لَكَمْ حَذَرْتُ مَرَارَةَ التَّوْدِيـعِ
يَا مُسْعَدِي أَبْصَرْتَ مَا فَعَلَ النَّوَى بِكَرِيمِ قَوْمٍ فِي التُّرَابِ صَرِيعِ
فِي طَيِّ لَحْدٍ بِالثَّرَى فَكَأَنَّـهُ مَا كَانَ فِي عِزٍّ وفِي تَرْفِيـعِ

فبلغة حزينة تملؤها الحسرة والأسى، تنمّ عن مشاعر رقيقة، وتأثّر بالغ، يعبّر الشّاعر عن فجيعته في الوالد الحبيب، فقد فَقَدَ الصّبر والسّلوان، وهو من كان يخاف لحظة الفراق ومرارة التّوديع، لذلك يصعب عليه أن يرى كريم قومه يضمّه لحد تحت الثّرى، ونلاحظ أنّ الشّاعر تحدّث عن قلّة صبره، في حين أنّ التّحلّي به «يعين الشّاعر أن يتحوّل من إنسان أذمته المصيبة وهزّته الفجيعة، إلى إنسان لملم أحزانه، وهدّأ من انفعالاته، واستقرّت نفسه »[3].

ويقتدي أبو حمّو بالصّور التي رسمها شعراء الرّثاء الأوائل فيقول[4]:

---

(1) **يحي بن خلدون**. بغية الروّاد. 2: 105.

(2) **يحي بن خلدون**. المصدر نفسه. 2: 105.

(3) **صالح مخيمر**. رثاء الأبناء في الشّعر العربي إلى نهاية القرن الخامس الهجري. مطبعة المنار. الزّرقاء. ط2. د ت. ص119.

(4) **يحي بن خلدون**. بغية الروّاد. 2: 106.

لَوْ كَانَ يُعْرَضُ لِلْفِدَاءِ فَدَيْتُهُ بِالدُّرِ ثُمَّ بِالعَجْسَدِ المَطْبُوعِ
وَ بِمَا مَلَكْتُ ونَاظِرِي وحَشَاشِيَ وَ بِمُهْجَتِي وبِقَلْبِي المَصْدُوعِ

فلطالما تحدّث الشّعراء عن فكرة الفداء بكلّ غال ونفيس، لو كان بالإمكان استرجاع من فُقِدَ من الأحبّة، وكذلك حال أبي حمّو، فهو مستعدّ أن يفدي أباه بالجواهر والذّهب، بل بناظريه وبقلبه، لكنّ لا سبيل لذلك.

ونلاحظ تأثّر الشّاعر بصور البكاء التي رسمها الشّعراء الأوائل في رثائهم، ومنها تكرار اسم الفقيد أكثر من مرّة على التّوالي، لتصوير حجم الحزن الذي أصابهم، ومنها قول أبي حمّو في بعض الأبيات:

لأُهْمِلَنَّ دُمُوعِي مَا حَيِيتُ وإِنْ أَبْقَانِي العُمْرُ تَرَفْتُ الدَّمَا تَرَفَا
يَا فَقْدَ يُوسُفَ مَا أَبْقَيْتَ لِي جَلَدًا يَا فَقْدَ يُوسُفَ إِنَّ الصَّبْرَ عَنْكَ عَفَا
مَا مِثْلُ يُوسُفَ مَفْقُودٌ لِفَاقِدِهِ وَ لاَ كَمُوسَى أَخُو فَقْدٍ إِذَا وُصَفَا[1]

وكأنّ الشّاعر قد تأثّر بقول المهلهل وهو يبكي أخاه كليبا:

عَلَى أَنْ لَيْسَ عَدْلاً مِنْ كُلَيْبٍ إِذَا طَرَدَ اليَتِيمُ عَنْ الجَزُورِ[2]
عَلَى أَنْ لَيْسَ عَدْلاً مِنْ كُلَيْبٍ إِذَا مَا ضَيَّمَ جِيرَانُ المُجِيرِ[3]

و أبيات أبي حمّو هذه، تنفذ إلى القلب مباشرة لما تتضمّنه من أحاسيس مرهفة وصادقة، فالشّاعر يهدف من خلالها إلى إفراغ لواعج نفسه، التي لا شفاء منها إلاّ ببكاء أبيه بحرقة شديدة، ليس دمعا فقط، بل ودما إن كان في العمر بقيّة، لقد جاءت مراثي أبي حمّو زاخرة بالأحاسيس الصّادقة والمعاني القويّة، لأنّها نابعة من قلب يعاني آلام الفراق، والأشعار المؤثّرة تأتي «على السّجيّة إذا كان الشّاعر قد فجع ببعض أهله »[4]، خاصّة إذا كان الفقيد أحد الأبوين.

---

(1) **عبد الحميد حاجيات.** أبو حمّو موسى الزيّاني. 337.

(2) **الجزور:** النّاقة المجزورة. انظر: **ابن منظور.** لسان العرب. مادّة: (جزر).

(3) **محمود شكري الألوسي.** بلوغ الأدب في معرفة أحوال العرب. نشر محمّد بهجت الأثري. مصر. ط3. د ت. ج2.ص155.

(4) **الرّافعي. مصطفى صادق.** تاريخ آداب العرب. دار الكتاب العربي. بيروت. لبنان. 2003. ج1. ص72.

ويواصل الشّاعر استلهام صوره من التّراث الشّعري العربي، حين يتحدّث عن العجز أمام الموت، يقول[1]:

أَفْجَعْتَنِي يَا زَمَانُ اليَوْمَ فِي خَلَدِي ... مَا أَسْرَعَ المَوْتَ فِي الأَحْبَابِ حِينَ وَفَى
صَارَتْ مَسَاكِنُهُمْ تَحْتَ التُّرَابِ وقَدْ ... تَمَزَّقَ الدُّودُ مَا قَدْ كَانَ مُؤْتَلَفَا
المَاءُ والنَّارُ مَجْمُوعَانِ فِي كَبِدِي ... فَاعْجَبْ لِضِدَّيْنِ فِي القَلْبِ قدْ إِئْتَلَفَا
نَارٌ تَشُبُّ وأَكْبَادٌ تَذُوبُ بِهَا ... وَيْحَ المُعَذَّبِ بِالجِنْسَيْنِ يَا لَهَفَا

فالشّاعر يشعر بالضّعف أمام الموت، وبالعجز أمام أحكام القدر، فهو يعبّر عن حيرته أمام هذا الجبّار الذي يتخطّف الأحباب ويواريهم في غياهب القبور، لذلك يوجّه كلامه للزّمان يعاتبه على قضائه، ويصوّر حزنه لمفارقة أعزّ النّاس، وعجزه عن احتمال ما يضطرم في نفسه من حرّقات الفراق.

ولم يفت أبو حمّو أن يقوم بتعداد خصال الفقيد، وذكر أيّامه البيض، على غرار باقي الشّعراء، فرحيل والده، كان له وقع كبير على نفسه، مزّق روحه ألما وحزنا، لذلك عمل على رفع مكانته ونسب له كلّ فضيلة، حتّى غدا الرّثاء لا يختصّ بالفقيد فقط، بل للقيم الإنسانيّة والأخلاق الفاضلة، التي يمثّلها هذا الوالد، وأبو حمّو في هذا لم يخرج عن خطّ شعراء الرّثاء في مراثيهم الشّهيرة، يقول[2]:

قَدْ حَازَ أَشْتَاتَ المَحَاسِنِ كُلِّهَا ... فَاعْجَبْ لِحُسْنِ ثَنَائِـهِ المَجْمُوعِ
جُودٌ ومَجْدٌ وشَجَاعَةٌ والنَّدَى ... وَالجُودُ فِي طَبْعٍ لَـهُ مَطْبُوعِ
فَبِكَفِّهِ بَأْسٌ وفِيـهِ رَحْمَـةٌ ... قِسْمَانِ بَيْنَ مُعَانِدٍ ومُطِيـعِ
عَدْلٌ إِذَا يَقْضِي وغَيْثٌ إِنْ يَجُدْ ... وَ حُسَامُهُ نَارٌ لِكُلِّ قَرِيـعِ
قَدْ كَانَ كَهْفًا لِلأَنَامِ وعُـدَّةً ... وَحِمَى لِمَنْ يَرْجُوهُ جِدٌّ مَنِيـعِ

حيث يحاول أبو حمّو أن يجعل من والده شخصيّة فذّة لا تضاهى، لما أحرزته من أوصاف الكمال، ولذلك يركّز دائما على سماته المعنويّة المتميّزة، فأبو يعقوب قد حاز كلّ أنواع المحاسن، التي قلّما تجتمع لغيره، من جود وشجاعة، ورحمة بالإضافة إلى العدل وإغاثة الملهوف.

و يستمرّ الشّاعر في تعداد خصال والده، فيقول:

---

(1) **عبد الحميد حاجيات.** أبو حمّو موسى الزّياني. 338.

(2) **يحي بن خلدون.** بغية الرّوّاد. 2: 106.

وَ الأُسْدُ تَخْضَعُ والمُلُوكُ تَهَابُهُ  فَلَكَمْ لَهُ مِنْ سَامِعٍ ومُطِيعِ
وَ لَكَمْ تَزَاحَفَتْ الكَتَائِبُ خَلْفَهُ  فَيَرُوعُ بَأْسًا وهُوَ غَيْرُ مَرُوعِ
وَ لَكَمْ عَسَاكِرٌ قَادَهَا يَوْمَ الوَغَى  مِنْ كُلِّ صِنْدِيدٍ بِكُلٍّ جُمُوعِ
مِنْ خَيْرِ قَوْمٍ مِنْ أَجَلِّ عَشِيرَةٍ  وَ أَعَزُّ مُنْتَسِبٍ إِلَيْهِ رَفِيعِ[1]

يصوّر الشّاعر أباه على أنّه رجل مهاب، تخضع له الأسود وتحذره الملوك، لذلك كان مسموع الكلام، مطاع الأوامر، كما كان قائدا مغوارا، يقود الأبطال في ساحات القتال مروّعا أعداءه ببأسه وقوّته، وبالإضافة لكلّ هذه المميّزات، فالفقيد من أعزّ قوم وأشرف نسب.

ورغم أنّ الشّاعر في أوصافه السّابقة لم يأت بجديد على مستوى الصّور والمعاني، إلاّ أنّه حاول أن يلوّن مراثيه بصبغة خاصّة. ولعلّ أكثر ما جعل لأشعاره نوعا من الخصوصيّة، تتمثل في صدق عاطفته، التي تعبّر عن حزن بليغ، وتأثّر شديد بهذه المصيبة.

ومن صور التّقليد في شعر أبي حمّو، تضمين مرثيّتيه حديثا فلسفيّا عن الحياة والموت، وتأمّلات في الكون، حيث يقول في بعض أبياته:

فَاحْذَرْ زَمَانَكَ لاَ يَغُرُّكَ أَنَّهُ  فِي شَهْدِهِ يَأْتِي بِكُلِّ فَظِيعِ
وَ كَذَلِكَ الدُّنْيَا فَلاَ تَأْمَنْ لَهَا  فَلَكَمْ تَغُرُّ بِوَصْلِهَا المَقْطُوعِ
وَ لَكَمْ غَدَا فِي أَسْرِهَا مِن مَاجِدٍ  وَ لَكَمْ لَهَا مِنْ ضَيْغَمٍ مَصْرُوعِ
أَيْنَ المُلُوكُ وأَيْنَ مَا قَدْ جَمَّعُوا  مِنْ كُلِّ ذُخْرٍ فِي الحَيَاةِ رَفِيعِ
سَارُوا فَلَمْ تَسْمَعْ لَهُمْ خَبَرًا ولَمْ  تَرَ مِنْهُمْ أَثَرًا يَلُوحُ بِرِيعِ[2]
وَ أَبَادَهُمْ صَرْفُ الزَّمَانِ وخَلَّفُوا  مَا جَمَّعُوا مِنْ جِنَّةٍ وزُرُوعِ[3]

نلاحظ أَنَّ مصيبة الشّاعر عظمت، وجرحه صار أكثر عمقا، وبلغ به التأثّر أقصاه، حتّى وجد نفسه منغمسا في تأمّلات، دفعته إلى النّظر في أحوال هذه الدّنيا الغادرة، وزخارفها المزيّفة، فجاءت هذه الأبيات تفيض بالحكمة والموعظة، وهو في ذلك يتشبّه بأبي العتاهيّة في فلسفته وتأمّلاته، والذي يقول في بعض شعره:

---

(1) **يحي بن خلدون.** المصدر السابق. 2 :105.
(2) **ريع:** السّبيل أو الطّريق المنفرج. انظر: **ابن منظور**. لسان العرب. مادّة: (ريّع).
(3) **يحي بن خلدون.** بغية الروّاد. 2 :106.

كُلُّ نَطَّاحٍ مِنَ الدَّهْـرِ لَـهُ يَـوْمٌ نَطُــوحْ
وَ لَسْتَ بِبَاقِي ولَوْ عَمَّــرْتَ، مَا عَمَّرَ نُــوحْ
فَعَلَى نَفْسِكَ نُحْ، إنْ كُــنْتَ لاَ بُدَّ، تَنُــوحْ[1]

و وسط أحزانه العميقة، لا ينسى أبو حمّو أن يذكر أفضال والده عليه، فالإحساس بالخسارة يكون أشدّ والتفجّع على الميّت يكون آلم، لأنّ « الفقيد يحمل بعضا من حياة الفاقد كالذّكريات والأواصر والصّلات التي جمعتهما » [2]، يقول:

قَدْ كَانَ لِي فِي الدُّنَى أَبٌ يُسَاعِدُنِي فَصَارَ تَحْتَ الثَّرَى فِي لَحْدِهِ اِكْتَنَفَا
مَدَدْتُ فِي ظِلِّ نِعْمَاهُ يَدِي زَمَنًـا وَ نِلْتُ مِنْ رِفْدِهِ فِي دَهْرِهِ التُحُفَا
رَعَى جَنَابِي وَلِيدًا غَيْرَ مُضْطَجِرِ حَتَّى تَرَعْرَعْتُ فِي ظِلٍّ لَهُ وَرِفَا[3]

لقد فقد الشّاعر بوفاة والده ظهرا كان يسنده، ولكم تنعّم في ظلّه، وهو لا ينسى كيف منحه الرّعاية والحماية صغيرا، حتّى اشتدّ عوده، ووصل إلى ما هو فيه من مجد وشرف.

ويسترسل أبو حمّو في تعداد أفضال ذلك الأب العزيز، فيقول[4]:

يَسُرُّهُ إِنْ رَآنِي سِرْتُ فِي تَـرَفٍ وَ يَسْتَزِيدُ عَلَى الأَعْدَاءِ بِي صَلِفَا[5]
وَ إِنْ عَرَانِي مَا أَخْشَاهُ مِنْ دَنَفٍ[6] بَكَى ورَقَّ وأَضْحَى يَشْتَكِي لَهَفَا
كَأَنَّ ذَاكَ الذِي قَدْ ذُقْتُ مِنْ وَجَلٍ أَصَابَهُ فَهُوَ يَشْكُو ذَلِكَ الدَّنَفَـا
لاَ غَرْوَ أَنَّا رِجَالٌ لاَ نَفِيءُ بِمَا لِلْوَالِدَيْنِ عَلَيْنَا بِالحُقُوقِ وَفَـا

يا لها من ذكريات تزيد القلب تمزّقا والنّفس لوعة، فأبو حمّو لا ينسى رقّة الوالد معه، فلكم ابتهج إذا ما رآه مسرورا، ولكم حزن وتألّم إذا ما اعترى ابنه أيّ مكروه، هذه المحبّة الخالصة والرّعاية الخاصّة، جعلت الشّاعر يقرّ بأفضال الوالدين ومنحهم العظيمة لأبنائهم.

---

[1] **خليل شرف الدّين. أبو العتاهيّة**. دار ومكتبة الهلال. بيروت. 1992. ص155.

[2] **غازي طليمات** و**عرفان الأشقر**. الأدب الجاهلي. 243.

[3] **عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 336-337.

[4] **عبد الحميد حاجيات**. المصدر نفسه. 337.

[5] **صلفا:** من الصّلف: وهو مجاوزة القدر في الظّرف والبراعة والادّعاء فوق ذلك تكبّرا. انظر: **ابن منظور**. لسان العرب. (مادّة: صلغ).

[6] **الدَّنَفُ:** المرض اللاّزم المخامر. انظر: **ابن منظور**. المصدر نفسه. مادّة: (دنـف).

ونلاحظ أنّ مراثي أبي حمّو جاءت قويّة المعنى وشديدة التّأثير، تلامس العاطفة الإنسانية وتحرّكها، وسبب ذلك، خصوصيّة الفقيد، فهو والد الشّاعر، وأقرب النّاس إلى قلبه، أمّا من ناحية الشّكل، فالشّاعر لم يأتي بجديد، فقد جاءت أشعاره على شاكلة المراثي العربيّة الشّهيرة، حيث صوّر أبو حمّو في قصيدتيه مرارة حزنه، وشدّة حرقته على فقيده، كما عدّد خصال أبيه ونسب إليه كلّ مكرمة وفضيلة.

ولم يفت الشّاعر أن يعود بالذّاكرة إلى أيّام خلت، ليتذكّر أيّ أفضال كانت لأبيه عليه، وكم هي طويلة تلك الأيّام التي تنعّم فيها إلى جانبه ، وبالإضافة إلى كلّ ما تقدّم، تعمّق شاعرنا في حقيقة الموت، واستخلص منها مجموعة حكم تخصّ قيمة الحياة، بثّها في بعض أبياته.

**4- <u>المولديّات:</u>**

هي امتداح الرّسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم، وذكر خصاله وشمائله وتعداد صفاته والثّناء عليه، وهي قصائد اختارت ذكرى ميلاد المصطفى لتظهر وتبرز تمجيد المسلمين لتلك اللّيلة، فالشّاعر «يتوجّه بكلامه إلى النّبي كأنّه موجود حيّ، يناديه ويناجيه فيسمعه ويلبّيه »[1].

إنّ القصيدة المولديّة ترتبط بمناسبة دينيّة هامّة في حياة المسلمين عامّة، والمغاربة والأندلسيّين خاصّة، وتتجلّى هذه الأهميّة البالغة في المظاهر الاحتفاليّة العظيمة، التي كانت تقام بالمناسبة، ويمكن اعتبار المولديّات النّمط المغربي الأندلسي الذي يتلوّن بالمحليّة، باعتبار ما عرف عن المغاربة من حبّهم الشّديد للرّسول صلّى الله عليه وسلّم، وما نظموه من قصائد في الشّوق، والشّكوى من صعوبة الرّحيل إلى البقاع و« الاحتفال بالمولد النّبوي الشّريف قد صار عادة عامّة، وقد اختلف في كونها سنّة حسنة أو بدعة سيّئة » [2].

وتُرجع المصادر التّاريخيّة، بداية الاحتفالات بالمولد النّبوي، إلى أبي العبّاس العزفي (ت633هـ) صاحب سبتة، ولا يمكن أن تكون هذه البادرة دون إرهاصات سابقة، وأكثر الاعتقاد أنّ المسلمين قاموا بتقليد المسيحيّين في احتفالهم بمولد المسيح عليه السّلام، فقد

[1] **الدّهان. سامي**. فنون الأدب العربي. دار المعارف. ط4. (د.ت). ص72.

[2] **رضا محمّد رشيد** . ذكرى المولد النّبوي. مطبعة المنار. مصر. ط1. 1295ه. ص03.

كان أهل سبتة «قبل سنّ المواسم المولديّة يحتفلون بأعياد الميلاد المسيحيّة » [1]، ومن بعد، أخذ الاحتفال صورته الرّسميّة.

ولعلّ، أكثر من أعطى المثل في الاحتفال بهذه المناسبة، هم ملوك بني زيّان إذ «حفظت لنا المصادر التّاريخيّة ما جعلنا نرجع أنّ لهذه المملكة خصوصيّات معتبرة من حيث الاعتناء بمولده صلّى الله عليه وسلّم خصوصيّات لم تشهد مثلها الممالك المجاورة»[2].

لقد عُرف المسلمون بحبّهم الشّديد لنبيّهم محمّد صلّى الله عليه وسلّم، وشوقهم الكبير لزيارة البقاع المقدّسة، وفي ظروف خاصّة تميّزت بأزمات سياسيّة حادّة، وفي ظلّ تكالب أعداء الأمّة، ظهرت المدائح النّبويّة بالأندلس والمغرب، وأخذت في الانتشار على نطاق واسع، خاصّة مع ما عرف عن المغاربة والأندلسيّين من محبّتهم العظيمة للرّسول الكريم، فهم «أرقّ النّاس شوقا إلى زيارة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم لأنّ بعد المزار غزا قلوبهم بأقباس حنين » [3].

ولا شكّ أنّ أبا حمّو لم يختلف عن أولئك المحبّين والمتشوّقين، لذلك كانت قصائد المولديّات صاحبة النّصيب الأكبر بين كلّ شعره، حيث بلغت اثنتي عشرة قصيدة، أثبتها صاحب "بغية الروّاد" في جزئه الثّاني، كما كان اهتمامه بإحياء ليلة المصطفى أقرب إلى الخيال والأسطورة منها إلى الحقيقة.

و قصيدة المولديّات، تتضمّن محاور عديدة، إلى جانب العنصر الأساسي فيها وهو مدح الرّسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم، تتمثّل في الشّوق والحنين إلى قبر النّبي صلّى الله عليه وسلّم والبقاع المقدّسة، ووصف ركب الحجيج، والدّعاء والتّضرّع لله عزّ وجلّ، إضافة إلى الاعتراف بالذّنوب، والنّدم على ما فات من العمر في المعاصي، وسنعرّج على هذه العناصر بالتّفصيل في فصلنا القادم إن شاء الله، وذلك حين نتعرّض إلى بناء القصيدة في شعر أبي حمّو.

ولعلّ من نماذج الحنين والشّوق لقبر الرّسول صلّى الله عليه وسلّم وأرض الحجاز، قول الشّاعر:

---

[1] **محمّد ابن تاويت و محمّد الصّادق عفيفي.** الأدب المغربي. مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللّبناني للطّباعة والنّشر. بيروت. ط2. 1969 . ص191.

[2] **عبد الله حمّادي.** دراسات في الأدب المغربي القديم. 249.

[3] **زكي مبارك.** التصوّف الإسلامي في الأدب والأخلاق. مطبعة الكتاب العربي. 1954. ص279.

يُعَذِّبُنِي شَوْقِي ويُضْعِفُنِي الهَوَى     وَ قَلْبِي عَلَى جَمْرٍ مِنَ الشَّوْقِ مَحْمِيٌّ

لَبِسْتُ ثِيَابَ السَّقَمِ فِي دَوْحَةِ الهَوَى     وَ قَدْ صُبِغْتُ فِي حُبِّهِمْ لَوْنَ عُودِيٌّ

تَحَلَّيْتُ فِي أَهْلِ الهَوَى بِهَوَاهُمْ     فَمَالِي سِوَى زَيِّ المَحَبَّةِ مِنْ زَيٌّ

وَ صِرْتُ إِذَا هَبَّتْ نُسَيْمَةُ أَرْضِهِمْ     عَلَى شَجَرَاتِ البَانِ[1]، أَوْ قَضْبِ نَسْرِيٌّ

أَمِيلُ بِهَا شَوْقاً إِلَيْهِمُ وأَنْثَنِي     كَمَا يَنْثَنِي قَدُّ الحُسَامِ الفَرَنْدِيٌّ[2]

وَ أَصْبُوا إِلَى أَرْضِ الحَبِيبِ ومَنْ بِهَا     مَتَى مَا سَرَى عُرْفُ النَّسِيمِ الحِجَازِيٌّ[3]

فالشّاعر المشتاق إلى أرض الحجاز لا يستطيع صبرا في مكابدة حنينه، هذا الحنين الذي أضعف الجسم وأحرق القلب، وأظهر السّقم على محيّاه، فصار يترصّد نسيمات تهبّ من أرض الحبيب محمّد صلّى الله عليه وسلّم، علّه يطفئ بها لهفة نفسه، والشّوق إلى بلاده صلّى الله عليه وسلّم ومن بها، يضني الفؤاد ويمزّق الرّوح.

و يواصل أبو حمّو واصفا حنينه لأرض الحجاز والرّسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم، فيقول[4]:

أَلاَ لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَزُورُ بِطَيْبَةَ     رُبُوعًا بِهَا حَلَّ الهُدَى وبِطَاحَا

أُسْكِنُ أَشْوَاقِي بِقُرْبِ لِقَائِهِمْ     وَ أُنْشِدُ قَلْبًا بِالأُبَيْطِحِ طَاحَا

ويقول كذلك:

إِذَا جِئْتَ نَجْدًا أَوْ نَشَقْتُ نَسِيمَهَا     وَ شِمْتَ عَرَارًا[5]، رَبْوَةً وبِطَاحَا

فَصَرِّحْ بِذِكْرِي فِي الخِيَامِ وأَهْلِهَا     وَ نَاشِدْهُمْ شَوْقِي هُنَاكَ صَرَاحَا

وَ بَلِّغْ إِلَى خَيْرِ الأَنَامِ تَحِيَّتِي     كَمَا نَمَّ زَهْرٌ فِي الرِّيَاضِ وفَاحَا[6]

إنّها المحبّة الكبيرة، التي ضاق بها القلب، نحو طيبة وربوعها، تلك التي حلّ بها الحبيب المصطفى يوما وباركها، ثمّ يخاطب الشّاعر، من نال شرف زيارة تلك البطاح،

---

(1) **البان:** شجر يسمو ويطول في استواء مثل نبات الأثل. وليس لخشنه صلابة . انظر: **ابن منظور**. لسان العرب. مادّة: (بيّن).

(2)**فرندي:** من الفرند: وشي السّيف أو جوهره. انظر: **ابن منظور**. لسان العرب. (مادّة: فرند).

(3) **يحي بن خلدون**. بغية الروّاد. 2 :65-66.

(4).**يحي بن خلدون**. بغية الروّاد. 2 :98-99.

(5) **عرارا**: بهار البرّ. وهو نبت طيّب الرّيح. انظر: **ابن منظور**. لسان العرب. مادّة: (عرر).

(6) **يحي بن خلدون**. بغية الروّاد. 2 :99.

ويناشده أن يذكره عند أهلها، ويبثّ لهم شديد شوقه، وأن يبلّغ سلامه لطبّ النفوس ودواؤها محمّد صلّى الله عليه وسلّم.

وفي نفس المعنى، يقول دائما، واصفا وجده لتلك الرّبوع الطّاهرة:

هَبَّ النَّسِيمُ مِنْ أَرْضِ نَجْدٍ شَاقَنِـي ... وَ البَرْقُ أَرَّقَنِي سَنَاهُ ورَاقَنِــي

وَ الذَّنْبُ عَنْ وَصْلِ الأَحِبَّةِ عَاقَنِـي ... وَ جَرَتْ دُمُوعِي كَالعَقِيق ◌ِ وخَانَنِي

صَبْرِي وكَانَ الشَّوْقُ أَصْل خُضُوعِي[1]

هو نسيم عليل، يهيّج عبق ريحه الطّيّب فؤاد المضنى بالشّوق والوجد، والحبيب المرتجى أشبه ما يكون بالبرق رفعة ونورا، يمزّق ضياؤه عتمة اللّيل البهيم، لكنّ سناء هذا البرق وبالرّغم من أنّه يعجب الشّاعر ويروقه، لكن كونه لا يستطيع الوصول إليه، ذاك شيء أرّقه وحيّر مضجعه، ويشعر أبو حمّو أنّ الذّنب أصل حرمانه من زيارة الحبيب المصطفى، لأنّ الوصول لتلك الرّبوع الطّاهرة، نعمة لا تهدى لعاص ومذنب، لذلك يبكي الشّاعر حظّه دموعا غزيرة لا تجفّ، ويكابد الأشواق في غياب الصّبر والجلد.

ومن المواضيع التي ضمّتها القصيدة المولديّة، وصف ركب الحجيج ورصد تنقّلاتهم، يقول أبو حمّو في بعض أبياته:

حَدُّوا بِالنِّيَاقِ فَزَادَ اشْتِيَاقِـي ... وَ سَالَتْ سَوَاقِي دُمُوعِي صَبِيبَا

وَ زَمُّوا الحُمُولَ وأَمُّوا الرَّسُولَ ... فَجَابُوا السُّهُولَ لَهُ والسُّهُوبَـا

تَسَنَّى لَهُمْ قَصْدُهُمْ عِنْدَمَـا ... تَسَنَّمَ[2]كُلُّ نَجِيبٍ نَجِيبَـا

سَرُوا فِي الدُّجُونِ فَفَاضَتْ جُفُونِـي ... وَ قَدْ خَلَّفُونِي مُشَوَّقًا كَئِيبَـا[3]

فالشّاعر ها هنا، يصوّر ركب الحجيج الذين يغمرهم إيمان كبير، هوّن عليهم مشاقّ سفرهم، كما أنّه يعبّر عن حزنه الشّديد وألمه الكبير، لعدم انضمامه إلى ركبهم، فقد خلّفوه يصارع الشّوق بجسم عليل.

كما يقول الشّاعر في نفس الموضوع:

---

(1) **يحي بن خلدون**. المصدر السّابق. 2 :125.

(2) **تسنّم:** كلّ ما ركبته مقبلا أو مدبرا. انظر: **ابن منظور**. لسان العرب. مادّة: (سنّم).

(3) **يحي بن خلدون**. بغية الروّاد. 2:164.

سَارَ الأَحِبَّةُ نَحْوَ الرَّقْمَتَيْنِ[1] ضُحًى وَ خَلَّفُونِي رَهِينَ القَلْبِ مُكْتَئِبَا

سَارُوا عَلَى البَزْلِ والحَادِي يَجِدُّ بِهِمْ وَ القَلْبُ هُنَا إِلَى أَرْضِ الحِجَازِ صَبَا

هَذِي الأَحِبَّةُ قَدْ شَدُّوا مَطِيَّهُمْ وَ أَسْرَعُوا بِقِبَابِ[2]الحَيِّ قِبَا[3][4]

فأبو حمّو يتابع ركب الحجيج، ويتصوّر الأماكن التي حلّوا بها، فهم لا يغيبون عن ناظره، وكأنّه يرافقهم بروحه وقلبه، لكن هذا لا يمنعه أن يتحسّر على تخلّفه عن الرّكب، وما يعانيه حيال ذلك، من حزن وكآبة وهو بالمغرب وحيد.

و يسترسل الشّاعر، متأسّفا على تخلّفه عن قافلة الحجّاج، فيقول[5]:

شَدُّوا عَشِيَّةَ يَوْمَ البَيْنِ وارْتَحَلُوا وَ لاَ دَرَى الصَبُّ بَعْدَ البَيْنِ مَا فَعَلُوا

هَلْ بِالنَّقَا خَيَّمُوا أَمْ بِالحِمَى نَزَلُوا نَادَيْتُ مِنْ شِدَّةِ الأَشْوَاقِ ِ يَا رَجُلِ

رُدُّوا الرِّكَابَ فَإِنَّ القَلْبَ قَدْ ظَعَنَا

الشّاعر في هذه الأبيات، عاجز عن معرفة مكان الحجيج، وقد رحلوا عشيّة، تاركينه حائرا، أيّ البقاع قد نزلوا، وفي موقفه ذاك، لا يملك إلاّ أن يصرخ من شدّة شوقه، ولوعة قلبه، أن ردّوا الرّكاب!.

ثمّ ينتقل أبو حمّو إلى غرض القصيدة المولديّة الرّئيسي، وهو مدح الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، فيقول في بعض الأبيات:

نَبِيٌّ أَتَى والكُفْرُ بَادٍ ظِلاَلُهُ فَأَهْدَى الهُدَى لِلْخَلْقِ يَا حُسْنَ مَا أَهْدَى

هُوَ الرَّحْمَةُ الهَادِي الشَّفِيعُ لَنَا غَدَا هُوَ المُصْطَفَى المُخْتَارُ يُلْهِمُنَا الرَّشَدَا

هُوَ الذُّخْرُ لِلْهَوْلِ الشَّدِيدِ إِذَا أَتَى وَ مَنْ ذَا سِوَاهُ لِلْمَخَافِ إِذَا اشْتَدَّا[6]

إلى أن يقول:

أَتَيْتَ بِمَنْ لَمْ يَأْتِ الدَّهْرُ بِمِثْلِهِ أَبَرُّ بِمِيثَاقٍ وأَزْكَاهُمْ مَجْدًا

---

(1) **الرّقمتان:** روضتان إحداهما قريب من البصرة. والأخرى بنجد. انظر: **ابن منظور**. لسان العرب. مادّة: (رقم).

(2) **القباب:** موضع بنجد على طريق حاجّ البصرة. انظر: **الحموي**. معجم البلدان. مج4/ 303.

(3) **قُبا:** وأصله اسم بئر. هناك عرفت القرية بها. وهي مساكن بني عمر وبن عوف. من الأنصار. انظر: **الحموي**. المصدر نفسه. 301.

(4) **يحي بن خلدون.** بغية الروّاد. 2 :187- 188.

(5) **يحي بن خلدون.** المصدر نفسه. 2 :85.

(6) **يحي بن خلدون.** المصدر السابق. 2: 225. 226.

وَ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ جَاهًا وحُرْمَـةً          وَ أَنْدَى الوَرَى كَفًّا إِذَا سُئِلَ الرَّفَدَا[1]

فيا له من نبيّ، جمعت له المكارم والأخلاق، أزاح الكفر ونشر الرّحمة، فهو الحبيب الذي ترجى شفاعته إذا اشتدّ الهول، وهل عُرِفَ من هو أبرّ منه ميثاقا أو أزكى منه مجدا؟، أو أكرم منه عطاء؟، وهو صلّى الله عليه وسلّم عظيم القدر والجاه، سامي الدّرجة عند المولى عزّ وجلّ.

وإذا تمعنّا الأبيات السّابقة، نجد الشّاعر، يستوحي بعض صوره من القرآن الكريم، ففي قوله:

هُوَ الرَّحْمَةُ الهَادِي الشَّفِيعُ لَنَا غَدَا          هُوَ المُصْطَفَى المُخْتَارُ يُلْهِمُنَا الرَّشَدَا

يحيلنا البيت الشّعري إلى قوله تعالى:{ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**} [2]

كما يستدلّ على قدر الرّسول صلّى الله عليه وسلّم عند الله عزّ وجلّ في قوله:

وَأَعْظَم عِنْدَ اللهِ جَاهًا وحُرْمَـةً          وَأَنْدَى الوَرَى كَفًّا إِذَا سُئِلَ الرَّفَدَا

من قوله تعالى: «**لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً**»[3].

و تتواصل الأبيات التي تعبّر عن محبّة الشّاعر للرّسول الكريم:

إِذَا هَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ طَيْبَـةَ          تَعَطَّرَتْ الأَرْضُ مِسْكًا و طِيبَـا
وَ أَصْبُوا إِلَيْهَا ومِنْ أَجْلِهَـا          أُحِبُّ الصَّبَا وأُحِبُّ الجَنُوبَـا
حَنِينًا وشَوْقًا إِلَـى المُصْطَفَـى          إِلَى مَنْ بِهِ اللهُ يَمْحُوا الذُّنُوبَـا
إِلَى خَيْرِ هَادٍ هَدَى لِلرَّشَـادِ          جَمِيعَ العِبَادِ وجَلَّـى الخُطُوبَـا
لِخَيْرِ شَفِيعٍ مَكِينٍ رَفِيـعٍ          أَتَى فِي رَبِيعٍ فَأَحْيَا القُلُوبَـا
فَأَكْرِمْ بِشَهْرٍ حَوَى كُلَّ فَخْـرٍ          بِمِيلاَدِ بَدْرٍ بَدَا لَنْ يَغِيبَـا[4]

---

[1] **يحي بن خلدون**. المصدر نفسه. 2: 226.
[2] **الأنبياء. آ: 107.**
[3] **الفتح. آ: 2.**
[4] **يحي بن خلدون**. بغية الروّاد. 2 :163.

فبقلب تغمره محبّة عظيمة للرّسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم، يذكّر الشّاعر بأشواقه لمن جعله ربّه ماحيا للذّنوب، وهاد للعباد وشفيعا لهم، فأكرم بشهر فضيل شهد ميلاده عليه السّلام.

ثمّ ينتقل الشّاعر ليعدّد بعض صفات الرّسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم، يقول[1]:

مَنْ قَدْ أَتَى رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ وقَدْ ... أَحْيَا القُلُوبَ بِوَحْيٍ وَاضِحِ الحُجَجِ
مَنْ عَطَّرَ الكَوْنَ طِيبًا عِنْدَ مَوْلِدِهِ ... وَ أَشْرَقَ الأُفُقُ مِنْ نُورٍ لَهُ بَهِجِ
مَنْ أُنْزِلَتْ فِيهِ آيَاتٌ مُطَهَّرَةٌ ... أَنْوَارُهَا كَصَبَاحٍ لاَحَ مُنْبَلِجِ[2]
يَبْلَى الجَدِيدَانِ أَخْلاَقًا وجِدَّتُهَا ... مَعَ الجَدِيدَيْنِ فِي نُورٍ وفِي بَهَجِ
فِي طَيِّهَا كُلُّ عِلْمٍ ظَلَّ مُنْدَرِجًا ... وَ أَيُّ عِلْمٍ لَدَيْهَا غَيْرُ مُنْدَرِجِ
وَ كَمْ لَهُ مُعْجِزَاتٍ مَا لَهَا عَدَدٌ ... جَلَّتْ عَنِ الحَصْرِ مِنْ فَرْدٍ ومُزْدَوَجِ

هي أنوار ربّانيّة لا تنتهي، تلك صفات محمّد صلّى الله عليه وسلّم، فقد عطّر ميلاده الكون، وأشرق له الوجود، وهو من أنزلت فيه آيات مطهّرة، تعظيما لمكانته عليه السّلام، ولكثرة معجزاته صلّى الله عليه وسلّم، يعترف الشّاعر بعجزه عن عدّها أو حصرها.

ومن العناصر التي حوتها القصيدة المولديّة، إضافة إلى ما تقدّم، ذكر بعض الحوادث التّاريخيّة، التي تعدّ معجزات للرّسول الكريم، تزامنت ويوم ميلاده، أو جاءت بعد البعثة، وقد استمدّ الشّاعر معلوماته من السّيرة العطرة للرّسول صلّى الله عليه وسلّم، يقول عن بعضها:

وَ نِيرَانُ فَارِسٍ قَدْ أُخْمِدَتْ ... فَلِلَّهِ ذَلِكَ مَا أَعْجَبَا
وَ كِسْرَى تَسَاقَطَ إِيوَانُهُ ... وَ ذَاقَ مِنَ الرُّعْبِ كَأْسَ الظُّبَا
وَ خَرَّتْ قَوَاعِدُ إِيوَانِهِ ... وَ صَارَتْ رَمِيمًا كَمِثْلِ الهَبَا[3]
وَ كُلِّمَتْ الوَحْشُ لِلْمُصْطَفَى ... وَ نُطِّقَ الذِّرَاعُ لَهُ أَعْجَبَا
وَ حَنَّ لَهُ الجِذْعُ مُسْتَوْحِشًا ... وَ كَلَّمَهُ الظَّبْيُ مُسْتَغْرِبَا[4]

---

[1] **يحي بن خلدون.** المصدر نفسه. 2 :153.

[2] **منبلج:** من انبلج وتبلّج: أسفر وأضاء. انظر: **ابن منظور.** لسان العرب. مادّة: (بلح).

[3] **الهباء:** التّراب الذي تطيّره الرّيح. انظر: **ابن منظور.** لسان العرب. (مادّة: هبا).

[4] **يحي بن خلدون.** بغية الروّاد. 2 :138-139.

هي بعض معجزات النّبي صلّى الله عليه وسلّم، التي كانت دليلا على نبوّته، فيوم ميلاده عليه السّلام شهد معجزة عظيمة، فقد أخمدت نيران فارس التي لم تنطفئ منذ سنين، كما تزعزع إيوان كسرى وحطّم، ولا تتوقّف معجزاته عليه الصّلاة والسّلام عند هذه الحوادث، بل توالت آياته، فهذا الوحش قد كلّمه، والذّراع نطق له، وذاك الجذع حنّ إليه وافتقده، والظّبي دنا منه وحدّثه، وكلّها خوارق خصّه الله بها تصديقا لنبوّته.

كما تضمّنت القصائد المولديّة أبياتا للدّعاء والتّضرّع بين يدي الله تعالى، والنّدم والتّحسّر على ما مضى من العمر في المعاصي، يقول الشّاعر في بعضها:

نَامَ الأَحْبَابُ ولَمْ تَنَـمِ     عَيْنِي بِمُصَارَعَةِ لنَّـدَمِ
وَ الدَّمْعُ تَحَدَّرَ كَالدِّيَـمِ     جَرَحَ الخَدَّيْنِ فَوَا أَلَمِـي
وَ زَجَرْتُ النَّفْسَ فَمَا اِزْدَجَـرَتْ     وَ نَهَيْتُ القَلْبَ فَلَمْ يَـرُمِ(1)

تتحدّث أبيات أبي حمّو، عن الدّنيا التي تغرّ صاحبها بوهج زائف، وتزجّ العباد في غياهبها، وتباعد بين العبد وربّه، وتثقل ميزانه بالذّنوب والسيّئات، ولكنّ الله سبحانه وتعالى رؤوف بالخلق رحيم، يمنّ على من يشاء من عبيده، بصحوة الضّمير وعودة البصيرة، فيبدأ بمحاسبة نفسه، علّه ينجو من حساب من لا تخف عنه خافية.

فالشّاعر الذي صحا من غفلته، وأبصر عمرا قد ضاع بين ذنب ومعصية، لا تكفّ دموعه تنسكب ندما وكأنّها غيمة ماطرة، تلك الدّموع التي جرّحت الفؤاد قبل الخدود، وأثقلت القلب بشجن عظيم، مصدره ندم أعظم.

و يواصل أبو حمّو محاسبة نفسه ومعاتبتها على تقصيرها في حقّ ربّها، فيقول:

فَأَيْقَضَنِي الشَّيْبُ مِنْ غَفْلَتِـي     فَفِي لَمَّتِي مِنْ حَدِيثِي نَبَـا
وَ قَدْ عَادَ غَضُّ شَبَابِي بِـهِ     مَحِيلاً ولَوْنِي غَدَا مُذْهِبَـا
فَوَا أَسَفِي مِنْ ذُنُوبٍ مَضَـتْ     تَقْضِيَتُهَا فِي زَمَانِ الصِّبَـا
وَ كَمْ لُمْتُ نَفْسِي فَمَا أَقْلَعَـتْ     وَ عَاتَبْتُ قَلْبِي فَمَا أَعْتَبَـا
وَ كَـمْ قَدْ بَكَيْتُ لِذَنْبٍ جَنَـيْتُ، وقَلْبِـي نَهَيْتُ ولَكِنْ أَبَى(2) (2)

(1) **يحي بن خلدون.** المصدر نفسه. 2 :41.
(2) **يحي بن خلدون.** المصدر السابق. 2 :137.

فبنفس منكسرة ومذنبة، يصوّر الشّاعر إحساسه القوي بالحزن والخجل من شباب قضّاه مقترفا للمعاصي، فهذا الشّيب قد طرق بابه، ليذكّره بفوات العمر وزوال الشّباب، لكنّ أبا حمّو يدرك سبب أخطائه، هي نفسه الأمّارة بالسّوء، التي لطالما نصحها فما انتصحت، وزجرها فما انزجرت، ولم تفد معها دموع غزيرة بكاها حسرة وندما.

و يقول في أبيات مماثلة:

وَ تَزْرِي بِي الدُّنْيَا بِزُورِ غُرُورِهَا     فَكَمْ نَقَضْتُ عَهْدًا وكَمْ نَثَرْتُ عِقْدَا
وَ هَذَا نَذِيرُ الشَّيْبِ لاَحَ بِمِرْفَقِـي     يُذَكِّرُنِي خَوْفًا ويُنْجِزُ لِي وَعْدَا
هَوَيْتُ مِنَ الدُّنْيَا زَخَارِفَهَا التِـي     بِفَرْطِ هَوَاهَا لاَ أُطِيقُ لَهَـا رَدَّا
شَغُفْتُ بِهَا دَهْرًا، ولَمْ أَرَ مَا مَضَـى     وَ قَدْ بَذَلْتُ مِنْ بَعْدِ قُرْبِي لَهَا بُعْدَا
تُشَاغِلُنِي نَفْسِي ودُنْيَايَ والهَوَى     وَ تُبْعِدُنِي مِنْ بَعْدِ مَا أَظْهَرَتْ وُدًّا(1)

لا يكفّ الشّاعر عن لوم الدّنيا لأنّها من أغرّته بزيفها، وهو يدرك أنّ مشيبه نذير وعد قريب بالحساب والعقاب، ثمّ يعترف بعجزه عن مجاهدة النّفس والدّنيا والهوى، فهو سجين مدّ وجزر بين الثّلاثة ومخافة الله تعالى.

و نلاحظ أنّ أبا حمّو قد استوحى فكرة بيته الأوّل، من قوله تعالى في سورة الحديد:{ **وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ**}(2)

فهو لا يتوقّف عن استلهام صورة من القرآن الكريم لكي يلبسها قوّة المعنى ودقّة التّصوير.

و مولديّات أبي حمّو لا تخل من أبيات يقصد فيها الشّاعر ربّه، طالبا للصّفح والعفو والمغفرة، ومن ذلك قوله:

رُحْمَاكَ يَا رَبُّ إِنَّ الذَّنْبَ مِنْ قِبَلِي     فَوَفِّقْ العَبْدَ لِلإِخْلاَصِ فِي العَمَلِ
وَ هَبْ لَهُ فَرَجًا يَأْتِي عَلَى عَجَلٍ     بِحَقِّ أَحْمَدَ خَيْرُ الخَلْقِ والرُّسُلِ
مَنْ فِي غَدٍ مِنْ عَظِيمِ الذَّنْـبِ يُنْقِذُنَا(3)

(1)**يحي بن خلدون.** المصدر نفسه. 2 :224-225.
(2)**الحديد. جزء آ: 20.**
(3)**يحي بن خلدون.** بغية الروّاد. 2 :86.

الأبيات تعبّر عن شعور قويّ بالنّدم والخوف من عقوبة الخالق، بسبب التّقصير في حقّه تعالى، مع ضعف النّفس البشريّة أمام مغريات الحياة، لذلك كانت المولديّات مناسبة للاعتراف بالخطأ بين يدي الله عزّ وجلّ، والتّذلّل أمام كريم رحيم، وطلب العفو والمغفرة منه، والتّوسّل إليه بأحبّ خلقه له سبحانه.

و يقول في موضع آخر:

يَا رَبُّ ذُنُوبِي قَدْ عَظُمَـتْ فَامْنُنْ بِالعَفْوِ لِمُجْتَـرِمِ

فَالعَفْوُ إِلَهِي مِنْـكَ وإِنَّ الذَّنْبَ وحَقِّكَ مِنْ شِيَمِـي

شَأْنُ المَمْلُوكِ الذَّنْبُ وشَأْنُ المَوْلَى العَفْوُ عَنِ الخَدَمِ(1)

فأبو حمّو يصرّح بذنوبه العظيمة، ويقصد وجه ربّه خاضعا، خاشعا، طامعا، في واسع رحمته، وكبير كرمه، أن يعفو عنه، فمن يغفر غيره، وهو المولى الذي يصفح عن عبيده المخطئين التّائبين.

و يقف الشّاعر أمام الخالق عزّ وجلّ وهو يقول(2):

إِلَهِي هَبْ لِي مِنْكَ عَفْوًا ورَحْمَـةً فَمَازِلْتَ يَا مَوْلاَيَ تُبَلِّغُنِي القَصْدَا

وَ عَبْدُكَ مُوسَى لَمْ يَزَلْ فِيكَ رَاجِيًا وَ مِنْ شِيَمِ المَوْلَى أَنْ يَرْحَمَ العَبْدَا

تَوَسَّلْتُ بِالمُخْتَارِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ أَجِرْنِي مِنَ النَّارِ التِي اضْطَرَمَتْ وَقَدَا

فكعادة كلّ من تقدّم به العمر، وأحسّ بقرب المحطّة الأخيرة لقاطرة الحياة، وبلغة مؤثّرة وعلى بساطتها، تحمل بين طيّاتها خليطا من مشاعر إنسانيّة مختلفة، تتأرجح بين خوف من عقاب الله تعالى، وندم على ما فرّط فيه، قصد أبو حمّو ربّه طامعا في كريم عفوه، متوسّلا بالحبيب المصطفى، علّه يجار من نار جهنّم وبئس المصير.

و يسترسل الشّاعر، في موضوع الاعتراف بالذّنوب وطلب العفو والمغفرة، فيقول(3):

سَأَلْتُكَ يَا خَالِقِي تَوْبَـةً فَمَازِلْتَ لِلسَّائِلِينَ مُجِيبَـا

خَشِيتُ المَعَاصِيَ بِيَوْمِ القِصَـاصِ إِذَا مَا النَّوَاصِي تَشِيبُ مَشْيبَـا

وَ أَنْتَ رَقِيبِي يَوْمَ الحِسَـابِ وَ كَفَى بِكَ يَوْمَ الحِسَابِ رَقِيبَـا

(1)يحي بن خلدون. المصدر نفسه. 2 :42.

(2)يحي بن خلدون. المصدر نفسه. 2 :225.

(3)يحي بن خلدون. المصدر السّابق. 2 :163.

لقد ختم أبو حمّو سلسلة توسّلاته، بالإقرار والاعتراف بخوفه الشّديد من يوم القصاص، ذلك اليوم العظيم الذي تشيب له النّواصي، كيف لا، وهو يوم يحاسب فيه الإنسان عن كلّ لحظة قضاها على وجه الأرض، والحسيب يومها ربّ عليم، يعرف كلّ صغيرة وكبيرة عن خلقه سبحانه، فلا مجال للتّملّص يومها من الذّنوب والأخطاء.

والملاحظ أنّ الأبيات السّابقة، مستوحاة من القرآن الكريم، فالبيت الأوّل مأخوذ من قوله تعالى: { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ }[1]

وكذلك الأمر، بالنّسبة للبيت الثّاني، فهو مستلهم من قول المولى عزّ وجلّ في صورة المزمّل:{كَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا }[2].

أمّا البيت الأخير، فيحيلنا إلى قول الحقّ سبحانه في سورة الأحزاب:{ كَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً } [3].

لقد كان لمناسبة المولد الشّريف، نصيب وافر من الشّعر، فأبو حمّو، يفوّت أيّ سنة، ليتقدّم بقصيدة يفتتح بها الاحتفال البهيج، الذي يقام بالمناسبة، وتلك القصائد، توزّعت أبياتها بين شوق وحنين للبقاع المقدّسة، وقبر الرّسول صلّى الله عليه وسلم، يرافقه حزن شديد بسبب العجز عن الالتحاق بركب الحجيج، وبين محاسبة النّفس لما ارتكبته من ذنوب ومعاصي، إضافة إلى الغرض الرّئيسي في المولديّات، وهو مدح الرّسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم، وتعداد معجزاته، وأخيرا، توظيف أبيات في التوسّل إلى الله، والاعتراف بالخطايا، والتّقصير في حقّ الله عزّ وجلّ، مع الأمل في مغفرة المولى وصفحه.

و لم تحد القصيدة المولديّة، عند أبي حمّو عن النّموذج الشّائع في الشّعر العربي، معنى ومبنى، كما لم تحتو على أيّ إضافات، بل جاءت تكرارا للقصائد المولديّة، التي سبقتها في المغرب والمشرق.

### 5- أغـراض أخـرى:

بعد التّمعّن في شعر أبي حمّو، وجدنا أغراضا أخرى، لا تستقلّ بقصائد لها، وإنّما نجدها منبثّة في ثنايا الأغراض السّابقة: الشّعر السّياسي والفخر والرّثاء والمولديّات، ولأنّ

---

[1] البقرة. جزء آ: 186.

[2] المزمّل. آ: 17.

[3] الأحزاب. آ: 39.

انتشار هذه الأغراض كان واسعا بين القصائد، ارتأينا أن نخصّها بدراسة مستقلّة، وتتمثّل في: الغزل، والوصف، والحكمة.

**أ- الغـزل:**

هو «شعر يعبّر عن عاطفة الحبّ بين الرّجل والمرأة، فيه تصوير لهوى الرّجل ووجده، وفيه وصف لِخَلْقِ المرأة وأخلاقها، وفيه حكاية عمّا يجري بينهما »(1)، والغزل هو ألف النّساء والتّخلّق بما يوافقهنّ(2).

و إذا تفحّصنا غزل أبي حمّو، نجده يستخدم المرأة كرمز، يعبّر به عن حبّه ووجده لشيء آخر، ومثال ذلك، توظيفه للغزل، في مناجاة معشوقته تلمسان، التي شغف بها حبّا وهياما، حيث يقول في بعض الأبيات:

كَمْ تَهْجُرُونِي وهَجْرِي لاَ يَحِلُّ لَكُمْ　　　المَوْتُ أَهْوَنُ مِنْ بُعْدِي وهِجْرَانِـي
وَ إِنْ عَزَمْتُمْ عَلَى بُعْدِي فَوَا أَسَفًا　　　بَانَ الزَّمَانُ بِحَالِـي أَيَّ تِبْيَـانِ
يَا أَحْسَنَ النَّاسِ مَالِي عَنْكَ مُصْطَبِرٌ　　　وَ كَيْفَ صَبْرِي وصَبْرِي اليَوْمَ أَعْيَانِي
أَنَا جَلَبْتُ الهَوَى حَتَّى بُلِيتُ بِـهِ　　　وَ خَاضَ بَحْرَ الهَوَى قَلْبِي وجُثْمَانِي
نَازَعْتُ عَيْنِي عَلَى مَا كَانَ مِنْ نَظَرٍ　　　فَقَالَتْ العَيْنُ إِنَّ القَلْبَ أَبْلاَنِـي
مَهْمَا نَظَرْتُ إِلَى شَيءٍ أُرَاقِبُـهُ　　　يَمِيلُ نَحْوَكُمْ سِرِّي وإِعْلاَنِـي(3)

فبلغة رقيقة تفيض عذوبة وسلاسة، يبثّ الشّاعر شوقه وحنينه لتلمسان، التي يتمثّلها امرأة حسناء سرقت لبّه، ثمّ هجرته، فنجده يشكو هذا الهجران ويرفضه، بل يتمنّى الموت على البعد، فهو قليل الصّبر، قد تصبّر حتّى أعياه صبره، ثمّ نسمعه وهو يعاتب عينه، فهي سبب ما لحق به من هوى، لكنّها تتملّص، مخبرة أنّها كانت تنفّذ رغبات القلب، وفي الأخير يعبّر الشّاعر، عن شدّة تعلّقه بهذا الحبيب الذي يراه في كلّ شيء يحيط به.

كانت كلمات الشّاعر مرهفة تلامس القلب، وهي كلمات لا تصدر إلاّ عن قلب عرف الحبّ، بل وانكوى بناره، خاصّة وأنّ الحبيبة امرأة فاتنة، لطالما طلبها الشّاعر، لكن عبثا يفعل، فهي تبخل بوصلها، ولا تجود إلاّ بالبعاد، لكن سرعان ما ترقّ هذه المعشوقة، لحال

(1)**علي بوملحم.** في الأدب وفنونه. 92.

(2)انظر: **ابن الرّشيق.** العمدة. 2: 117.

(3) **عبد الحميد حاجيات.** أبو حمّو موسى الزّياني. 313.

محبّ أسقمه الغرام، فتصرّح له أنّ حالها لا يختلف عن حاله، فأنصت إليها وهي تعترف في هذه الأبيات:

رَقَّتْ لِحَالِي ومَا قَدْ بَانَ مِنْ شَغَفِي ... وَ أَعْطَفَتْ بَعْدَ ذَاكَ الهَجْرِ سِلْوَانِي
قَالَتْ: وحَقِّ هَوَاكَ اليَوْمَ مَا نَظَرَتْ ... عَيْنَاكَ عَيْنِي إلاَّ ذُبْتُ مِنْ شَانِي
الحُبُّ مِنْ شِيمَتِي والوَجْدُ مَعْرِفَتِي ... وَ الصَّبْرُ نَافِلَتِي يَا آلَ زَيَّانِ
إنِّي شَغُفْتُ بِكُمْ مُنْذُ زَمَانٍ مَضَى ... وَ أَنْتَ لَمْ تَدْرِ مَا قَدْ كَانَ أَجْفَانِي
رَقَّتْ حَشَاشَةٌ مِنْ هَوَاكَ وقَدْ ... تَضَاعَفَ السَّقَمُ فِي رُوحِي وأَبْدَانِي
إنِّي وحَقِّ حَيَاةِ الحُبِّ مَا اِكْتَحَلْتْ ... وَ اللهِ بَعْدَكُمْ بِالنَّوْمِ أَجْفَانِي
وَ لاَ شَغُفْتُ بِحُسْنٍ غَيْرِ حُسْنِكُمُ ... وَ لاَ أَخَذْتُ عَلَيْكُمْ فِي الهَوَى ثَانِي[1]

إنّ حبّ الشّاعر الكبير لتلمسان، والذي جعله يمثّلها امرأة حسناء، قد دفعه أن يُنْطِقَ محبوبته، فبعد أن صارحها هو بوجده وبالآلام التي يكابدها في سبيل حبّها، جاء دورها الآن حتّى تعترف، بما يسكن خلجاتها من مشاعر له، ولقد حصل على ما يريد، فها هي ذي معشوقته، تقرّ بغرامها العظيم لأبي حمّو ، وتصرّح أنّ هجرها كان رغما عنها، وأن حبّها وولاءها كان دائما لآل زيّان، وهنا يظهر جليّا أنّ الحبّ المقصود هو علاقة تلمسان بالدّولة الزّيانيّة.

والجدير بالملاحظة، فيما تقدّم استعمال الشّاعر للطّريقة الحواريّة، وهو في ذلك يعبّر عن تأثّره بأسلوب الشّعر العربي القديم، خاصّة غزليّات عمر ابن أبي ربيعة، التي تشيع فيها هذه النّمطيّة التّحاوريّة، ومن أمثلة ذلك قوله[2]:

يَقُولُ خَلِيلِي إِذَا جَازَتْ حُمُولُهَا ... خَوَارِجٌ مِنْ شُوطَانٍ بِالصَّبْرِ فَاظْفَرِ
فَقُلْتُ لَهُ: مَا مِنْ عَزَاءٍ ولاَ أَسًى ... يُسَلِّ فُؤَادِي عَنْ هَوَاهَا فَاقْصُرِ

و من غزليّات أبي حمّو، ما كانت ترمز إلى البقاع المقدّسة، وما توظيف الغزل للتّعبير عن حبّ البقاع أو تلمسان، إلاّ لطبيعة هذا النّوع من الشّعر، فهو يلامس القلب، وتستسيغه النّفس، وتستعذبه الأذن، ومردّ ذلك، طبيعة النّفس البشريّة، التي تميل إليه وتحبّذه، فأنصت إلى الشّاعر وهو يتغزّل بحبّه للبقاع وكأنّها حبيبة أسرت قلبه:

---

(1) **عبد الحميد حاجيات**. المصدر نفسه. 313- 314.

(2)**عمر ابن أبي ربيعة**. الدّيوان. دار بيروت للطّباعة والنّشر. 1978. ص128.

وَ كَمْ نَفْحَةٍ تُحْيِي الفُؤَادَ بِنَشْرِهَـا أَتَتْ بِنَسِيمٍ عَاطِرِ النَّشْرِ مِسْكِـيٌّ
أُعَلِّلُ نَفْسِي بِالنَّسِيمِ إِذَا سَـرَى وَ بِالبَرْقِ إِذْ يَسْرِي وسَجْعِ قَمَارِيٌّ
أَحِبَّةَ قَلْبِي مَا أَمَرَّ فِرَاقَكُـمْ عَلَى قَلْبِ صَبٍّ لاَ يُطِيقُ عَلَى شَيءٌ[1]

فالشّاعر، لفرط وجده، يترقّب النّسيم القادم من مقام الحبيب، نسيم عاطر يفوح بريح المسك، فهو يتصبّر به على فراق الأحبّة، كما يعلّل نفسه بالبرق والقمر، وهو بذلك يتشبّه في غزله، بالغزل العذري، الذي ظهر في بادية الحجاز، والذي يعتمد على ذكر أحوال المحبّ ووصف حاله، وهو يميل إلى «التّشوّق والتّذكّر والتّشبّه لمشاهدة الأحبّة بالرّياح الهابّة، والبروق اللاّمعة، والحمائم الخائفة، والخيالات الطّائفة » [2]وتبقى معظم غزليّات أبي حمّو، تدور حول معنى الهجر، وما يسبّبه من ألم وحسرة في قلب العاشق، يقول[3]:

هَجَرْتُمْ دُونَ ذَنْبٍ لاَ ولاَ سَبَـبِ قَطَعْتُمْ القَلْبَ بِالتَّبْرِيحِ والوَصَـبِ
فَظَلْتُ مِنْ حَرِّ نَارِ الشَّوْق ِ فِي لَهَبِ أُعَاتِبُ الدَّهْرَ فِيمَا جَرَ مِنْ نُـوَبِ
يَا دَهْرُ أَفْجَعْتَ قَلْبِي بِالنَّوَى زَمَنَـا
لَوْ أَنْصَفَ الدَّهْرُ مَا فَارَقْتُكُمْ أَبَدَا وَ لاَ رَضِيتُ سِوَاكُمْ فِي الهَوَى أَحَدَا
لَمْ يَبْقَ لِي بَعْدَكُمْ صَبْرًا وَلاَ جَلَدَا وَ النَّوْمُ عَنْ مُقْلَتِي مِنْ بُعْدِكُمْ شَرَدَا
وَ قَدْ حَرِمْتُ لَذِيذَ العَيْشِ والوَسَنَـا

نلاحظ أنّ هذه الأبيات، لا تتعدّى التعبير عن حالة المحبّ، المعذّب بنار الفراق والهجران، وقد جاءت بلغة بسيطة ورقيقة، تصوّر حالة الشّوق التي تجتاح العاشق، وقلّة صبره وحيلته في مواجهة هذا الهجران، حتّى فارقه النّوم وحرم لذيذ العيش، وهذه المعاني، التي تعبّر عن نفسيّة المحبّ، والتي تخلو من المجون والإباحيّة، هي أكثر ما يناسب قصيدة المولديّات، التي تتغنّى بحبّ الرّسول صلّى الله عليه وسلّم والشّوق له وللبقاع المقدّسة.

و من أجمل أبيات الغزل التي أوردها الشّاعر، كمقدّمة لأحدى مولديّاته قوله[4]:

فَكَمْ زَفْرَةٍ فِي القَلْبِ أَحْرَقَتِ الحَشَـا كَنَارٍ تُلاَقِي فِي الهُبُوبِ رِيَّاحَـا

---

(1) **عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 346.

(2)**علي بوملحم.**. في الأدب وفنونه. 95-96.

(3) **عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 349.

(4) **عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 353.

أَبَحْتُمْ صُدُودِي فِي الغَرَامِ ولَمْ تَرَوْا　　وِصَالِي فِي شَرْعِ الغَرَامِ مُبَاحَـا
وَ حُرْمَةُ وَجْدِي لاَ سَلَوْتُ سِوَاكُمُ　　وَ لاَ رُمْتُ عَنْهُ مَا حَيِيتُ بَرَاحَـا
أَجُودُ بِنَفْسِي فِي رِضَاكُمْ صَبَابَـةً　　فَهَلاَّ مَنَنْتُمْ بِالوِصَـالِ سِمَاحَـا
يَخُطُّ كِتَابُ الشَّوْق ِ دَمْعِي بِوَجْنَتِي　　وَ يَرْوِي أَحَادِيثَ الغَرَامِ صِحَاحَـا
جُفُونِي بِمَاءِ الدَّمْعِ جَاءَتْ وأَضْلُعِي　　بِنَارِ غَرَامِي لَمْ يَزِلْنَ شِحَاحَـا

هي أبيات مليئة بالصّور الرّقيقة، والمعبّرة، تدلّ على قدرة الشّاعر على التّخيّل والتّعبير، فهو يشبّه محبّته القويّة بنار محرقة، أصدرت زفرة في قلبه، لشدّة حرّها أحرقت حشاه، فهي لا تخمد ولا تهدأ، كأنّها نار مشتعلة تهبّ عليها ريّاح قويّة، فتزيد في اشتعالها، ثمّ ينتقل، ليعاتب هذا الحبيب الذي أباح هجره، ويحاول أن يثبت له صدق مشاعره، فهو مستعدّ أن يجود بنفسه في سبيل هذا الغرام، لكنّ الحبيب، غير آبه بأحاسيسه المرهفة، حينها لا يجد الشّاعر أمامه، غير الدّموع التي تخطّ على وجنتيه دليل حبّه.

كما عثرنا في غزليّات أبي حمّو، على أبيات تدخل ضمن الغزل الصّوفي، أو ما يسمّى بالحبّ الإلهي، فتعبير« الصّوفيّة عن حبّهم الإلهي، يستلهم بشكل واضح، أساليب المتغزّلين الحسيّين، في غزلهم الإنساني العادي » [1]، يقول الشّاعر في بعض الأبيات:

فَيَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ عَطْفَـةٌ　　يَكُونُ بِهَا الدَّهْرُ عَيْشِي خَصِيبَـا
فَمَالِي عَلَى الهَجْرِ مِنْ قُـدْرَةٍ　　فَقَدْ آدَ جِسْمِي وأَفْنَى القُلُوبَـا
وَقَفْتُ رَجَائِي بِكُمْ فَارْحَمُـوا　　وُقُوفِي عَلَى بَابِكُمْ مُسْتَرِيبَـا
غَرِيبٌ فَرِيدٌ أَنَا بَيْنَكُــمْ　　وَ حَاشَاكُمْ تُفْرِدُونَ الغَرِيـبَ
وَ مَالِي ذَنْبٌ سِوَى حُبِّكُـمْ　　وَ تَاللهِ عَنْ حُبِّكُمْ لَنْ أَتُـوبَ
فَإِنْ تَقْتُلُونِي حَـلاَلٌ لَكُـمْ　　أَنَا أَرْتَضِي مَا يُرَضِّي الحَبِيبَـا
وَ إِنْ تُبْعِدُونِي عَلَى زَلَّتِـي　　فَشِيمَتُكُمْ تَغْفِرُونَ الذُّنُوبَــا [2]

المتمعّن في هذه الأبيات، يجدها مليئة بالرّموز الصّوفيّة، التي جاءت في شكل رموز غزليّة، والتي تدلّ في مجملها أنّ هذا الحبيب، ما هو إلاّ الخالق عزّ وجلّ، فالشّاعر يعدّد

(1) **نوار بوحلاسة.** الشّعر الزّياني. 135.

(2) **عبد الحميد حاجيات.** أبو حمّو موسى الزّياني. 365-366.

جملة من صفاته سبحانه، فهو من يرحم الواقف ببابه، الطّامع بكرمه، وهو وحده تعالى من يغفر الذّنوب.

و ما نخلص إليه، أنّ غزل أبي حمّو جاء كلّه في شكل رموز، إمّا تلمسان، أو البقاع المقدّسة، أو الذّات الإلهية، وغزله يدخل ضمن الغزل العفيف، الذي يعبّر عن المشاعر والأحاسيس ولا يتعدّاها للتّصوير الحسّي لمواطن الجمال عند المرأة، يتميّز برقّة الألفاظ، وبساطة التّعبير، مع شعور مرهف يدلّ على نفس حسّاسة.

**ب- <u>الوصف</u>:**

يعرّفه ابن قتيبة أنّه «ذكر الشّيء كما فيه من الأحوال والهيئات » [1]، وأحسن الوصف، «ما نعت به الشّيء حتّى يكاد يمثّله عيانا » [2]، وما استوعب «أكثر معاني الموصوف حتّى كأنّه يصوّره لك» [3].

ورغم أنّ الشّاعر لم يخصّص قصائد للوصف، إلاّ أنّنا نعثر عليه في أغلب قصائده، خاصّة قصائد الشّعر السّياسي والفخر، وتمثّل الوصف عنده، في تصوير الحيوان كالفرس و النّاقة، بينما كان جلّ وصفه يخصّ تصوير المعارك ومجرياتها.

وأوّل ما نستشهد به في هذا المقام، قول الشّاعر في ناقته:

عَلَى نَاقَةٍ وَجْنَاءَ[4] كَالحَرْفِ ضَامِرٍ ... تَخَيَّرْتُهَا بَيْنَ القَلاَصِ [5] الرَّوَاسِمِ
مِنَ اللاَّءِ يَظْلِمْنَ الظَّلِيمَ[6]إِذَا عَدَا ... وَ يُشْبِهْنَهُ فِي جِيدِهِ والقَوَائِـمِ
إِذَا اَتْلَعَتْ فَوْقَ السَّحَابِ جِرَانُـهَا ... تَخَيَّلْتُهَا بَعْضَ السَّحَابِ الرَّوَاكِـمِ
وَ إِنْ هَمْلَجَتْ[7] بِالسَّيْرِ فِي وَسَطِ مَهْمَهَ ... .تَرَاءَتْ كَمِثْلِ البَرْق ِ لاَحَ لِشَائِـمِ[8]

---

[1] **قدامة. بن جعفر**. نقد الشّعر. تحقيق وتعليق: **عبد المنعم خفّاجي**. دار الكتب العلميّة. بيروت. لبنان. ص04.
[2] **ابن رشيق**. العمدة. 2 :278.
[3] **أبو هلال العسكري**. كتاب الصّناعتين. 123.
[4] **وجناء:** ناقة وجناء: تامّة الخلق غليظة لحم الوجنة صلبة شديدة. انظر: **ابن منظور**. لسان العرب. مادّة: (وجن).
[5] **قلاص:** قلّصت الإبل في سيرها: شمّرت. والقلوص: الفتيّة من الإبل وجمعها قلاص. انظر: **ابن منظور**. المصدر نفسه. مادّة: (قلص).
[6] **الظّليم:** الذّكر من النّعام . انظر: **ابن منظور**.المصدر نفسه. مادّة: (ظلم).
[7] **هملجت:** الهملجة والهملاج: حسن سير الدّابّة في سرعة. انظر: **ابن منظور**. المصدر نفسه. مادّة: (هملج).
[8] **عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 319- 320.

نلاحظ أنّ الشّاعر في وصف ناقته، لا يخرج عن تلك الأوصاف التي شاعت في الشّعر الجاهلي، فهي خفيفة وسريعة، تسابق ذكر النّعام في عدوها، كما أنّها تشبهه في جيده وقوائمه، وحينما تعدو تمدّ عنقها إلى السّماء، حتّى يخالها المرء قطعة من السّحاب، وسرعتها في الجري كبيرة وكأنّها برق لامع.

و من أوصاف الحيوان أيضا، تصوير الشّاعر الدّقيق للجياد المستخدمة في معاركه، مفتخرا بجمالها وقوّتها، يقول:

عَلَى سَوَابِقِ خَيْلٍ ضُمْرٍ عَرَبِ ... تَزْهَى بِحُلْيَتِهَا كَالخُرَدِ[1] العَرَبِ
مِنْ أَحْمَرٍ عَسْجَدِيِّ اللَّوْنِ مُذْهِبُـهُ ... وَ أَشْقَرٍ كَشُعَاعِ الشَّمْسِ مُلْتَهِـبِ
وَ أَدْهَمٍ مِتْنُهُ لَيْلٌ وغُرَّتُـهُ ... صُبْحٌ فَيَا حُسْنَهُ مِنْ مَنْظَرٍ عَجَبِ
وَ أَشْهَبٍ كَشِهَابٍ إِنْ رَمَيْتَ بِـهِ ... شَيْطَانَ كُلِّ عَدُوٍّ فِي الوَغَى تُصِـبِ[2]

فالشّاعر يصوّر تصويرا بصريّا لكلّ ما تشاهده عينه، يجعل القارئ يتخيّل الجياد ماثلة أمامه، وهي كما يصوّرها أبو حمّو مختلفة الألوان، فمنها الأحمر، والأشقر، والأسود الذي تزيّن جبينه غرّة بيضاء، وأشهب يماثل الشّهاب في سرعة عدوه.

و لعلّ أكثر أوصاف الشّاعر، كانت تركّز على تصوير المعارك التي خاضها، وأبو حمّو في هذا قد أكثر وأجاد، ومن بين المشاهد التي وصفها بدقّة، قوله[3]:

فَهُنَاكَ فُرْسَانُ العِدَى طَافَتْ بِنَـا ... مِنْ كُلِّ طَاغٍ فِي الوَغَى أَوْ مُعْتَدِ
فَنَضَيْتُهَا صَمْصَامَة [4] رُومِيَّـةٌ ... وَ هَزَزْتُ مِنْهَا مُنْتَهَى ضَرْبِ اليَدِ
أَوْرَدْتُهَا عَلْقَ النَّجِيعِ مِنَ العِدَى ... نَهْلاً ومَا رَوِيَّتْ بِذَاكَ المَـوْرِدِ
وَ لَكَمْ كَرَرْتُ عَلَيْهِمْ مِنْ كَـرَّةٍ ... بِمُشَطَّبٍ[5]ومُثَقَّبٍ ومُهَنَّـدِ

ثمّ يقول[6]:

وَ خَلْفُنَا النَّجْلُ الرَضِيُّ مُتَسَرْبِـلٌ ... شَهْمُ اللِّقَاءِ فَمِثْلُهُ لَمْ يُولَـدِ

---

[1] **الخرد:** جمع الخريدة: البكر التي لم تلمس قطّ. انظر: **ابن منظور**. لسان العرب مادّة:. (خرد).

[2] **عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 324-325.

[3] **عبد الحميد حاجيات**. المصدر السابق. 329- 330.

[4] **صمصامة:** السّيف القاطع. انظر: **ابن منظور**. لسان العرب. مادّة: (صمم).

[5] **مشطّب:** سيف فيه شُطَب. انظر: **ابن منظور**. المصدر نفسه. مادّة: (شطب).

[6] **عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 330.

كَأَنَّهُ فِي الخَيْلِ لَيْثٌ عَابِسٌ يَسْقِي الفَوَارِسَ فِي الوَغَى كَأْسًا رَدِي
إِذَا اِنْثَنَى نَحْوَ العُدَاةِ فَكَمْ لَـهُ مِنْ فَارِسٍ فَوْقَ التُّرَابِ مُوَّسَدِ

يصوّر أبو حمّو بدقّة، مشاهد هذه المعركة، حيث أحاط به فرسان الأعداء من كلّ جانب، حينها اضطر لمجابهة الخصوم بكلّ قوّة وشجاعة، فارتوت سيوفه من دمائهم، وهو ينقضّ عليهم كرّة بعد كرّة.

و يواصل الشّاعر وصف مشهد محاصرة الأعداء له، ويخبرنا أنّه لم يكن وحيدا، فابنه أبو تاشفين كان بجانبه يذود عنه، فيصفه بشتّى أوصاف الشّجاعة والبسالة، فهو كاللّيث الغاضب، يفتك بأعدائه، فلا يُرَوْنَ إلاّ قتلى وجرحى، يصول ويجول في ميدان المعركة، من فوق جواد أصيل يعدو في سرعة الرّيح.

وتتوالى مشاهد المعارك، التي يصفها أبو حمّو بدقّة متناهية، حتّى تتراءى بين ناظريك، حيث يقول في بعض الأبيات:

كَرَرْنَا عَلَيْهِمْ كَرَّةً بَعْدَ كَـرَّةٍ وَ قَدْ سُعِّرَتْ لِلْحَرْبِ نِيرَانُ جَاحِمِ
بِضَرْبٍ يُزِيلُ الهَامَ عَنْ مُسْتَقَرِّهِ وَ طَعْنٍ مَضَى بَيْنَ الكِلَى والحَيَازِمِ
فَهَذَا أَسِيرٌ صَفَّدَتْهُ يَدُ الوَغَـى وَ هَذَا قَتِيلٌ فِي عُجَاجِ المَصَـادِمِ(1)(2)

إلى أن يقول(3):

جَعَلْنَا كَرَادِيسًا عَلَى كُلِّ رَبْـوَةٍ وَ طَالَتْ رِقَابُ الأُسْدِ تَحْتَ العَمَائِمِ
شَدَدْنَا عَلَيْهِمْ شَدَّةً بَعْدَ شَـدَّةٍ فَوَلُّوا فِرَارًا والْتَجُوا لِلْمَعَاصِمِ
وَ دَارُوا بِأَسْوَارِ المَدِينَـةِ كُلِّهَـا كَدَوْرِ سِوَارٍ فَوْقَ أَبْهَى المَعَاصِمِ

هي لقطات حيّة، تلك التي يصفها الشّاعر، يعتمد فيها على التّصوير الحسّي، فهجمات أبي حمّو وأتباعه كانت قويّة ومتتالية، أوقعت بالأعداء، فلا يُرَوْنَ إلاّ ما بين مطعون وأسير وقتيل، كما نشاهد الجثث المتناثرة في كلّ مكان، ويظهر أتباع الشّاعر البواسل، على صهوات جيادهم تغمرهم نشوة الانتصار، لقد كان النّصر حليفهم، ممّا جعل

---

(1)**المصادم:** الصّدم: ضرب الشّيء الصّلب شيء مثله. انظر: **ابن منظور**. لسان العرب. مادّة: (صدم).

(2) **عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 305.

(3) **عبد الحميد حاجيات**. المصدر نفسه. 306.

الخصوم يحتمون بالمعاصم، وآخر مشهد، يظهر فيه الجيش المنتصر، وهو يطوّق المدينة كأنّه سوار فوق أبهى معصم.

و مجمل القول، لقد كان شعر أبي حمّو مليئا باللّوحات، التي وصف بها الشّاعر مجريات معاركه وتفاصيلها، وكأنّه يريد نقل القارئ إلى أرض المعركة، كما وصف الحيوانات المستعملة في حروبه وصفا دقيقا، وقد ساعدت كثرة الحروب التي خاضها على غزارة هذا اللّون في شعره، حتّى وإن لم يخصّص له قصائد مستقلّة، ولعلّها وجدت لكنّها لم تصلنا.

**ج- الحكمــة:**

كثيرا ما أحبّ الشّعراء، أن يرصّعوا قصائدهم ومراثيهم وحتّى أهاجيهم بأمثال وحكم مستمدّة من رصيد مشترك، أو منتزع من تجاربهم الخاصّة[1]، كما تتناول الحكمة مواضيع تتعلّق بالدّهر، الذي يعني في آن واحد فكرة الزّمن، وفكرة التّهديدات المتعلّقة بمرور الزّمن[2].

لم يحد أبو حمّو عن هذا الخطّ، فجاءت حكمه منبثّة في ثنايا الأغراض الشّعريّة التي تناولها، تعرّضت لأفعال الدّهر وتقلّباته، كما حَوَتْ تأمّلات فلسفيّة في الحياة، إضافة إلى بعض الحكم المتفرّقة، مستوحاة من تجارب الشّاعر الخاصّة.

لقد كان لوفاة والد الشّاعر تأثيرها الخاص على نفسيّته، وعلى نظرته للدّنيا وأيّامها، فأنصت إليه وهو يقول[3]:

فَاحْذَرْ زَمَانَكَ لاَ يَغُرَّنَّكَ أَنَّــهُ ... فِي شَهْدِهِ يَأْتِي بِكُلِّ فَظِيــعِ
وَ كَذَلِكَ الدُّنْيَا فَلاَ تَأْمَنْ لَهَـا ... فَلَكَمْ تَغُرُّ بِوَصْلِهَا المَقْطُـوعِ
وَ لَكَمْ غَدَا فِي أَسْرِهَا مِنْ مَاجِدٍ ... وَ لَكَمْ لَهَا مِنْ ضَيْغَمٍ مَصْـرُوعِ
أَيْنَ المُلُوكُ وأَيْنَ مَا قَدْ جَمَّعُـوا ... مِنْ كُلِّ ذُخْرٍ فِي الحَيَاةِ رَفِيـعِ
سَارُوا فَلَمْ تَسْمَعْ لَهُمْ خَبَرًا ولَـمْ ... تَرَ مِنْهُمْ أَثَرًا يَلُوحُ بِرِيــعِ
وَ أَبَادَهُمْ صَرْفُ الزَّمَانِ وخَلَّفُوا ... مَا جَمَّعُوا مِنْ جِنَّــةٍ وزُرُوعِ

[1] انظر: **بلاشير رجيس**. تاريخ الأدب العربي. 1: 416-417.
[2] انظر: **بلاشير رجيس**. تاريخ الأدب العربي. 1: 417.
[3] **عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 335.

لَمْ يَبْقَ مِنْهَا غَيْرُ فِعْلٍ صَالِحٍ ... يَمْلأُ الصَّحِيفَةَ أَوْ ثَنَا مَسْمُوعِ

فانظر إلى الشّاعر، الذي اكتوى قلبه بمرارة فراق الوالد الحبيب، يحذّر من غدر الزّمان، فإنّه يأتي بعد شهده بمرارته، كما يأتي بعد الوصل بآلام الفراق، فكم قهر أعزّة وأذلّهم، وكم ضمّ ثراه رجالا أشدّاء، كانوا لا يهابون الموت ولا يخافونه، ثمّ يدعو إلى التّأمّل في مصير الملوك الأوائل، حيث كانوا أسياد الأرض، لقد رحلوا ولم تغن عنهم جنّاتهم وأملاكهم، التي خلّفوها وراء ظهورهم، ويستخلص أخيرا، أنّه لا يبقى من أثر الإنسان، سوى فعل صالح أو سمعة طيّبة يحيا بها، بعد مماته.

و لا نبرح، تأمّلات أبي حمّو، في صروف الدّنيا، وأفعالها بالبشر، حيث نجده يقول[1]:

أَيْنَ الذِينَ بَنُوا مِنْ قَبْلِنَا ونَـوُوا ... وَ شَيَّدُوا أَطْمًا[2]واسْتَوْطَنُوا غُرُفَا

وَ ظَنُّهُمْ أَنَّ هَذِي الدَّارَ بَاقِيَـةٌ ... وَ لَمْ يَظُنُّوا بِأَنَّ الدَّهْرَ سَاءَ صَفَـا

كَمْ مِنْ قَرِينٍ مَعَ الأَحْبَابِ مُبْتَهِـجٍ ... أَمْسَى فَرِيدًا وأَضْحَى بَدْرُهُ كِسَفَا

وَ كَمْ غَرِيبٍ بَعِيدِ الدَّارِ ذِي حَزَنٍ ... أَضْحَى مِنَ الغَرْبِ يَحْكِي اللاَّمَ والأَلِفَا

المَوْتُ بَابٌ وكُلُّ النَّاسِ دَاخِلُـهُ ... وَ العَبْدُ يُجْزَى بِمَا جَنَى ومَا اقْتَرَفَا

إنّها دعوة للتأمّل في أحوال هذه الحياة، فإنّها قاضية علينا مثلما فعلت بأمم قبلنا، لم ينفعهم معها ما شيّدوه من صروح، ولا ما وصلوا إليه من حضارة، فهي نصيحة حكيم، خبر الدّنيا، وشرب كؤوسا من مرارتها، أن يُتّقى شرّها، وأن يتزوّد العبد لرحيله، فإنّه ذائق الموت مهما طالت به سنين العمر، ثمّ إنّه محاسب عن كلّ صغيرة وكبيرة في حياته.

كما يظهر الشّاعر، في صورة المجرّب للحياة، العارف بأحوالها، حيث يتقدّم بأبيات، تضمّ بين طيّاتها حكما مختلفة، تنير الدّرب لمن عمل بها، يقول[3]:

السَّيْفُ أَجْدَرُ والخُطَى مِنْ خُطَبِ ... فِيهَا لِجَاجٌ وقَوْلٌ غَيْرُ مُنْتَسِبِ

خَطُّ الكَتَائِبِ لاَ خَطُّ الكِتَابِ بِهَا ... جَلِيَّةُ الأَمْرِ عِنْدَ السُّمْرِ والقَضْبِ[4]

---

(1) **عبد الحميد حاجيات.** المصدر السّابق. 338.

(2)**أطما:** الأطم: حصن مبنيّ بحجارة. وقيل: كلّ بيت مربّع مسطّح. وهو بناء مرتفع. والأطوم: هي القصور. انظر: **ابن منظور.** لسان العرب. مادّة: (أطم).

(3) **عبد الحميد حاجيات.** أبو حمّو موسى الزّياني. 323.

(4)**القضب:** السّهام الرّقاق. انظر: **ابن منظور.** لسان العرب. مادّة: (قضب).

وَ الحَقُّ فَرْضٌ عَلَى الإِنْسَانِ مُفْتَرَضٌ          وَ الصِّدْقُ أَفْضَلُ مَا أَوْدِعَتْ فِي الكُتُبِ
وَ مَنْ غَدَا السَّيْفُ فِي كَفَّيْهِ عَارِيَةً          فَكَيْفَ يُدْرِكُ مَا يَرْجُو مِنَ الأَرَبِ

لقد وصل أبو حمّو إلى حقيقة مفادها، أنّ السّيف أقدر على الفصل في الأمور الحاسمة، من الأقوال والحجج، كما أنّ خطّ الكتائب، أوضح قولا من خطّ الكتب، وينبّه الشّاعر إلى ضرورة التّحلّي بالصّدق، والالتزام بالحقّ، ويختم بالإشارة إلى أهميّة القوّة لتحقيق المآرب والأهداف.

إنّ رجلا بذل حياته للملك والحرب، وصقلته الدّنيا بخطوبها، لا يقع صريع الهوى والغرام، ولا فريسة للشّوق والسّهاد، ومن يكن ذلك حاله، فهو ضعيف العزيمة، معدوم الحزم، أنصت إليه يقول[1]:

فَإِنَّ الهَوَى لاَ يَسْتَفِزُّ ذَوِي النُّهَى          وَ لاَ يَسْتَبِي إِلاَّ الضَّعِيفَ العَزَائِمِ
وَ كُلُّ فَتَى أَعْطَى الغَرَامَ قِيَادَهُ          وَ بَاتَ عَلَى ضَيْمٍ فَلَيْسَ بِحَازِمِ

فهو يرى بأنّ أصحاب العقول، لا تستفزّهم العواطف، ومن يسلّم قلبه للهوى، فهو أبعد النّاس عن القوّة والحكمة، ثمّ يسترسل الشّاعر قائلا:

فَمَا فَازَ بِالعَلْيَاءِ سِوَى كُلُّ مَاجِدٍ          مُشَمِّرُ سَاقِ الجِدِّ مَاضِي العَزَائِمِ
صَبُورٌ عَلَى البَلْوَى طَهُورٌ مِنَ الهَوَى          قَرِيبٌ مِنَ التَّقْوَى بَعِيدُ المَآثِمِ
وَ مَنْ يَبْغِ دَرْكَ المَعْلَوَاتِ ونَيْلَهَا          يُسَاوِ بِحُلْوِ الشَّهْدِ مَرَّ العَلاَقِمِ[2]

لا تنته حكم أبي حمّو، النّابعة من تجربته الخاصّة في الحياة، فمن واقع خبرته، يؤكّد أنّ إدراك العلياء، لا يكون إلاّ بالجدّ والاجتهاد، والتّحلّي بالصّبر والجلد، مع طهارة القلب من الهوى، كما أنّ الفوز بالمجد والعلا، لا يتأتّى سوى بطاعة الله والبعد عن الآثام، ولنيل المنى، لا بدّ من الثّبات أمام نوائب الدّهر، مقابل التلذّذ بشهده، فالأيّام دول، يوم لك ويوم عليك.

وبعد ما تقدّم، يُلاحظ أنّ أبا حمّو قد حاول من خلال أبيات الحكمة، بثّ تجاربه الخاصّة، مظهرا النّصح والإرشاد لكلّ عاقل، ينتفع بما يقرأ، غير أنّنا توقّعنا شعرا أكثر في

---

[1] **عبد الحميد حاجيات.** أبو حمّو موسى الزّياني. 323.

[2] **عبد الحميد حاجيات.** أبو حمّو موسى الزّياني. 318-319.

هذا اللّون، بسبب حياة الشّاعر القاسية، وما شهده من غربة وحروب، وخيانة من أقرب النّاس إليه، وكلّها أسباب، تبعث عن قول الحكم.

وبالرّغم من قلّة الأغراض الشّعريّة التي وصلتنا، غير أنّنا يمكن أن نستشعر قدرا من الشّاعريّة لدى أبي حمّو، ومع أنّه لم يأت بجديد على مستوى المعنى والمبنى، إلاّ أنّنا نلمس نوعا من الخصوصيّة والتّميّز في أشعاره، مردّه إلى رقّة نفسه، وصدق مشاعره في معالجة جميع شعره، زيادة على تلك النّبرة الحزينة، التي تنبعث من بين الأبيات، بسبب ظروف الشّاعر الخاصّة والقاسية، والتي جعلته يعيش حالة مستمرّة من الشّجن، الذي ظهر في معظم إنتاجه.

وحتّى تكون الأحكام على شعر أبي حمّو موضوعيّة ودقيقة أكثر، يبقى علينا دراسة بنية القصائد، ولغتها، إضافة إلى صورها وأوزانها، وهذا ما سنعرّج إليه في فصلنا الثّالث.

# الفصـل الثـالث

## البناء الفني لشعر أبي حمّو موسى الثّاني

## البناء الفنّي لشعر أبي حمّو موسى الثّانـــــي

يتحتّم علينا بعد أن تعرّفنا على شعر أبي حمّو موسى، وبعد محاولة حصر أغراضه الشّعريّة، واستقراء بعض النّماذج منها وتحليلها موضوعاتنا، أن نخصّ هذا الشّعر بقراءة ثانية تلامس خصائصه الفنيّة، وتتوقّف عند القيمة الحقيقيّة له، من خلال الفحص الدّقيق والمعاينة النّزيهة، في محاولة جديدة تترصّد ملامح الجمال، ومواطن القبح، ومظاهر المحافظة والتّجديد، قياسا إلى عصر الشّاعر.

من أجل المعطيات السّابقة، ورغبة منّا في الوصول إلى النّتائج المرجوّة، ارتأينا أن يتناول فصلنا الثّالث الخطوات التّالية:

1- بناء القصيدة.

2- اللّغة الشّعريّة والأسلوب.

3- الصّورة الشّعريّة.

4- التّشكيل الموسيقي.

### 1- بناء القصيـــدة:

لا تتمّ الإحاطة الشّاملة، بمضامين القصائد الشّعريّة، بمعزل عن هيكلها العام، فهو يمثّل القالب الفنّي، الذي يستوعب أفكار الشّاعر وانفعالاته، لذلك، سنحاول تتبّع النّموذج الشّكلي، الذي اختاره أبو حمّو لأشعاره، من حيث العناصر، والجدّة، أو التّقليد، وعليه ستتناول هذه الدّراسة ما يلي: المقدّمة، الموضوع الرّئيسي، التّخلّص، الخاتمة.

وقبل الشّروع في الدّراسة، علينا أن نذكّر، أنّ شعر أبي حمّو، قد ضمّ إلى جانب القصيدة العموديّة، شعرا في المخمّسات، وتمثّل في قصيدتين، وتنتمي المخمّسات إلى المسمّطات، وهي القصائد «المؤلّفة من أدوار، ينشطر كلّ دور منها إلى أربعة أشطر أو أكثر، تتّفق جميعا في القافية، باستثناء، الشّطر الأخير، الذي يلتزم الشّاعر قافيته، في كلّ أدوار المسمّطة، دون غيرها من القوافي، وأكثر مسمّطات القرن الثّامن من المخمّسات، التي توضع في هذا الشّكل ابتداء، أو توضع على شكل قصيدة، ثمّ تخمّس» [1]، وقد جاءت مخمّستي الشّاعر في المولديّات.

[1] **عبد الحميد عبد الله الهدّامة**. القصيدة الأندلسيّة خلال القرن الثّامن الهجري. كليّة الدّعوة الإسلاميّة. ط1. 1996. ج2. ص102.

**أ- المقدّمـــــة:**

تشكلّ المقدّمة في القصيدة العربيّة، ظاهرة بارزة من مظاهرها وتعدّ مقطعا أساسيّا من مقاطعها، ومدخلا رئيسيّا كذلك، لا بدّ للشّاعر الاعتناء به، ويضمّ مفهوم المقدمة، صورا مختلفة، ارتبطت بالإطار التّقليدي، والقالب الفنّي الموروث، عن الشّعر الجاهلي، الذي كان يدفع بالشّعراء، لذكر الأطلال، أو التّغزّل، أو البكاء على الشّباب ووصف الشّيب، أو تصوير رحلة الظعن...إلخ.

وتعدّ المقدّمة «الطّليعة الدّالّة على ما بعدها، المنزّلة من القصيدة منزلة الوجه والغرّة، تزيد النّفس بحسنها ابتهاجا ونشاطا لتلقّي ما بعدها» [1]، وجلّ الشّعراء – إن لم نقل كلّهم- سواء كانوا يخوضون في مواضيع قديمة أو جديدة «لم يحيدوا عن التّقاليد المرسومة، ولا حاولوا استحداث تقاليد تغايرها وتقف بجانبها، فهم رسميّون وذاتيّون ومقلّدون، ومجدّدون، كانوا دائما يعودون إلى الأصول الثّابتة» [2].

وإذا كان الأمر كذلك، فالشّعراء كانوا « يعنون غالبا بمطالع القصائد، أي الأبيات الأولى منها»[3]، إضافة إلى المقدّمات ترسيخا منهم لتلك القواعد المتوارثة، والتي لا يمكنهم في أيّ حال من الأحوال الإفلات منها، وذلك رغبة منهم في إضفاء الشّاعريّة على شعرهم.

وغير خاف أنّ المقدّمات ليست دائما من النّوع البسيط ذي الغرض الواحد، بل قد تكون أيضا من النّوع المركّب، الذي يشتمل على أكثر من نوع، بالإضافة إلى الموضوع الرّئيسي، وليست أغراض القصيدة العربيّة المتعدّدة «مشوّهة النّظام بلا قصد في التّرتيب، وإنّما هي تنتظم في النّفس انتظام السّبب وتآخيه مع المسبّب» [4].

---

[1] **حازم القرطاجني**. منهاج البلغاء وسراج الأدباء. تحقيق: **الحبيب بن خوجة**. دار الغرب الإسلامي. بيروت. ط2. 1981. ص309.

[2] **حسين عطوان**. مقدّمة القصيدة في العصر الأموي. دار المعارف. مصر. د ت. ص165.

[3] **حسين عطوان**. مقدّمة القصيدة العربيّة في الشّعر الجاهلي. دار المعارف. مصر. 1970. ص210.

[4] **عامر. فتحي**. من قضايا التراث العربي – الشّعر والشّاعر-. منشأة المعارف. الإسكندريّة. د ت. ص29.

وانطلاقا من هذه الأهميّة التي تكتسبها المقدّمة بالنّسبة للقصيدة، والتي تجعل من هذه الأخيرة تشكيلة من الأغراض، يتّخذ الشّاعر من هذا التّركيب «وسيلة إلى خلق روح عام ينبثّ فيها، ويربط بينها ربطا موثقا يخلق منها بناء موضوعيا متكاملا» (1).

بناء على ما تقدّم، فإنّ شعر أبي حمّو، كان وفيّا لبناء القصيدة القديمة، حيث صدّر الشّاعر قصائده بأنواع متعدّدة من المقدّمات، استجابة للقالب الفنّي القديم، الذي أسّسه الشّعراء الأوائل، وسنؤكّد حكمنا من خلال ما سيأتي من صفحات، لنكشف عن أنواعها وعن الأكثر حضورا من بينها، وستتضمّن هذه الدّراسة: الطّلل، والنّسيب والشّباب والشّيب، إضافة إلى مقدّمة الحكمة، والشّوق إلى البقاع، والدّعاء والتضرّع، والاعتراف بالذّنوب، وتصوير الحزن على الميّت.

**أ-1. المقدّمة الغزليّــة:**

تعدّ المقدّمة الغزليّة أكثر المقدّمات استخداما في شعر أبي حمّو موسى، فقد وردت في سبع قصائد، ستّ منها في المولديّات فقط، وتكمن أهميّة هذا النّوع من المقدّمات، فيما تحدثه من أثر في النّفوس، ولأنّها كذلك تتيح للمبدع المناسبة للتّصريح بمكنون نفسه وفيض مشاعره.

والذي يعود إلى شعر أبي حمّو، يلاحظ توظيفها الواسع في شعر المولديّات، وذلك لأنّ الشّاعر يستخدم الحبيبة رمزا لمحبّة البقاع المقدّسة والشّوق إلى الرّسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم، كما استخدمها في شعر الفخر بقصيدة واحدة.

ومن النّماذج الغزليّة التي نستدلّ بها في هذا المقام، ما ورد في نونيّته المنتمية لشعر الفخر، حيث يستهلّ القصيدة بمقدّمة ضمّت سبعة وثلاثين بيتا من مجموع أربعة وخمسين، يقول(2):

كَتَمْتُ حُبِّي فَأَفْشَى الدَّمْعُ كِتْمَانِي ... وَ زَادَ شَوْقِي عَلَى قَيْسٍ وغِيلاَنِ
يَا جِيرَةَ الحَيِّ إنِّي قَدْ فُتِنْتُ بِكُمْ ... كَمْ تَهْجُرُونِي كَأَنِّي مُذْنِبٌ جَانِي
نَادَيْتُهُمْ ودُمُوعُ العَيْنِ هَامِيَةٌ ... بَأَيِّ ذَنْبٍ رَضِيتَ اليَوْمَ هِجْرَانِي

---

(1) **إبراهيم عبد الرّحمان.** من أصول الشّعر العربي القديم. الأغراض والموسيقى. (دراسة نصيّة). مجلّة فصول. العدد2. المجلّد 4. يناير. فبراير. مارس. 1984. ص26.

(2) **عبد الحميد حاجيات.** أبو حمّو موسى الزّياني. 312.

يَا فِتْنَةَ القَلْبِ كَمْ لِي فِي هَوَاكَ وكَمْ أَطَلْتَ هَجْرِي وحَالِي صَارَ ضِدَّانِ

المَاءُ والنَّارُ تَشْكُو مِنْ فِرَاقِكُمُ وَ حُبُّكُمْ قَدْ رَمَى قَلْبِي بِنِيـرَانِ

فالمعاني التي تضمّنتها هذه الأبيات تتعلّق بالمحبّ الولهان، حيث ركّز فيها أبو حمّو على إظهار وجده وفرط صبابته، فهو العاشق المعذّب بحبّ امرأة جافية، وهو لا يعرف لهذا الصدّ والهجران سببا.

أمّا بقيّة المقدّمات الغزليّة فقد وردت في المولديّات باعتبار ما ذكرناه سابقا من تناسب الغرض مع الموضوع الرّئيسي للقصيدة، ومن أمثلة ذلك، مقدّمة جاءت في واحد وعشرين بيتا من مجموع أربعين، يقول:

مُشَوَّقٌ تَزَيَّا بِالغَرَامِ وِشَـاحَا مَتَى مَا جَرَى ذِكْرُ الأَحِبَّةِ بَاحَـا

تُعَذِّبُهُ أَشْجَانُهُ وهُوَ صَابِـرٌ وَ يُبْدِي اشْتِيَاقًا زَفْرَةً ونُوَاحَـا

مُحِبٌّ مُشَوَّقٌ قَيَّدَتْهُ يَدُ الهَـوَى أَسِيرٌ لَدَيْكُمْ لاَ يُرِيدُ سَرَاحَـا

عَذَابِي صَلاَحٌ فِي رِضَاكُمْ فَإِنَّكُمْ رَأَيْتُمْ صُدُودِي فِي الغَرَامِ صَلاَحَا

رَمَيْتُمْ بِأَكْبَادِي سِهَامَ نَوَاكُمْ وَ أَوْدَعْتُمْ قَلْبِي أَسًى وجِرَاحَـا[1]

لقد استهلّ الشّاعر مقدّمته بوصف حاله، وما يعانيه من عذاب بسبب أشواقه وأشجانه، وما يعيشه من تأزّم نفسيّ تعكسه لوعته نتيجة سطوة الحبّ وتسلّط الحبيب وجوره، وهذا المحبّ ما هو إلاّ حبّ البقاع المقدّسة وحنين لقبر الرّسول عليه الصّلاة والسّلام، وما عذابه ذاك إلاّ لعجزه عن زيارة تلك البطاح الطّيبة، ولعلّ اختيار الشّاعر للغزل كمقدّمة إلاّ رغبة منه في استمالة المتلقّي «فللشّعراء مذاهب في افتتاح القصائد بالنّسيب لما فيه من عطف القلوب واستدعاء القبول بحسب ما في الطّباع من حبّ الغزل»[2].

ومن أكثر المقدّمات الغزليّة التي يظهر فيها جليّا، استخدام الحبيب الرّمز الذي يحيل على شخصيّة واحدة، واضحة ومحدّدة، ما افتتح به الشّاعر "يائيّته"، التي قدّم لها بثمانية وعشرين بيتا من مجموع أربعين، حيث قال[3]:

قِفَا بَيْنَ أَرْجَاءِ القِبَابِ وبِالحَـيِّ وَ حَيِّ دِيَارًا لِلْحَبِيبِ بِهَا حَـيُّ

---

[1] **يحي بن خلدون**. بغية الروّاد. 2: 97.

[2] **ابن رشيق**. العمدة. 2: 225.

[3] **عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 345.

وَ عَرِّجْ عَلَى نَجْدٍ وسَلْعٍ[1]ورَامَةٍ[2] وَ سَائِلْ فَدَتْكَ النَّفْسُ فِي الحَيِّ عَنْ مَيِّ
وَ قُلْ ذَلِكَ المُضْنَى المُعَذَّبُ بِالهَوَى يَمُوتُ ويَحْيَ فَارْثِ لِلْمَيِّتِ الحَيِّ
وَ بُثَّ لَهُمْ وَجْدِي وفَرْطَ صَبَابَتِي وَ رَوِّ حَدِيثِي فَهُوَ أَغْرَبُ مَرْوِيِّ
يُعَذِّبُنِي شَوْقِي ويُضْعِفُنِي الهَوَى وَ قَلْبِي عَلَى جَمْرٍ مِنَ الشَّوْقِ مَحْمِيِّ

إنّ أوّل ما يلفت الانتباه في المقطوعة السّابقة، كثرة الأسماء التي تمثّل أسماء لمناطق في الحجاز فما "القباب ونجد وسلع ورامة" إلاّ دليل على شخص هذا الحبيب، الذي أضنى الشّاعر شوقا وصبابة، وهو الرّسول صلّى الله عليه وسلّم وكلّ ما له علاقة بشخصه الكريم من أماكن مقدّسة أو ربوع طاهرة تشرّفت به يوما، وهذا هو الغزل المطلوب، فإنّ الغزل «الذي يُصَدَّرُ به المديح النّبويّ يتعيّن على النّاظم أن يحتشم فيه، ويتضاءل ويتشبّب مطربا بذكر سلع ورامة» [3].

### أ-2. المقدّمـة الطّلليّـة:

إلى جانب المقدّمة الغزليّة حضيت المقدّمة الطّلليّة بمكانة هامّة في شعر أبي حمّو، حيث وردت في خمس قصائد، وقد «كانت المقدّمة الطّلليّة أكثر المقدّمات التي افتتح بها الشّعراء في الجاهليّة وصدر الإسلام قصائدهم»[4]، وتبعا لهذه الأهميّة تبنّى الشّاعر هذه المقدّمة بصورة مكثّفة في شعره.

لقد توسّع استخدام الطّلل في الشّعر السّياسي والفخر، إذ بلغ نصيبهما منه أربع مقدّمات من أصل خمس، ومردّ هذا في نظرنا لتناسب الطّلل مع تلك الأغراض، خاصّة في شعر أبي حمّو، فقصائده تلك، كان ميلادها أثناء حركته التي قام بها لاسترجاع الملك الزّياني، لذلك فهو بحاجة دائمة لتذكّر تلمسان وربوعها والبكاء على ما حلّ بها من تخريب بسبب الحروب الدّائمة، وذلك باستخدام الرّمز، خاصّة وهو من تجرّع آلام الغربة والوحدة، ومن ثمّ، كان الطّلل هو الأنسب للتّعبير عن معاناته.

---

[1]**سلع:** جبل بسوق المدينة. أنظر: **الحموي**. معجم البلدان. 3: 236.

[2]**رامة:** هي منزل بينه وبين الرّمادة ليلة في طريق البصرة إلى مكّة. أنظر: **الحموي**. المصدر نفسه. 3: 18.

[3]**الحموي**. خزانة الأدب وغاية الأرب. مطبعة الخيريّة المصريّة. مصر. 1394هـ. ص11.

[4]**حسين عطوان**. مقدّمة القصيدة العربيّة في العصر الأموي. 35.

و للتّدليل على ما ذهبنا إليه، نورد أبياتا من الشّعر السّياسي، والتي ضمّت مقدّمتها ستّة عشر بيتا من أصل مئة وواحد، يقول[1]:

جَرَتْ دُمُوعِي بَيْنَ الرُّسُومِ الطَّوَاسِمِ  لِمَا شَحِطَتْهَا مِنْ هُبُوبِ الرَّوَاكِمِ
وَقَفْتُ بِهَا مُسْتَفْهِمًا لِخِطَابِهَا  وَ أَيُّ خِطَابٍ لِلصِّلاَدِ[2]الصَّلاَدِمِ
وَ سِرْتُ عَلَى جَوْنٍ أَقَبُّ مُضْمِرٍ  كَلَمْعَةِ بَرْقٍ أَوْ كَلَمْحَةِ صَارِمِ
وَ جُلْتُ بِطَرْفِ الطَّرْفِ فِي عَرَصَاتِهَا  كَجَوْلَةِ وَاهٍ أَوْ كَوَقْفَةِ هَائِمِ
وَ صَفَقَتْ مَا بَيْنَ الطُّلُولِ خَوَامِسٌ  وَ فَاضَتْ سَوَاقِي الدَّمْعِ مِثْلَ الأَرَاقِمِ [3]

يتّضح، أنّ الشّاعر حاول من خلال هذه الأبيات، أن يلمّ بالكثير من المضامين التي ردّدها الشّعراء القدامى من قبل، حيث بثّ صور الخراب الذي أصاب الدّيار، ووقف على أطلالها، ثمّ بكى على حالها، وحال محبّ أضناه الفراق.

ويقول في ذات المعنى في مقدّمة إحدى مولديّاته حَوَتْ ثلاثة عشر بيتا من مجموع تسعة وعشرين:

قِفَا خَبِّرَانِي عَنْ رُسُومٍ نَوَاهِجِ  وَ عَنْ مَعْلَمَاتٍ طَيِّبَاتِ الأَرَائِجِ
وَ عَنْ أَرْضِ نَجْدٍ والعَذِيبِ[4]وبَارِقٍ [5]  وَ لاَ تُخْبِرَانِي عَنْ ذَوَاتِ الدَّمَالِجِ
وَ جُوبَا الفَيَافِي والمَهَامَه واسْتَعِنْ  عَلَى قَطْعِ أَسْبَابِ النَّوَى بِاللَّوَاعِجِ[6][7]

والملاحظ، أنّ المقدّمة الطّلليّة هنا مختلفة بعض الشّيء عن المألوف، فالشّاعر لا يذكر من تلك المضامين المتوارثة في الطّلل إلاّ القليل، كوقوفه على الأطلال، وسؤاله عن الرّسوم، ويتخلّى عن باقي الصّور، ليعوّضها بما استحدثه في الصّورة الطّلليّة، حيث استبدل المعالم المقفرة والحزينة بمعالم طيّبة ومبهجة، واستبدل التّساؤل عن الحبيب ومواطنه،

---

[1] **أبو حمّو موسى الثّاني**. واسطة السّلوك في سياسة الملوك. 15.
[2] **الصّلاد**: جمع صلد: حجر صلد وصلود. أي: صلب أملس. أنظر: **ابن منظور**. لسان العرب. مادّة: (صلد).
[3] **الأراقم**: أخبث الحيّات وأطلبها للنّاس. أنظر: **ابن منظور**. المصدر نفسه. مادّة: (رقم).
[4] **العُذَيْبُ**: ماء لبني تميم. أنظر: **ابن منظور**. المصدر نفسه. مادّة: (عذب).
[5] **بارق**: موضع قريب من الكوفة. أنظر: **ابن منظور**. المصدر نفسه. مادّة: (برق).
[6] **اللاّعج**: الهوى المحرق. أنظر: **ابن منظور**. المصدر نفسه. مادّة: (لعج).
[7] **عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 375.

بالسّؤال عن نجد والعذيب وبارق، وعليه، فقد استطاع الشّاعر أن يطوّع الطّلل ويجدّده في الصّورة الطّليليّة، وذلك من أجل «تسخيرها في خدمة الموضوع الخاص بالقصيدة» [1].

كما مزج الشّاعر بين غرضين في مقدّمة واحدة، حيث يبدأ بنوع من المقدّمات، ثمّ يردفه بنوع آخر، وهذا يسمّى "بالمقدّمات المركّبة" ومن ذلك قوله في مقدّمة بلغ عدد أبياتها تسعة عشر بيتا من أصل خمسة وستّين:

قِفْ بِالمَنَازِلِ وَقْفَةَ المُتَرَدِّدِ مَا بَيْنَ نُؤْيٍ بِالطُّلُولِ ومَوْقِدِ
وَ إِذَا مَرَرْتَ عَلَى الرُّبُوعِ مُسَلِّمًا فَاسْأَلْ عَنِ القَلْبِ الغَرِيبِ المُفَرَّدِ [2]

ويواصل أبو حمّو أبياته الطّلليّة حتّى يمزجها بمقدّمة الظّعن قائلا[3]:

يَا سَائِقَ الأَظْعَانِ هَلْ لِي بَعْدَهُمْ مِنْ مُنْجِدٍ فِي حُبِّهِمْ أَوْ مُسْعِدِ
رَكِبُوا بُدُورًا فِي الخُدُودِ وأَدْلَجُوا فَسَأَلْتُ تَوْدِيعًا فَقُلْنَ إِلَى غَدِ

و من أمثلة المقدّمات المركّبة أيضا، قول الشّاعر في إحدى مولديّاته "المخمّسة"، مفتتحا بالغزل، في مقدّمة بلغت إثنتي عشرة بيتا من مجموع أربعين:

نَزَلْتُمْ مِنْ فُؤَادِي مَنْزِلاً حَسَنَا وَ كُلُّ مَا سَاءَنِي فِي حُبِّكُمْ حَسُنَا
بِنْتُمْ فَلَمْ أَتَّخِذْ بَعْدَكُمْ سَكَنَا وَ حُبُّكُمْ فِي صَمِيمِ القَلْبِ قَدْ سَكَنَا [4]
وَ بَعْدَكُمْ صَارَ عِنْدِي سَاعَةً بِسَنَا

إلى أن يمزج الغزل، بذكر الظعن والطّلل معا:

يَا حَادِي ظَعْنِهِمْ نَحْوَ الدِّيَارِ قِفَا نُنْشِدُ فُؤَادًا بِذَاكَ الحَيِّ قَدْ تَلِفَا
وَ سَائِلاً بِرُبَى نَجْدٍ لِمَنْ عَرَفَا قَوْلاً لَهُمْ ذَلِكَ المُشْتَاقُ قَدْ شَغُفَا [5]
وَ قَلْبُهُ بِأَلِيمِ الشَّوْقِ قَدْ طَعِنَا

**أ-3. مقدّمة الشّباب والشّيب:**

هي من أنواع المقدّمات التي تبنّاها أبو حمّو في شعره، حيث وردت في ثلاث قصائد مولديّة، تحدّث فيها الشّاعر عن نذير الشّيب الذي حلّ وافدا، كي يخبر عن اقتراب الأجل،

---

[1] **يوسف خليف مي**. القصيدة الجاهليّة في المفضليّات (دراسة موضوعيّة فنيّة) مكتبة غريب. مصر. 1989. ص164.
[2] **عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 327.
[3] **عبد الحميد حاجيات**. المصدر نفسه. 327.
[4] **عبد الحميد حاجيات**. المصدر نفسه. 348.
[5] **عبد الحميد حاجيات**. المصدر نفسه. 348.

لذلك كان عليه أن يراجع نفسه حول مرحلة ماضية من حياته، وهي مرحلة الشّباب، ثمّ النّدم على ما اقترفه من أخطاء.

يقول الشّاعر في إحدى تلك المقدّمات، وقد بلغت خمسة عشر بيتا من أصل تسعة وثلاثين:

هَوَيْنَا الظِّبَا وأَلِفْنَا الظُّبَـا[1] وَ كَمْ مِنْ فُؤَادٍ إِلَيْهَا صَبَـا
إِلَى أَنْ بَدَى الشَّيْبُ فِي مَفْرِقِـي وَ أَجْرَيْتُ مِنْ خَيْلِهِ أَشْهَبَا
فَأَيْقَظَنِي الشَّيْبُ مِنْ غَفْلَتِــي فَفِي لَمَّتِي مِنْ حَدِيثِي نَبَـا
وَ قَدْ عَادَ غَضُّ شَبَابِـي بِـهِ مَحِيلاً ولَوْنِي غَـدَا مُذْهَبَا
فَوَا أَسَفِي مِنْ ذُنُوبٍ مَضَـتْ تَقَضَّيْتُهَا فِي زَمَـانِ الصِّبَـا
وَ كَمْ لُمْتُ نَفْسِي فَمَا أَقْلَعَـتْ وَ عَاتَبْتُ قَلْبِي فَمَـا أَعْتَبَـا[2]

افتتح أبو حمّو قصيدته بالعودة إلى ماضيه، حين كان منغمسا في الملذّات، حتّى فاجأه الشّيب وأيقضه من غفلته، فذكّره بما أصابه من علامات الشّيخوخة، حينها تأسّف الشّاعر على طرق الضّلالة التي كان يسلكها، ولكن وبرغم ندمه ذاك، يدخل في صراع شديد مع نفس أمّارة بالسّوء، وقلب لم يخرج من دائرة الخطيئة.

و يقول أيضا[3]:

خَلِيلَيَّ قَدْ بَانَ الحَبِيبُ الذِي صَدَّا وَ قَدْ عَاقَنِي صَبْرِي فَلَمْ أَسْتَطِعْ رَدَّا
وَ سَالَتْ دُمُوعِي فَوْقَ خَدِّي هَوَامِلاً وَ قَدْ صَيَّرْتُ فَوْقَ الخُدُودِ خَـدًّا
قَدْ اِصْفَرَّ لَوْنِي بَعْدَ حُسْنِ شَبِيبَتِي كَمَا اِبْيَضَّ رَأْسِي بَعْدَمَا كَانَ مُسْوَدَّا
وَ تَزْرِي بِي الدُّنْيَا بِزُورِ غُرُورِهَا فَكَمْ نَقَضْتُ عَهْدًا وكَمْ نَثَرْتُ عِقْدَا
وَ هَذَا نَذِيرُ الشَّيْبِ لاَحَ بِمِفْرَقِي يُذَكِّرُنِي خَوْفًا ويُنْجِزُ لِي وَعْـدَا

تُظهر الأبيات السّابقة ندم الشّاعر على الأيّام الخوالي، مدركا لما ينتظره من عقاب كما أنّه يبكي شبابه المنقضي ويلوم نفسه لانسياقه وراء الدّنيا ومغرياتها، وقد بلغت هذه

[1] **الظُّبَا**: الظبّة: حدّ السّيف والسّنان والنّصل والخنجر وما أشبه ذلك. أنظر: **ابن منظور**. لسان العرب. مادّة: **(طوي)**.
[2] **عبد الحميد حاجيات**. أبو جمو موسى الثاني. 359.
[3] **يحي بن خلدون**. بغية الروّاد. 2: 224.

المقدّمة إحدى وعشرين بيتا من مجموع إحدى وثلاثين، وهي بذلك قد تجاوزت نصف القصيدة.

**أ-4. مقدّمات أخرى:**

إلى جانب المقدّمات التي سبق دراستها، والتي تعتبر أساسيّة بسبب حضورها الواسع في شعر أبي حمّو، هناك مقدّمات ثانويّة، والتي لم يكن وجودها كبيرا قياسا إلى الأغراض السّابقة، بل كان تواجدها بمعدّل مقدّمة واحدة لكلّ نوع، واشتملت هذه المقدّمات على الحكمة، والشوق إلى البقاع، إضافة إلى التّضرّع والدّعاء، والاعتراف بالذّنوب، وقد وردت في شعر المولديّات والشّعر السّياسي.

يقول أبو حمّو في مقدّمة الحكمة، وقد بلغت أربعة أبيات من أصل تسعة وخمسين:

السَّيْفُ أَجْدَرُ والخَطْيُ مِنْ خُطُبِ ... فِيهَا اللُّجَاجُ وقَوْلٌ غَيْرُ مُنْتَسِبِ

خَطُّ الكَتَائِبِ لاَ خَطُّ الكِتَابِ بِهَا ... جَلِيلَةُ الأَمْرِ عِنْدَ السُّمْرِ والقَضْبِ

وَ الحَقُّ فَرْضٌ عَلَى الإِنْسَانِ مُفْتَرَضٌ ... وَ الصِّدْقُ أَفْضَلُ مَا أَوْدَعْتَ فِي الكُتُبِ

وَ مَنْ غَدَا السَّيْفُ فِي كَفَّيْهِ عَارِيَةً ... فَكَيْفَ يُدْرِكُ مَا يَرْجُو مِنَ الأَرَبِ [1]

فالشّاعر يخلص إلى أنّ فصل الخطاب، لا يكون في الكتب بل في كتائب الجيش والسّيوف الجاهزة لإحقاق الحقّ، ومن كان خالي اليدين منها فلا أمل له في إدراك مآربه.

ويخامر نفس أبي حمّو حنين جارف لتلك الرّبوع الطيّبة، التي ضمّت الهدى والهدي، فلا يجد إلاّ أبيات الشّوق إلى البقاع ليعبّر بها، ويبثّ من خلالها أشواقه، يقول في إحدى مخمّستيه:

ذَرَفْتُ لِتِذْكَارِ العَقِيق ِ دُمُوعِـي ... وَ ازْدَادَ شَوْقِي لِلْحِمَى ووُلُوعِـي

وَ الحُبُّ شَبَّ أَوَارُهُ بِضُلُوعِـي ... مَنْ لِي بِشَمْلٍ بِالحِمَـى مَجْمُوعِ

وَ يُجِيرُ قَلْبًا بِالنَّوَى مَصْدُوعِ [2]

وقد بلغت مقدّمة الشّوق إلى البقاع المقدّسة أحدى عشر بيتا من مجموع ثلاثة وعشرين.

---

[1] **يحي بن خلدون.** بغية الروّاد. 2: 156.

[2] **عبد الحميد حاجيات.** أبو حمّو موسى الزّياني. 355.

ويتوجّه أبو حمّو إلى ربّه، يشكو حاله، طامعا في كرم خالقه وجزيل عطائه، كي يكشف ضرّه وينفّس عن كربته، بأبيات يفتتح بها إحدى مولديّاته، متضرّعا وداعيا، وقد بلغت ستة عشر بيتا من أصل إحدى وأربعين:

يَا مَنْ يُجِيبُ نِدَا المُضْطَرِّ في الدَّيَجِ ... وَ يَكْشِفُ الضُرَّ عِنْدَ الضِّيقِ والهَوَجِ[1]

وَ لُطْفُ رَحْمَتِهِ يَأْتِي عَلَى قَنَطٍ ... إِذَا القُنُوطُ دَعَا يَا أَزْمَةُ انْفَرِجِي

وَ مَنْ إِذَا حَلَّ الخَطْبُ وِاعْتَرَتْ نُوَبٌ ... أَبْدَى مِنَ اللُّطْفِ مَا لَمْ يَجْرِ فِي المُهَجِ

إِنِّي دَعَوْتُكَ جُنْحَ اللَّيْلِ يَا أَمَلِي ... دُعَاءَ مُبْتَهِلٍ بِالعَفْوِ مُنْتَهِجِ

يَا كَاشِفَ الضُرِّ عَنْ أَيُّوبَ حِينَ دَعَا ... قَدْ مَسَّنِي الضُرُّ فَاكْشِفْ كَرْبَ كُلِّ شَجِي

أَنْتَ المُنْجِي لِنُوحٍ فِي سَفِينَتِهِ ... وَ مُخْرِجُ يُونُسَا مِنْ ظُلْمَةِ اللُّجَجِ

يَا مَنْ وَقَى يُوسُفَ الصِّدِيقَ كُلَّ أَذَى ... لَمَّا رَمَوْهُ بِجُبٍّ ضَيِّقٍ حَرِجِ[2]

إضافة إلى ما تقدّم، بنى الشّاعر إحدى مقدّماته على الاعتراف بالذّنوب، موبّخا نفسه على أخطائها وتماديها في غيّها، في حين أنّ غيره يتّخذ إلى ربّه سبيل النّجاة، وقد بلغت أبيات هذه المقدّمة ثلاثة عشر بيتا من مجموع سبعة وثلاثين:

دَمْعٌ يَنْهَلُّ مِنَ المُقَلِ ... لِقَبِيحٍ كَانَ مِنَ العَمَلِ

وَ جَوًى فِي الصَّدْرِ لَهُ حُرُقٌ ... فَالقَلْبُ لِذَلِكَ فِي شُغُلِ

وَ نَهَيْتُ النَّفْسَ فَمَا ازْدَجَرَتْ ... وَ تَوَلَّى الصَّبْرُ فَمَا حِيَلِي

نَاسٌ رَكِبُوا التَّقْوَى ولَقَدْ ... رَكِبَتْ نَفْسِي طُرُقَ الزَّلَلِ[3]

كما استعمل أبو حمّو في مرثيّتيه، مقدّمة يصوّر فيها حزنه، ويشرح ما آل إليه حاله بعد فقدان والده، ونورد هذه الأبيات من إحديهما مثالا على ذلك، وقد بلغ عددها أحدى عشر بيتا من أصل أربعة وأربعين:

دَنِفٌ تَذَكَّرَ حَسْرَةَ التَّوْدِيعِ ... وَ هَنِيءَ وَصْلٍ بِالنَّوَى مَقْطُوعِ

وَ لَمَّا عَرَا مِنْ فَقْدِ خَيْرِ أَحِبَّتِي ... وَ مَرَارَةِ التَّوْدِيعِ والتَّشْيِيعِ

فَبَكَيْتُ مِنْ أَسَفٍ لِذَلِكَ كَمَا بَكَتْ ... حُزْنًا عَلَيْهِ مَنَازِلِي ورُبُوعِي[4]

---

[1] **الهوج:** كالهوك: الحمق. أنظر: **ابن منظور**. لسان العرب. مادّة: (هوج).

[2] **عبد الحميد حاجيات.** أبو حمّو موسى الثاني. 362.

[3] **أبو حمّو موسى الثّاني.** واسطة السّلوك في سياسة الملوك. 05.

[4] **عبد الحميد حاجيات.** أبو حمّو موسى الزّياني. 333.

فالشّاعر يصف وقع المصيبة عليه، وما ألمّ به من حزن بالغ أوهن الجسم وأثقل القلب، وجعل العين تسكب دمعا لا ينقطع.

وما ننتهي إليه، بعد هذه الدّراسة، أنّ" مقدّمات أبي حمّو جاءت متنوّعة، كما أنّها لم تخرج عن القالب القديم المعروف، وقد لاحظنا استخدام المقدّمات بنوعيها المركّب والبسيط، غير أنّ النّموذج البسيط صاحب الغرض الواحد كان الأكثر حضورا.

ولقد تصدّرت مقدّمة الغزل القائمة بسبع قصائد، وكان جلّ استخدامها في القصيدة المولديّة، وما خلصنا إليه أنّ غزل أبي حمّو كان غزلا معنويّا يخلو من الغزل الحسّي، ليتناسب مع غرض المولديّات، الذي تحصّل على أكبر عدد منها.

وتأتي المقدّمة الطّلليّة في المرتبة الثّانية بخمس قصائد، وأخيرا مقدّمة الشّباب والشّيب بثلاث قصائد، إضافة إلى بعض المقدّمات الثّانويّة، التي كانت بمعدّل نموذج واحد من كلّ نوع، كما سجّلنا اختلاف حجم المقدّمات من ناحية الطّول والقصر قياسا إلى الموضوع الرّئيسي، فهناك ما كانت أبياتها طويلة، فاقت أحيانا موضوع القصيدة حجما، وبالموازاة ضمّ شعر أبي حمّو مقدّمات قصيرة، كمقدّمة الحكمة، أمّا الغالب فهو تناسب المقدّمات مع حجم القصائد ككلّ.

كان هذا عن المقدّمة، والسّؤال المطروح هل وفّق الشّاعر في ربط مقدّماته بالموضوع الرّئيسي؟ وما هي وسيلته لتحقيق ذلك؟

**ب- التّخلــص:**

يمثّل التّخلص، جسرا يسلكه الشّاعر ليربط بين المقدّمة والموضوع الرّئيسي للقصيدة بكلّ ليونة وسهولة، من هنا جاءت أهميّة هذه اللّبنة التي تمكّن الشّعراء من الانتقال إلى اللّبنة الأكثر أهميّة في النّص الشّعري، وهي الموضوع الرّئيسي دون أن يقع خلل في انسجام الأبيات الشّعريّة، والتّخلص هو «الأبيات التي تخلص بها قائلوها إلى المعاني التي أرادوها من مديح أو هجاء أو افتخار أو غير ذلك، ولطفوا في صلة ما بعدها بها، فصارت غير منقطعة عنها»(1).

---

(1)**ابن طباطبا**. عيار الشّعر. تحقيق: طه الحاجري ومحمّد زغلول سلام. المكتبة التّجاريّة الكبرى. القاهرة. 1956. ص111.

ولقد أظهر أبو حمّو إجادة واضحة في استخدام التخلص المناسب، الذي يجمع بين لبنات القصيدة الواحدة، وسأحاول في هذا المقام تقديم بعض النّماذج التي تمثّل شعر أبي حمّو، وأبدأ بقوله[1]:

| | |
|---|---|
| مَنْ يُنْقِذُنِي مَنْ يُسْعِدُنِـي | مَنْ يَرْحَمُنِي مَنْ يَغْفِرُ لِـي |
| إلاَّ المَوْلَى، يُسْدِي الطَّوْلَـى | رَبِّي الأَعْلَى، شَافِي عِلَلِـي |
| مُنْشِي الرِّمَمِ، مُعْطِي القَسَمِ | بَارِي النِّسَمِ، مُحْـي الـدُّوَلِ |
| أَحْيَا وأَعَادَ قَبِيـلَ أَبِـي | مِنْ عَبْدِ الوَادِ أَولِي الأَسَـلِ |

يبدأ الشّاعر هذه القصيدة "الفخريّة" بمقدّمة "الاعتراف بالذّنوب"، إذ أبدى فيها ندمه على ما اقترفه من آثام، ثمّ ينقلنا بعد ذلك إلى غرض القصيدة، حيث يفتخر أبو حمّو بنفسه وبانبعاث دولة أسلافه من جديد، وقد جاءت هذه النّقلة في صورة ذكيّة وسلسة، وهذا هو ما اصطلح علي تسميته "حسن التّخلص"، وهو كما عرّفه صاحب "خزانة الأدب" «أن يستطرد الشّاعر المتمكّن من معنى إلى آخر (...) بتخلص سهل يختلسه اختلاسا رشيقا، دقيق المعنى، بحيث لا يشعر السّامع بالانتقال من المعن الأوّل إلا وقد وقع في الثّاني»[2].

ونصادف نفس البراعة ونفس التّوفيق، الذي يهيّئ المناخ للموضوع الرّئيسي، في أبياته التي ضمّنها "نونيّته" الفخريّة، حيث تخلص من المقدّمة الغزليّة بكلّ ليونة، محقّقا انسجاما كبيرا بين المعنى الأوّل، والمعنى الذي أراد أن يخلص إليه، وهو الافتخار بشجاعته في الحرب، وقدرته على قيادة الدّول، يقول[3]:

| | |
|---|---|
| يَا لاَئِمِي فِي هَوَى الغُزْلاَنِ لاَ تَلُمْنِ | فَمَا خَلاَ مِنْ هَوَاهُمْ قَلْبُ إِنْسَـانِ |
| وَ هَذِهِ صِفَتِي يَا عَاذِلِي وكَفَـى | إِنَّ المُلاَمَ قَدْ أَعْيَاكَ وأَعْيَانِـي |
| وَ لاَ جَعَلْتُ بَنَاتَ الحَيِّ مِنْ شُغْلِي | حَتَّى شَغُفْتُ بِقَدِّ البِيضِ والـزَّانِ |
| وَ قَدْ أَلِفْتُ مِنَ الهَيْجَاءِ عَاطِلَةً | تَشُبُّ يَوْمَ الوَغَى والحَرْبُ نِيرَانِ |

---

[1] **عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 310.

[2] **الحموي**. خزانة الأدب وغاية الأرب. 149.

[3] **عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسالزّياني. 315.

وقد حدث التّخلص في البيت الثّالث، حيث ربط الشّاعر بكلّ إتقان بين عشق النّساء (وهو موضوع المقدّمة) وعشق السّيف وآلات الحرب، ليفسح المجال فيما بعد للافتخار والاعتزاز بنفسه.

وإذا توجّهنا إلى المولديّات، نجد أبا حمّو قد نوّع في عنصر التّخلص بها، وذلك لطبيعة هذا النّموذج من المدح وخصوصيّته.

ومن المعروف أنّ الرّحلة في القصيدة الجاهليّة كانت وسيلة التّخلص، أمّا في القصيدة المولديّة الأمر يختلف نوعا ما، فالشّائع في المولديّات أن يتخلّص الشّاعر بوصف رحلة الحجيج وركبهم، وما يتحمّله هذا الرّكب من مصاعب في سبيل زيارة تلك الرّبوع الطّاهرة، لما تمثّله من خصوصيّة للإنسان المسلم، خاصّة الحنين لزيارة قبر الرّسول عليه الصّلاة والسّلام، إلى جانب سبل أخرى قد يسلكها الشّعراء، للوصول إلى غرض القصيدة كالدّعاء والتّضرّع، والنّدم على ما قد انصرم من العمر في المعصية والآثام.

و من نماذج التّخلص برحلة الحجيج، نورد ما يلي:

قَلْبِي اِنْفَطَرَا والدَّمْعُ جَـرَى ... وَ الرَّكْبُ سَرَى نَحْوَ العَلَـمِ
قَلْبِي بِنَوَاهُ أَسِيرُ هَـوَاهْ ... فَيَا شَوْقَاهُ إِلَـى الخِيَّـمِ
سَرَتْ الإِبِلُ لَمَّا اِرْتَحَلُوا ... قَلْبِي حَمَلُوا فِـي رَكْبِهِـمُ
حَمَلُوا خَلَدِي أَفْنُـوا جِلْدِي ... تَرَكُوا جَسَدِي رَهْنَ السَّقَـمِ
حَطَّ العُشَّـاقُ رَكَائِبَهُـمْ ... بَيْنَ العَلَمَيْـنِ والحَـرَمِ
وَ غَدَا المُشْتَـاقُ بِزَفْرَتِـهِ ... فِي مَغْرِبِهِ يَبْكِـي بِـدَمِ
قَدْ قَيَّدَنِي مَـا قَلَّدَنِــي ... مِنْ أَمْرِ حَكِيمٍ ذِي حِكَـمِ[1]

يظهر جليّا، تتبّع الشّاعر لركب الحجيج، ووصفه للأماكن التي حطّ فيها، إضافة لتصويره تلك المشاعر والأشواق التي تعتريه، وكذلك حزنه الشّديد لعجزه أن يكون أحد أفراد الرّكب، وذلك بسبب مسؤوليّات الحكم والإمارة.

و قد يكون التّخلص في صورة دعاء واعتراف بالذّنوب ومن أمثلة ذلك قوله في مولديّة ثانية:

رُحْمَاكَ يَا رَبِّ إِنَّ الذَّنْبَ مِنْ قِبَلِي ... فَوَفِّق ِ العَبْدَ لِلإِخْلاَصِ فِي العَمَلِ

[1] **أبو حمّو موسى الثّاني**. واسطة السّلوك في سياسة الملوك. 11.

وَ هَبْ لَهُ فَرَجًا يَأْتِي عَلَى عَجَلٍ    بِحَقِّ أَحْمَدَ خَيْرِ الخَلْقِ والرُّسُلِ
مَنْ فِي غَدٍ مِنْ عَظِيمِ الذَّنْبِ يُنْقِذُنَا[1]

نلاحظ، قدرة الشّاعر على الرّبط بين فكرة الدّعاء والتّضرّع لله تعالى والموضوع المنشود، وهو المديح النّبوي، وهذا لا يتأتّى إلاّ لشاعر مُتْقِنْ.

و يقول الشّاعر في مولديّته "الجيميّة"[2]:

وَ إِنْ جِئْتَ أَرْضًا بِالحِجَازِ عَرَفْتَهَا    فَشُقَّ ثَرَاهَا بِالدُّمُوعِ المَوَارِجِ
وَ قَضِّ مَنَاسِكَ الحِجَازِ بِأَسْرِهَا    وَ زُرْ زَوْرَةً تَقْضِ جَمِيعَ الحَوَائِجِ
وَ شُدَّ القِوَى مِنْ مَتْنِ ضَامِرَةْ الحَشَى    لِخَيْرِ شَفِيعٍ خَصَّصَتْهُ المَعَارِجُ

نفس السّهولة والسّلاسة، التي لمسناها عند أبي حمّو في النّماذج السّابقة، نجدها في هذه الأبيات، حيث استطاع أن يعبر بالمتلقّي، من مقدّمة طلليّة تحمل العديد من الرّموز، التي تؤكّد على أنّ الدّيار المقصودة هي الحجاز وما حوته من بقاع مقدّسة، ليضعه أمام موضوع القصيدة الرّئيسي وهو مدح الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، وذكر معجزاته، وذلك باستخدام تخلص لطيف ضمّنه أشواقه وحنينه، إلى جانب رغبته الشديدة في زيارة أرض الحجاز، مختتما أبياته، بتلميح واضح لغرض القصيدة الأساسي.

وما خلصنا إليه، من خلال – ما تقدّم– أنّ أبا حمّو امتلك الوسائل الفنيّة، والحسّ الشّعريّ، والأدوات اللّغويّة، التي مكّنته من استخدام، وتوظيف لبنة التّخلص بصورة موفّقة جدّا، حيث جعلها في خدمة مواضيع قصائده الرّئيسيّة، فربط بذلك أهمّ جزأين في الصّرح الشّعري: المقدّمة والموضوع الرّئيسي بكلّ براعة وإتقان.

**ج– الموضوع الرّئيسي:**

يمثّل الموضوع الرّئيسي غرض القصيدة الأساسي، والسّبب المباشر في خروجها إلى النّور، لأنّ الأغراض الأخرى التي تتضمّنها القصيدة، ما هي إلاّ تمهيدات له، ولذلك تأخذ القصيدة اسمها منه، لا من الأغراض الأخرى، فنقول قصيدة فخر أو هجاء، أو رثاء إلى غير ذلك من الأنواع.

---

[1] **عبد الحميد حاجيات.** المصدر السابق. 376.

[2] **عبد الحميد حاجيات.** أبو حمّو موسى الثّاني. 350.

ويعدّ هذا الجزء، اللّبنة الأم التي ترتبط بها اللّبنات الأخرى من مقدّمة وتخلص، وخاتمة في آخر المطاف، وكأنّ هذه الأجزاء وجدت فقط من أجل هذا العنصر، وهو بذلك يمثل محور القصيدة الذي تدور حوله باقي العناصر، مكوّنين في النّهاية بناء متماسكا ومتكاملا.

ولقد تعرّفنا، في الفصل الثّاني من هذا البحث، على الأغراض التي تناولها أبو حمّو، وقد كانت الدّراسة تدور، حول معانيها ومضامين أفكارها، ومدى التزامها بالقالب الشّعري القديم.

أمّا في هذا المقام فسنحاول التّركيز أكثر على بنية هذا العنصر الهام وحجمه، عند أبي حمّو.

ونبدأ بالشّعر السّياسي[1]، الذي جاء في ثلاث قصائد، اثنتان منه في الأحداث التّاريخيّة ووصف المعارك، وواحدة في شعر الوعد والوعيد، وإذا تفحّصنا هذا اللّون نجد أنّ الشّاعر لم يأت بجديد، بل سار على نفس النّهج الذي رسمه الشّعراء الأوائل، ففي شعر الأحداث التّاريخيّة قام الشّاعر، بتصوير المعارك التي خاضها في سبيل استرجاع ملك تلمسان، وركّز على تصوير المشاهد الدّامية، والإشادة ببطولاته وشجاعة أتباعه من القبائل الموالية له.

يقول في بعض الأبيات:

جَبَدْنَا مَجَابِيدًا وجَدَّتْ جِيَادُهَا ... وَ جَالَتْ كَمَا العُقْبَانِ بَيْنَ السَّقَاهِمِ

وَ ضُمْرٌ عَنَاجِيجٌ [2] عَلَى صَهَوَاتِهَا ... كِرَامٌ سِمَاحٌ بِالنُّفُوسِ الكَرَائِـمِ

نُطَارِدُ فِيهَا الخَيْلَ بِالخَيْلِ مِثْلَهَا ... فَكَانَ عَلَى الأَعْدَاءِ كَرُّ الهَزَائِـمِ[3]

هذه الأبيات من قصيدته الأولى، وقد بلغ عدد أبياتها مئة وثلاثة بيتا، كان نصيب موضوع القصيدة الرّئيسي سبعة وثمانين بيتا، لم تخرج عن مميّزات هذا الشّعر، حيث شرح فيه أبو حمّو المراحل التي قطعها، والمعارك التي خاضها في سبيل الحصول على الملك، حتّى حصل على تلمسان، عندها أورد أبياتا في الفخر، يشيد فيها بقوّته التي أذاعت صيته،

[1] أنظر: هذا البحث. ص57 وما بعدها.

[2] **عناجيج**: جمع: العنجوج: الرّائع من الخيل وقيل: الجواد. أنظر: **ابن منظور**. لسان العرب. مادة: (عنج).

[3] **أبو حمّو موسى الثّاني**. واسطة السّلوك في سياسة الملوك. 17.

وأخضعت له الملوك وسادة الأقوام، كما أنّه تغنّى بقدرته على تنظيم الملك، وتسيير شؤون الدّولة، يقول في ذلك[1]:

نَظَمْنَا شَتِيتَ المُلْكِ بَعْدَ اِفْتِرَاقِـهِ          وَ كَمْ بَاتَ نَهْبًا شَمْلُهُ دُونَ نَاظِـمِ
شَدَدْنَا لَهُ أَزْرًا وشِدْنَا بِنَـاءَهُ          بِأَوْثَقِ أَرْكَانٍ وأَقْوَى دَعَائِـمِ
فَصَارَتْ مُلُوكُ الأَرْضِ تَأْتِي مُطِيعَةً          إِلَى بَابِنَا تَبْغِي إِلْتِمَاسَ المَكَارِمِ
وَ جَاءَتْ لَنَا مِنْ كُلِّ أَوْبٍ ووِجْهَةٍ          تُبَايِعُنَا طَوْعًا وُفُودُ العَمَائِـمِ

ولم تختلف، قصيدته الثّانية في شعر وصف المعارك عن أختها، حيث صوّر فيها الشّاعر معركته، التي خاضها ضدّ بني مرين، تلك التي خسر فيها عسكريّا وسياسيّا، حيث ترتّب عنها الاستيلاء على ملكه، ممّا ألزمه مغادرة تلمسان نجاة بنفسه، والتوجّه نحو الصّحراء، وقد جاءت هذه القصيدة في خمسة وستّين بيتا، كان حظّ الموضوع الرّئيسي فيها ستّة وأربعين بيتا، يقول في بعض أبياتها:

نِلْنَا الذِي شِئْنَا بِدَهْرٍ طَائِـلِ          مِنْ أَنْعُمٍ دَامَتْ بِرُغْمِ الحُسَّـدِ
حَتَّى إِذَا شَهَرَ الزَّمَانُ سِلاَحَـهُ          بِيَدِ العِدَى مِنْ أَسْمَرٍ ومُهَنَّـدِ
وَ رَمَى سِهَامًا لِلْفُرَاقِ  كَأَنَّمَـا          كَانَتْ لِشَتِّ جَمِيعِنَا بِالمِرْصَـدِ
وَ أَرَى بُرُوقَ القَضْبِ فِي لَيْلِ الوَغَى          ذَهَبَتْ بِأَبْصَارِ العُلَى والسُّؤْدُدِ
وَ الخَيْلُ تَعْثُرُ فِي طَلَى صَرَعَائِهَا          مَا بَيْنَ مُضْطَجِعٍ وبَيْنَ مُوَسَّـدِ[2]

والشّيء الملاحظ، أنّ الموضوع الرّئيسي في القصيدتين يمتاز بأبياته الطّويلة، ولعلّ سبب ذلك، صدق عاطفة الشّاعر، فهو يعني كلّ حرف، ويستشعر كلّ كلمة، ولأنّ الموضوع هو محور حياته، التي كانت في عمومها سلسلة من المعارك المتواصلة، تدور كلّها حول ملك تلمسان.

ونعثر على نفس الميزة، في شعر الوعد والوعيد[3]، حيث بلغت أبيات الموضوع الرّئيسي أربعة وخمسين، وقد اكتفى فيها الشّاعر بأربعة أبيات في الحكمة كمقدّمة، توعّد فيها

---

[1] **عبد الحميد حاجيات.** أبو حمّو موسى الزّياني. 307.
[2] **عبد الحميد حاجيات.** المصدر نفسه. 328.
[3] أنظر: هذا البحث. ص63 وما بعدها.

أبو حمّو، الوزير عمر بن عبد الله اليباني، بأن يلحق به شرّ الهزائم، ونعته فيها بصفات الجبن، والخيانة، ولم تخل هذه القصيدة من وصف المعركة التي دارت بينه وبين خصمه.

وإذا توجّهنا إلى شعر الفخر[1]، نجد الشّاعر لم يحد عن خصائص هذا اللّون الشّعري، إذ ضمّنه الفخر بنفسه، لما حازه من مكارم وما ارتقى إليه في ميدان السّياسة، إضافة إلى ما حقّقه من انتصارات في ساحات الوغى، وقد كان حجم الموضوع فيها متفاوتا من قصيدة إلى أخرى.

فإذا عدنا إلى لاميّته الأولى، نجد الشّاعر يسوّي تقريبا بين المقدّمة الطّلليّة والموضوع الرّئيسي، حيث بلغت أبيات المقدّمة ثلاثة وعشرين بيتا، مقابل اثنتين وعشرين بيتا للفخر يقول في بعض أبياتها[2]:

مُوسَى الهُمَامُ ابْنُ السُّرَاةِ ذَوِي العُلَى          مَنْ قَدْ رَقِيَ فِي العِزِّ أَعْلَى مَعْقِلِ
لاَ بُدَّ مِنْ طَيِّ السَّرَى لِبِلاَدِهِمْ          مِنْ فَوْق ◦ صِهَّالٍ أَغَرٍّ مُحَجَّلِ
وَ أَسِيرُ فِي إِعْلاَئِهِ مُتَبَخْتِرًا          مُتَوَشِّحًا مُتَقَلِّدًا فِي جَحْفَلِ

ولعلّ سبب هذه التّسوية، شوق الشّاعر الشّديد لتلمسان وربوعها، إذ اتّخذ المقدّمة الطّلليّة وسيلة يبثّ من خلالها حنينه، في فترة كان يعاني فيها آلام الغربة في تونس قبيل قيامه بحركة إحياء الدّولة الزّيانيّة[3].

وكذلك، كان حال "نونيّته"، التي قدّم لها بأبيات غزليّة بلغت سبعة وثلاثين بيتا، واكتفى بخمسة عشر بيتا للفخر، والسّبب هذه المرّة، انسياب مشاعر أبي حمّو وهو يتغزّل بامرأة فتنته وقيّدته بسحرها ترمز إلى الحبيبة تلمسان.

يقول في بعضها[4]:

نَعَمْ ولاَ بُدَّ لِي مِنْ أَخْذِ أَرْضِهِمْ          بِالمُرْهَفَاتِ وجُرْدٍ تَحْتَ عُقْبَانِ
حَتَّى أُرَوِّي سُيُوفِي مِنْ دِمَائِهِمْ          رَيَّ الحَجِيجِ إِذَا حَلَّتْ بِحِسْيَانِ
وَ تَسْقُطُ الهَامُ والأَلْبَابُ طَائِشَةً          وَ الخَيْلُ عَارِيَةٌ مِنْ غَيْرِ فُرْسَانِ

---

[1] أنظر: هذا البحث. ص66 وما بعدها.
[2] **عبد الحميد حاجيات.** أبو حمّو موسى الزّياني. ص297.
[3] أنظر: **عبد الحميد حاجيات.** المصدر نفسه. ص295.
[4] **عبد الحميد حاجيات.** المصدر نفسه. 315-316.

أمّا فخريّاته المتبقيّة وعددها قصيدتان[1]، اتّخذ فيهما منهجا مغايرا، حيث جعل مساحة الموضوع الرّئيسي في القصيدة أوسع، فإذا تأمّلنا لاميّته الثّانية وجدنا الفخر يشمل أربعة وعشرين بيتا، مقابل ثلاثة عشر للمقدّمة، لم يخرج موضوعها عن فخر الشّاعر بما حازه من مكارم الأخلاق وبسالة في القتال.

و يقول في بعض أبيات "لاميّته"[2]:

وَ أُنِيلُ القَاصِدَ حَاجَتَــهُ    وَ أُنِيلُ المَالَ بِـلاَ مَلَـلِ
وَ أَنَا لِلْحَرْبِ كَعَنْتَـرِهَا    وَ أَنَا لِلسِّلْمِ أَخُو جَـدَلِ
خَيْلِي لِلْخَيْرِ مُلَجَّمَــةُ    وَ كَذَا لِلْحَرْبِ ولاَ تَسَـلِ

ويبقى موضوع "ميميّته" هو الأطول بين فخريّاته، حيث ضمّ خمسا وأربعين بيتا شعريّا، وخصّ فيها المقدّمة بخمسة عشر بيتا فقط، أمّا موضوعها فهو شبيه بأخواتها؛ افتخار بالأخلاق والشّجاعة، إضافة إلى فخره بحماية "السّبيع" الذي قصده مستجيرا، يقول في بعضها[3]:

وَ نَنْصُرُ مَظْلُومًا ونَمْنَعُ ظَالِمًـا    إِذَا شِيكَ مَظْلُومٌ بِشَوْكَةِ ظَالِـمِ
وَ يَأْوِي إِلَيْنَا المُسْتَجِيرُ ويَلْتَجِي    وَ يَحْمِيهِ مِنَّا كُلُّ لَيْثٍ ضُبَـارِمِ
أَلَمْ تَرَ إِذْ جَاءَ السُّبَيْعُ قَاصِـدًا    إِلَى بَابِنَا يَبْغِي إِلْتِمَاسَ المَكَـارِمِ

هذا عن الفخر، أمّا قصيدتي الرّثاء[4]، فقد بدأهما الشّاعر بمقدّمة يصف فيها حاله بعد موت أبيه، وما لحقه من ألم وحرقة جرّاء هذه المصيبة، ففي مرثيّته الأولى، جعل أبو حمّو أبيات الموضوع الرّئيسي فيها ثلاثة وثلاثين بيتا من مجموع أربعة وأربعين، جاءت على شاكلة مرثيّات الشّعراء الأوائل، حيث صوّر فيها حزنه، ومناقب الفقيد، من مكارم الأخلاق والبسالة في الحروب، يقول في بعض أبياتها[5]:

تَرَكَ الجَمَيعَ وصَارَ عَنْ أَحْبَابِـهِ    لَمْ يُغْنِ مَا قَدْ ضَمَّ مِنْ مَجْمُـوعِ
لَوْ كَانَ يُعْرَضُ لِلْفِدَاءِ فَدَيْتُـهُ    بِالدُّرِّ ثُمَّ بِعَجْسَدٍ مَطْبُـوعِ

---

[1]أنظر: **عبد الحميد حاجيات.** أبو حمّو موسى الزّياني. ص309. 317.

[2]**عبد الحميد حاجيات.** المصدر السّابق. ص311.

[3]**عبد الحميد حاجيات.** المصدر السّابق. ص319.

[4]أنظر: هذا البحث. ص72 وما بعدها.

[5]**يحي بن خلدون.** بغية الرّوّاد. 2: 106.

وَ بِمَا مَلَكْتُ ونَاظِرِي وحَشَاشِـي     وَ بِمُهْجَتِي وبِقَلْبِي المَصْدُوعِ

وبلـغ عدد أبيات الرّثـاء في القصـيدة الثّانيـة ثمانيـة وعشرين بيتـا، مقابـل تسـعة أبيـات للمقدّمـة، جاءت شبيهة في عناصرها بأختها، قد دعا فيها إلى جانب ما تقدّم بالسّقاية لقبر الفقيد، يقول في بعضها:

يَا قَبْرَ يُوسُفَ لاَ تَهْدُوكَ هَامِيَـةٌ     مِنَ الغَمَامِ ولاَ زَالَ الثَّرَى رَعِفَا
يَا دَهْرُ كَمْ لَكَ فِي الأَحْبَابِ تُفْجِعُنِي     وَ هَكَذَا الدَّهْرُ مَا أَوْفَى ولاَ نَصَفَا
فَرَّقْتَنَا بَعْدَمَا كُنْتَ تَجْمَعُنَـا     وَ قَدْ نَثَرْتَ نِظَامًا إِذْ وَهِيَ الصُّدَفَا[1]

وبانتقالنا إلى المولديّات، نجد اختلافا في مضمون القصائد وبنائها، كما نلاحظ تباينا في حجم الغرض الرّئيسي فيها، فمن المعروف أنّ موضوع المولديّات، يتضمّن مدح الرّسول عليه الصّلاة والسّلام، وتعداد خصاله، وذكر معجزاته، والإشادة بليلة ميلاده، والاعتراف بالعجز عن الإحاطة بمدحه، والشّوق والحنين إلى البقاع المقدّسة، وهذه المحاور قد تجتمع في قصيدة واحدة مع الاختلاف في التّرتيب، وقد يكتفي الشّاعر بذكر بعضها.

ومن النّماذج التي نستدلّ بها، قول أبي حمّو في إحدى مولديّاته[2]:

زَارُوا الهَادِي بِهَوَى بَـادِي     وَ حَدَا الحَادِي عَزْمًا بِهِـمُ
شَدُّوا عَزَمُوا فَازُوا غَنِمُـوا     لَمَّا قَدِمُوا لِحِمَـى الحَـرَمِ
طَافُوا بِالبَيْتِ وقَدْ وَقَفُـوا     وَ دَعُوا إِذْ ذَاكَ لِرَبِّهِـمُ
غُفِرَتْ بِالبَيْتِ ذُنُوبُهُـمُ     عِنْدَ الإِقْرَارِ بِذَنْبِهِـمُ

إلى أن يقول:

وَ بَعَثْتُ رِسَالَـةَ مُكْتَئِـبِ     لِشَفِيعِ العَرَبِ مَعَ العَجَـمِ
أَرْجُو فِي الحَشْرِ جَوَازَتَهَـا     مِنْ خَيْرٍ وفِـيٍّ بِالذِّمَـمِ
نَدَمِي إِنْ لَمْ أُعْمِلْ قَدَمِـي     عِوَضَ القِرْطَاسِ أَوْ القَلَـمِ

بلغت أبيـات الموضـوع الرّئيسـي فـي هذه القصـيدة إحدى وعشرين بيتـا، من مجموع ثلاثة وأربعين، ونلاحظ أنّ موضوع هذه المولديّة، كان يدور حول وصف رحلة الحجيج، وتصوير الشّاعر لأشواقه ورغبته الشّديدة في زيارة البقاع المقدّسة، أمّا مدح الرّسول صلّى

---

[1] **عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 337-338.
[2] **يحي بن خلدون**. بغية الروّاد. 2: 43.

الله عليه وسلّم، فقد ورد في ثلاثة أبيات فقط، ذكر فيها الشّاعر، صفة واحدة من صفاته عليه السّلام وهي الشّفاعة.

وإذا عرّجنا إلى مولديّة أخرى، نجد الشّاعر قد حرص على تعداد بعض مناقب الرّسول الكريم، كما أشاد بليلة مولده، لكنّه خصّ موضوع القصيدة بتسعة أبيات فقط، يقول في صفاته صلّى الله عليه وسلّم [1]:

وَ مَا أَرْتَجِي إلاَّ شَفَاعَةَ خَيْرَ مَنْ      أَتَى بِالهُدَى بِهَدْيٍ لِدِينٍ حَنِيفِـيٍّ

بِهِ يَرتَجِي العَاصُونَ غُفْرَانَ ذَنْبِهِمْ      وَ مَا عَمِلُوا فِي الدَّهْرِ مِنْ عَمَلٍ سَيٍّ

ثمّ يردف الشّاعر في ذكر شرف يوم ميلاده صلّى الله عليه وسلّم:

فَمَوْلِدُهُ قَدْ أَشْرَقَ الكَوْنَ كُلَّـهُ      وَ كُلُّ سَنَى شَمْسٍ وبَدْرٍ ودُرِيٍّ

كما استطاع أبو حمّو، أن يجمع جلّ محاور القصيدة المولديّة في إحدى قصائده، مع اختلاف في التّرتيب، وقد ضمّت أربعين بيتا من أصل ستّين، حيث بدأ موضوعها الرّئيسي بذكر أشواقه وحنينه للبقاع المقدّسة، يقول[2]:

إِذَا هَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ طَيْبَـةَ      تَعَطَّرَتِ الأَرْضُ مِسْكًا وطِيبَـا

فَأَصْبُوا إِلَيْهَا ومِنْ أَجْلِهَـا      أُحِبُّ الصِّبَا وأُحِبُّ الجَنُوبَـا

تَهُبُّ النَّوَاسِمُ مِنْ أَرْضِهَـا      فَيَزْدَادُ نَارُ اِشْتِيَاقِي لَهِيبَـا

ثمّ يواصل أبياته ذاكرا فضل يوم ميلاده صلّى الله عليه وسلّم، يقول:

فَأَكْرِمْ بِشَهْرٍ حَوَى كُلَّ فَخْـرٍ      بِمِيلاَدِ بَدْرٍ بَدَا لَنْ يَغِيبَـا

أَجَلُّ شَفِيعٍ مَكِينٍ رَفِيـعِ      أَتَى فِي رَبِيعٍ فَأَحْيَا القُلُوبَـا

ويسترسل، واصفا ركب الحجيج، فيقول:

حَدُوا بِالنِّيَاقِ فَزَادَ اشْتِيَاقِـي      وَ سَالَتْ سَوَاقِي دُمُوعِي صَبِيبَـا

إلى أن يقول:

وَزَمُّوا الحُمُولَ وأَمُّوا الرَّسُولَ      فَجَابُوا السُّهُولَ مَعًا والشُّعُوبَـا

ويصل إلى ذكر جملة من خصال الرّسول صلّى الله عليه وسلّم فيقول:

نَبِيٌّ أَتَى رَحْمَـةً لِلْعِبَـادِ      فَمَحَّى ومَحَّصَ عَنَّا الذُّنُوبَـا

---

[1] **عبد الحميد حاجيات.** أبو حمّو موسى الزّياني. 346-347.

[2] **عبد الحميد حاجيات.** المصدر نفسه. 367-368.

وَ سَنَّ الشَّرِيعَـةَ لِلْمُؤْمِنِيـنَ     وَ شَنَّ عَلَى الكَافِرِينَ الحُرُوبَـا [1]

و أخيرا، يعدّد بعض معجزات الرّسول الكريم، فيقول[2]:

وَ حَنَّ لَهُ الجِذْعُ مُسْتَأْنِسًـا[3]     وَ أَبْدَى إِلَيْهِ الأَسَى والتَّحِيبَـا
دَعَا بِالعِبَادِ لِسُقْيَ البِــلَادِ     فَأَخْصَبَ مَا كَانَ مِنْهَا حَدِيبَـا
وَ شُقَّ لَهُ البَدْرُ عِنْدَ التَّمَــامِ[4]     وَ كَلَّمَهُ الظَّبْيُ يَشْكُو الخُطُوبَـا[5]

وقد لاحظنا، ضمن مولديّات أبي حمّو، قصيدة تخلو من أيّ إشارة لموضوع الغرض، ولا يوحي أنّها مولوديّه، إلاّ مناسبة ظهورها، حيث قيلت في مولد (770هـ) [6]، وهي تحتوي على ثلاثة عشر بيتا، إضافة إلى مقدّمة غزليّة في أربعة عشر بيتا، وخاتمة في ثلاثة أبيات، وقد جاءت في شكل حوار مع الدّهر، وتضمّنت جملة من الحكم، ولعلّها، تعكس الحالة النّفسيّة للشّاعر، وما يثقل قلبه ويشغل باله من أمور الحكم والسّياسة، حيث لم يجد إلاّ قصيدة المولديّات، لينفّس عن أحزانه، لذلك جاءت على هذه الصّورة، ويقول في بعض أبياتها[7]:

لَقَدْ كُنْتُ والدَّهْرُ لِي مُسْعِـدٌ     فَأَغْضَبَنِي لَيْتَ مَا أَغْضَبَـا
فَمَا بَالُهُ اليَوْمَ مُحْلَوْلَكَـا     وَ مَا زِلْتُ أَعْهَـدُهُ مُذْهِبَـا

إلى أن يقول:

فَلاَ دَرُّ دَرِّكَ يَا دَهْرُ قُـلْ     أَيَرْجِعُ مِنْكَ الذِي قَدْ نَبَـا
فَقَالَ مُجِيبًا أَلَسْتُ الـذِي     عَلَى الرَّغْمِ فَرَّقْتُ آلَ سَبَـا
وَ أَرْزَأْتُهُمْ كُلَّ مَـا مَلَكُـوا     وَ أَضْحَتْ مَعَاهِدُهُمْ سَبْسَبَـا

---

(1) **عبد الحميد حاجيات.** المصدر السابق . 369.

(2) **عبد الحميد حاجيات.** المصدر نفسه. 369.

(3) عن حادثة حنين الجذع. أنظر: **ابن سيّد النّاس.** عيون الأثر. تحقيق: **لجنة إحياء التّراث العربي.** دار الآفاق الجديدة. بيروت. لبنان. ط3. 1982. ص289.

(4) عن حادثة شقّ القمر. أنظر: **الإمام النّووي.** صحيح مسلم. تحقيق: **مأمون شيحا.** دار المعرفة. لبنان. ط3. 1996. ج17.ص143.

(5) عن حادثة تكليم الظّبي. أنظر: **الماوردي.** أعلام النّبوّة. دار الفرجاني. القاهرة. 1985. ص94-95.

(6) **عبد الحميد حاجيات.** أبو حمّو موسى الزّياني. 379.

(7) **يحي بن خلدون.** بغية الروّاد. 2: 209.

ومجمل القول، أنّ الموضوع الرّئيسي لم يخرج عن المعهود، في مضامين الأغراض التي قيل فيها، إلاّ فيما أثبتناه عن قصيدة المولديّات الأخيرة، وقد تباين حجمه طولا وقصرا، حسب كلّ غرض وكلّ قصيدة، ويبقى هذا الجزء الهام، في حاجة إلى لبنة أخرى تدعمه وتشدّه، وهي الخاتمة، فكيف هي في شعر أبي حمّو؟.

**د- الخاتمـــة:**

تعدّ الخاتمة آخر ما تلتقطه الأسماع، وآخر لبنة يضعها الشّاعر في بنائه المتكامل، ولقد حازت على العناية الكبرى من قبل النقّاد حتّى أنّهم اعتبروها مساوية للتّقديم في المكانة والأهميّة.

لقد عرّف ابن رشيق الخاتمة قائلا: «أمّا الانتهاء، فهو قاعدة القصيدة وآخر ما يبقى منها في الأسماع وسبيله أن يكون محكما» [(1)]، أمّا حازم القرطاجنّي فيرى أنّ الاختتام «ينبغي أن يكون بمعان سارّة فيما قصد به التّهاني والمديح، وبمعان مؤسيّة فيما قصد به التّعازي والرّثاء، وكذلك يكون الاختتام في كلّ غرض بما يناسبه» [(2)].

والملاحظ، أنّ أبا حمّو قد أدرك هذه القيمة، حيث عمل على تنويعها وإجادتها، فاستخدم في خواتيمه أساليب مختلفة كالدّعاء وطلب المغفرة، والتّشفّع بالنّبيّ الكريم صلّى الله عليه وسلّم، أو الصّلاة عليه، وأكثر ما يكون هذا النّوع في قصيدة المولديّات.

ومن بين هذه النّماذج، ما ختم به الشّاعر إحدى قصائد الشّعر السّياسي، حيث تمثّلت في دعاء توجّه به للّه تعالى يرجو منه التّفريج عن كربته وتبليغ مقصده، يقول[(3)]:

رَبِّ بِالبَيْتِ العَتِيقِ وأَهْلِـهِ ... وَ بِجَاهِ يَثْرِبَ والنَّبِيِّ مُحَمَّـدِ

فَرِّجْ بِحَقِّكَ كُرْبَتِي يَا مَوْئِلِـي ... وَ بِحَقِّ فَضْلِكَ لاَ تُخَيِّبْ مَقْصِدِي

وَ الصَّلاَةُ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّـدٍ ... مَا غَرَّدَتْ وُرْقٌ بِغُصْنٍ أَمْلَـدِ

وفي نموذج آخر، يختم الشّاعر إحدى مولديّاته متشفّعا بالنّبيّ الكريم، يقول[(4)]:

وَ مَالِي سِوَى حُبِّي إِلَيْكَ وَسِيلَـةٌ ... أَمُدُّ بِهَا نَحْوَ الشَّفَاعَةِ رَاحَـا

---

(1) **ابن رشيق.** العمدة. 1: 239.

(2) **القرطاجني.** منهاج البلغاء. 285.

(3) **عبد الحميد حاجيات.** أبو حمّو موسى الزّياني. 330.

(4) **يحي بن خلدون.** بغية الروّاد. 2: 99.

عُبَيْدُكَ مُوسَى يَرْجُو شَفَاعَـةً    يَنَالُ بِهَا يَوْمَ الحِسَابِ نَجَاحَـا
عَلَيْكَ سَلاَمٌ طَيِّبُ النَّشْرِ عَاطِـرٌ    يَرُوحُ ويَغْدُو بُكْرَةً ورَوَاحَـا

ومن الصّيغ التي ختم بها أبو حمّو قصائده، الصّلاة على النّبيّ محمّد صلّى الله عليه وسلّم، وإرسال سلامه إليه، يقول[1]:

وَ يَخُصُّكَ يَا أَسْنَى قَمَـرٍ    بِصَلاَةٍ فَائِقَةُ العِظَـمِ
وَ سَلاَمٌ يَفْضَحُ كُلَّ شَـذًى    يَزْرِي بِالزَّهْرِ المُبْتَسِـمِ

ومن صور الخاتمة عند الشّاعر، ما أنهى به إحدى مرثيّتيه، حيث جعل من الخاتمة جملة من التّساؤلات تدور كلّها حول حقيقة الحياة والموت، يقول[2]:

أَيْنَ الذِينَ بَنُوا مِنْ قَبْلِنَا ونَـوُوا    وَ شَيَّدُوا أَطْمًا واسْتَوْطَنُوا غُرُفَـا
وَ ظَنُّهُمْ أَنْ هَذِي الدَّارُ بَاقِيَـةٌ    وَ لَمْ يَظُنُّوا بِأَنَّ الدَّهْرَ سَاءَ صَفَـا
كَمْ مِنْ قَرِينٍ مَعَ الأَحْبَابِ مُبْتَهِجٌ    أَمْسَى فَرِيدًا وأَضْحَى بَدْرُهُ كِسَفَا
وَ كَمْ غَرِيبٍ بَعِيدِ الدَّارِ ذِي حَزَنٍ    أَضْحَى مِنَ الغَرْبِ يَحْكِي اللاَّمَ والأَلِفَا
المَوْتُ بَابٌ وكُلُّ النَّاسِ دَاخِلُـهُ    وَ العَبْدُ يُجْزَى بِمَا جَنَى ومَا اِقْتَرَفَا
وَ اللهُ مُطَّلِعٌ فَوْقَ العِبَادِ وقَـدْ    يُؤَاخِذُ العَبْدَ فِي الدُّنْيَا بِمَا سَلَفَـا

كما يضمّن إحدى فخريّاته، آماله بالنّصر على أعدائه والثّأر منهم، وضمّ الشّرق إلى جملة ما حازه من المناطق الغربيّة، يقول[3]:

هُنَاكَ نَحْمِي حِمَاهَا عِنْدَمَا اِشْتَعَلَـتْ    وَ الأُسْدُ مَا بَيْنَ سَكْرَانٍ ونَشْوَانِ
وَ نَأْخُذُ الثَّأْرَ مِمَّنْ قَدْ نَأَى ودَنَـا    وَ يَرْجِعُ الشَّرْقُ بَعْدَ الغَرْبِ دِيوَانِي

وقد جمع أبو حمّو في نموذج آخر، بين التّضرّع لله والاستغفار لذنوبه وطلب فرجه، وبين الصّلاة على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، يقول في مولديّته "الجيميّة":

إِنِّي سَأَلْتُكَ بِالسِّرِ الذِي اِرْتَفَعَـتْ    بِهِ السَّمَاوَاتُ والأَرْضُونَ لَمْ تَمُـجِ
أَصْلِحْ بِفَضْلِكَ مَا قَدْ كَانَ مِنْ خَلَلٍ    وَ اَجْبُرْ بِحِلْمِكَ مَا قَدْ بَانَ مِنْ عِوَجِ
وَ اجْعَلْ لَنَا مَخْرَجًا فِي اِثْرِهِ فَرَجٌ    فَكَمْ تُعَامِلَ بَعْدَ الضِّيقِ بِالفَـرَجِ

---

[1] **عبد الحميد حاجيات.** أبو حمّو موسى الزّياني. 344.
[2] **عبد الحميد حاجيات.** المصدر نفسه. 338.
[3] **عبد الحميد حاجيات.** المصدر نفسه. 316.

وَ صَلِّ صَلاَةً عَلَى المُخْتَارِ مِنْ مُضَرٍ          مَا لاَحَتْ الشُّهُبُ فِي الآفَاقِ كَالسُّرَجِ[(1)]

بناء على ما تقدّم، نصل إلى القول، بأنّ أبا حمّو وفّق في اختيار خواتيم مناسبة لقصائده، وقد تنوّعت بحسب طبيعة الغرض، وخصوصيّة كلّ قصيدة، اختلفت ما بين دعاء وتضرّع لله، أو الصّلاة على النّبيّ الكريم صلّى الله عليه وسلّم، كما سجّلنا خواتيم تتضمّن تأمّلات في حقيقة الحياة وحتمية الموت، أو رصدا لآمال الشّاعر ومخطّطاته.

والجدير بالملاحظة، أنّ الشّاعر يميل إلى المزج بين الدّعاء والصّلاة على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وقد كانت أغلب خواتيمه تدور حول الصّلاة على الرّسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم، وبثّ سلامه إليه، ومردّ ذلك إلى تناسب هذا النّوع مع شعر المولديّات، الذي يمثّل أغلب شعر أبي حمّو.

وما نخلص إليه، أنّ بناء القصيدة عند أبي حمّو لم يحد عن النّموذج العربيّ المتوارث، وهو في ذلك يشارك بقيّة الشّعراء المغاربة، الذين تأثّروا بما أخذوه عن كبار شعراء المشرق، فلمّا «كان المغرب، ولاسيما في عصوره الأولى التي تلت الفتح الإسلامي، يتتلمذ عن المشارقة، ويقفوا آثارهم، ويسلك مناهجهم في شتّى العلوم والآداب، فإنّ بناء القصيدة، كان من بين تلك المظاهر التي ورثها شعر المغرب عن شعر المشرق»[(2)].

## 2- اللّغــة والأسلــوب:

### أ- اللّغــة:

اللّغة أهمّ أدوات البناء الفنّي، وهي وسيلة الشّاعر للتّعبير عن أفكاره ومشاعره، لذلك يتعيّن عليه أن يكون ملمّا بقواعدها وطاقاتها التّعبيريّة، مدركا لما تنطوي عليه من أسرار المعاني، ليتمكّن من تطويعها كيفما شاء، وليكسبها معان وأبعاد جديدة، تفوق المعجم العادي، لأنّه يسقيها من تجربته الخاصّة، ومن انفعالاته، وما يختلج في وجدانه من أحاسيس.

وإذا، فاللّغة الشّعريّة تلعب دورا خطيرا في عمليّة الإبداع، لأنّها وسيلة الشّاعر في صياغة تجربته الفنيّة، فالتّجربة الشّعريّة «في أساسها تجربة لغة، فالشّعر هو الاستخدام

---

(1) **يحي بن خلدون**. بغية الروّاد. 2: 154.

(2) **محمّد زلاقي**. بناء القصيدة المولديّة في المغرب الإسلامي. رسالة دكتوراه غير منشورة (مخطوط). كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة والاجتماعية. قسم الفلسفة. جامعة بسكرة. 2005-2006. ص56.

الفنّيّ للطّاقات الحسيّة والعقليّة والنّفسيّة والصّوتيّة للّغة ولغة الشّعر هي الوجود الشّعري، الذي يتحقّق في اللّغة انفعالا وصوتا موسيقيّا وفكرا» [1].

فتقييم أيّ عمل إبداعيّ، لا يتمّ إلاّ بالوقوف عند اللّغة الشّعريّة، والكشف عن قيمتها الفنيّة، وأهمّ خصائصها ومميّزاتها، لأنّ الشّعر «بنية لغويّة خاصّة، ذات دلالة فعّالة، وليس التّوصيل في الشّعر إلاّ بهذه الدّلالة الفعّالة النّابعة من البنية اللّغويّة الخاصّة» [2] [1].

وعليه، يتعيّن على المبدع أن يكون حريصا على انتقاء مفرداته، محسنا لتوظيفها، فكلّ شاعر «يضع لغته الخاصّة المعبّرة».[3]

بعد تصفّح المعجم الشّعري الخاص بأبي حمّو، أحالنا هذا الأخير إلى ثلاثة محاور، ارتأينا أن تكون مجال الدّراسة وهي: اللّغة الشّعريّة والأثر الإسلامي، واللّغة الشّعريّة بين الرقّة والجزالة، ثمّ اللّغة الشّعريّة بين الحسيّة والمعنويّة.

وسنحاول من خلال هذه المحاور كشف خبايا هذه الأداة الهامّة عند أبي حمّو، لنتمكّن في الأخير من إقرار الأحكام.

**أ-1. اللّغة الشّعريّة والأثر الإسلامي:**

بالإطّلاع على المادّة الشّعريّة التي بين أيدينا، اتّضح جليّا ثراء المعجم الشّعري باللّفظ الإسلامي، خاصّة قصائد المولديّات لما لها من علاقة متينة ومباشرة مع الموروث الدّيني.

ومن بين ما نستدلّ به، توظيف الشّاعر لمجموعة من المفردات استقاها من القرآن الكريم، يقول في إحدى مولديّاته[4]:

سَرَى فَسَمَا بِالقُرْبِ مِنْ رَبِّهِ إِلَى ... مَقَامٍ رَأَى الأَمْلاَكَ عَنْهُ نِزَاحَا

نلاحظ استعمال الشّاعر لمفردات قرآنيّة مثل: (سرى، القرب، ربّه، سما، أملاك، مقام)، وهي مقتبسة من قوله تعالى في سورة الإسراء:{ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ

(1)**السّعيد الورقي**. لغة الشّعر العربي الحديث. دار النّهضة العربيّة للطّباعة والنّشر. بيروت. ط3. 1984. ص05.

(2)**محمود أمين وآخرون**. في قضايا الشّعر العربي المعاصر. المنظّمة العربيّة للتّربية والثّقافة والعلوم. إدارة الثّقافة. تونس. 1988. ص29.

(3)**عزّ الدّين إسماعيل**. الأسس الجماليّة في النّقد العربي. دار الفكر العربي. القاهرة. 1992. ص298.

(4)**عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 354.

الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ }[1].

ويستخدم الشّاعر، في موضع آخر، ألفاظا استوحاها من آيات القرآن الكريم كذلك، مثل (نبيّ، رحمة، نور، العباد، حقّ) وذلك في قوله [2]:

نَبِيٌّ أَتَى رَحْمَةً لِلْعِبَــادِ    وَ أَظْهَرَ الحَقَّ نُورًا خَبَــا

وهذا البيت الشّعريّ يحيلنا إلى قوله تعالى:{ لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ } [3].

و يتجلّى توظيف المفردات القرآنيّة في قوله كذلك[4]:

سَأَلْتُكَ يَا خَالِقِي تَوْبَــةً    فَمَا زِلْتَ لِلسَّائِلِينَ مُجِيبَــا

خَشَيْتُ المَعَاصِي بِيَوْمِ القِصَاصِ    إِذَا مَا النَّوَاصِي تَشِيبُ مَشِيبَــا

وَ أَنْتَ رَقِيبِي يَوْمَ الحِسَــابِ    كَفَى بِكَ يَوْمَ الحِسَابِ رَقِيبَــا

نلاحظ، استخدام الشّاعر لمفردات متعلّقة بروحانيّة الإسلام ومبادئه من بينها: (الخالق، توبة، السّائلين، مجيب، الخشية، المعاصي، القصاص، النّواصي، رقيب، حساب).

كما يورد في بيت آخر ألفاظا مشابهة مثل (شريعة، مؤمنين، كافرين) تتعلّق دائما بروحانيّة الإسلام، يقول[5]:

وَ سَنَّ الشَّرِيعَةَ لِلْمُؤْمِنِيــنَ    وَ شَنَّ عَلَى الكَافِرِينَ الحُرُوبَــا

إضافة إلى ما سبق، تضمّن قاموس الشّاعر مفردات تحيط بشخصيّة الرّسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم، وكلّ ما له علاقة به، يقول[6]:

نَبِيٌّ أَتَى والكُفْرُ بَادٍ ضِلاَلُــهُ    فَأَهْدَى الهُدَى لِلْخَلْقِ ◌ يَا حُسْنَ مَا أَهْدَى

هُوَ الرَّحْمَةُ الهَادِي الشَّفِيعُ لَنَا غَدَا    هُوَ المُصْطَفَى المُخْتَارُ يُلْهِمُنَا الرَّشَدَا

---

(1) **الإسراء**. آ: **01**.

(2) **عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 360.

(3) **التّوبة**. آ: **128**.

(4) **يحي بن خلدون**. بغية الروّاد. 2: 163.

(5) **عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 369.

(6) **يحي بن خلدون**. بغية الروّاد. 2: 225–226.

هُوَ الذُّخْرُ لِلْهَوْلِ الشَّدِيدِ إِذَا أَتَـى        وَ مَنْ ذَا سِوَاهُ لِلْمَخَافِ إِذَا اِشْتَدَّا

ومن بين هذه المفردات(نبيّ، الكفر، ضلاله، أهدى، الهدى، الرّحمة، الهادي، الشّفيع، المصطفى، المختار، الرّشد، الذّخر).

وفي مقاطع شعريّة أخرى، يوظّف الشّاعر بعض أخبار السّيرة العطرة للرّسول صلّى الله عليه وسلّم، فيستخدم ألفاظا ذات علاقة بمعجزات النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام مثل (شقّ البدر، ظمئ الأقوام، الأنامل، أمّه، الأصنام، آيات، نيران فارس)، حيث يقول:

وَ شُقَّ لَهُ البَدْرُ المُنِيرُ وقَدْ غَدُوا        لَهُ لاَ إِلَى البَدْرِ المُنِيرِ طِمَاحَـا

إِذَا ظَمِئَ الأَقْوَامُ يَوْمًا سَقَاهُـمْ[1]        بِمَاءٍ مَعِينٍ بِالأَنَامِلِ سَاحَـا[2]

و يقول كذلك[3]:

بِهَدْيِ رَسُولِ اللهِ أُمَّتُهُ اِهْتَدَتْ        بِظُهُورِهِ الأَصْنَامُ خَرَّتْ وارْتَدَّتْ [4]

وَ بِنُورِهِ نِيرَانُ فَارِسَ أُخْمِدَتْ        وَ دَلاَئِلُ بَانَتْ وآيَاتٌ بَـدَتْ [5]

وَ شَفَاعَـةٌ جَاءَتْ لِكُلِّ مُطِيـعِ

وكما هو واضح، تتحدّث الأبيات عن بعض معجزات الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، كقصّة انشقاق القمر، وسقاية النّاس من بين أصابعه عليه السّلام، بالإضافة إلى التّحدّث عن الخوارق التي صحبت يوم ميلاده من أهمّها: قصّة انتكاس الأصنام، وانطفاء نار المجوس.

### أ-2. اللّغة الشّعريّة بين الفخامة والرقّـة:

من المعروف، أنّ وصف الصّحراء والفرس والنّاقة، ووصف المعارك، يعتمد أساسا على الألفاظ القويّة والفخمة، أمّا التّطرّق إلى أغراض كالغزل والحكمة والمديح، فهو يتطلّب مفردات أكثر رقّة وسلاسة.

---

[1] عن حادثة خروج الماء من أصابع الرّسول صلّى الله عليه وسلّم. أنظر: **النّووي**. صحيح مسلم. حديث رقم7007. ج17. 143.

[2] **عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 354.

[3] **عبد الحميد حاجيات**. المصدر نفسه. ص357.

[4] عن حادثة انتكاس الأصنام. أنظر: **ابن كثير**. السّيرة النّبويّة. تحقيق: عبد الواحد. مصطفى. دار المعرفة. بيروت. لبنان. 1982. ج1.ص368.

[5] عن حادثة انطفاء نار الفرس. أنظر: **ابن كثير**. المصدر نفسه. 1: 215.

وإذا عدنا إلى شعر أبي حمّو، وجدناه ينوّع ألفاظه بين ما هو رقيق وسلس، وبين ما هو فخم ورصين، وأكثر الأغراض التي تغلب عليها المفردات القويّة، الشّعر السّياسي وقصائد الفخر.

ومن أمثلة ذلك ما أورده في "ميميّته" الفخريّة واصفا شجاعته ومتباهيا بقوّته في خوض الحروب:

إِذَا نَحْنُ جَرَّدْنَا الصَّوَارِمَ لَمْ تَعُدْ ... لأَغْمَادِهَا إِلاَّ بِحَزِّ الغَلاَصِـمِ [1]

نُوَاصِلُ بَيْنَ الهِنْدِ والهَامِ والطَّلَى ... بِتَفْرِيقِ مَا بَيْنَ الطَّلَى والجَمَاجِمِ

فَيَرْغَبُ مِنَّا السِّلْمَ كُلُّ مُحَارِبٍ ... وَ يَرْهَبُ مِنَّا الحَرْبَّ كُلُّ مُسَالِـمِ

نَقُودُ إِلَى الهَيْجَاءِ كُلَّ مُضْمَرٍ ... وَ نَقْدُمُ إِقْدَامَ الأُسُودِ الضَّرَاغِـمِ [2]

والجليّ، أنّ الأبيات السّابقة ضمّت بين جنباتها، ألفاظا تدلّ على القوّة والفخامة مثل: (الصّوارم، أغماد، حزّ، الجماجم، يرهب، الحرب، الأسود، الضّراغم).

ونحو هذا الوصف، في فخامة اللّغة ورصانتها قول الشّاعر في "نونيّته" الفخريّة، متوعّدا أعداءه [3]:

نَعَمْ ولاَ بُدَّ لِي مِنْ أَخْذِ أَرْضِهِمْ ... بِالمُرْهَفَاتِ وجُرْدٍ تَحْتَ عُقْبَانِ

حَتَّى أُرَوِّي سُيُوفِي مِنْ دِمَائِهِـمْ ... رَيَّ الحَجِيجِ إِذَا حَلَّتْ بِحِسْيَانِ

وَ يَرْدِفُ قائلا من نفس القصيدة:

وَ البِيضُ تُضْرِمُ نَارَ الحَرْبِ إِنْ خَمَدَتْ ... وَ السُّمْرُ مِثْلَ شِهَابٍ إِثْرَ شَيْطَانِ

وَ الخَيْلُ عَابِسَةٌ كَلَّتْ فَوَارِسُهَا ... وَ الأَرْضُ كَاسِيَةٌ ثَوْبًا كَالعِقْيَانِ

فالواضح، في هذه الأبيات، استخدام مفردات تدلّ على القوّة والفخامة مثل: (سيوف، دماء، تضرم، بيض، الحرب، عابسة).

و يوظّف الشّاعر، في الشّعر السّياسيّ كذلك، أبياتا تضمّ بعض المفردات الرّصينة:

فَكَأَنَّهُمْ أُسْدُ الشَّرَى فِي غَابِهَا ... وَ السَّيْفُ قَرْعُ زِنَادِهِ لَمْ يُصْلَدِ

فَيَجُولُ بَيْنَ جَمَاجِمٍ وغَلاَصِـمٍ ... وَ يَقِدُّ كُلَّ مُدَرَّعٍ ومُحَـدَّدِ[1]

---

[1]**الغلاصم:** الغلصمة: هو الموضع النّاتئ في الحلق. أنظر: **ابن منظور.** لسان العرب. مادة: (غلم).

[2]**عبد الحميد حاجيات.** أبو حمّو موسى الزّياني. 318.

[3]**عبد الحميد حاجيات.** المصدر نفسه. 315.

و نسوق الآن أمثلة تتضمّن مستوى لغويّا سهلا وواضحا، فأبو حمّو يصف أشواقه، ويصوّر شغفه بمحبوبته، وذلك بلغة سهلة ورقيقة، يقول [2]:

إنِّي شَغُفْتُ بِكُمْ مُنْذُ زَمَانٍ مَضَى ... وَ أَنْتَ لَمْ تَدْرِ مَا قَدْ كَانَ أَجْفَانِي

رَقَّتْ حَشَاشَةُ قَلْبِي مِنْ هَوَاكَ وقَدْ ... تَضَاعَفَ السُّقْمُ فِي رُوحِي وأَبْدَانِي

إنِّي وحَقِّ حَيَاةِ الحُبِّ مَا اكْتَحَلَتْ ... وَ اللهِ بَعْدَكُمْ بِالنُّوْمِ أَجْفَانِي

وَ لاَ شَغُفْتُ بِحُسْنٍ غَيْرَ حُسْنِكُمُ ... وَ لاَ أَخَذْتُ عَلَيْكُمْ فِي الهَوَى ثَانِي

يظهر جليّا، توظيف الشّاعر لمفردات سهلة، واضحة ورقيقة، لا تتطلّب من المتلقّي أيّ عناء لاستيعابها مثل (شغفت، قلبي، روحي، حسن، الهوى...)، وهذا النّموذج هو الغالب على شعر أبي حمّو لأنّ «عمق المعنى وجودته لا يتعارض وسهولة اللّفظ وسلاسته» [3].

ويتجلّى حسن اللّغة ووضوحها، وسلاسة مفرداتها، في تضرّع الشّاعر إلى ربّه، طالبا كشف ضرّه، وهو الآمل في رحمة الخالق ولطفه، يقول في شعر المولديّات[4]:

يَا مَنْ يُجِيبُ نِدَا المُضْطَرِّ فِي الدِّيَجِ ... وَ يَكْشِفُ الضُرَّ عِنْدَ الضِّيقِ والهَوَجِ

وَ لُطْفُ رَحْمَتِهِ يَأْتِي عَلَى قَنَطٍ ... إذَا القُنُوطُ دَعَا يَا أَزْمَةَ انْفَرِجِي

وَ مَنْ إذَا حَلَّ خَطْبٌ واعْتَرَتْ نُوَبٌ ... أَبْدَى مِنَ اللُّطْفِ مَا لَمْ يَجْرِ فِي المُهَجِ

ومن بين هذه المفردات (مجيب، نداء، الدّيج، يكشف، لطف، رحمة، انفرجي).

ونعاود الحديث عن المقدّمات الغزليّة[5]، فهي أكثر ما تتجلّى فيها رقّة الألفاظ وشفافيّتها، فهي كمثل قطرات النّدى نقاء وعذوبة:

مُحِبٌّ مُشَوَّقٌ قَيَّدَتْهُ يَدُ الهَوَى ... أَسِيرٌ لَدَيْكُمْ لاَ يُرِيدُ سَرَاحَا

عَذَابِي صَلاَحٌ فِي رِضَاكُمْ فَإِنَّكُمْ ... رَأَيْتُمْ صُدُودِي فِي الغَرَامِ صَلاَحَا

رَمَيْتُمْ بِأَكْبَادِي سِهَامَ نَوَاكُمْ ... وَ أَوْدَعْتُمْ قَلْبِي أَسًى وجِرَاحَا

فَتَكْتُمْ بِأَلْحَاظٍ مِرَاضٍ فَوَاتِرٍ ... لَقَدْ خِلْتُهَا يَوْمَ الصُّدُودِ رِمَاحَا [1]

---

(1) **يحي بن خلدون.** بغية الروّاد. 2: 266.

(2) **عبد الحميد حاجيات.** أبو حمّو موسى الزّياني. 313.

(3) **موسى محمّد عيسى** . ابن عبد ربّه وشعره (دراسة وتحليل). رسالة دكتوراه (الدّور الثّالث) غير منشورة (مخطوط). معهد اللّغة والأدب العربي. جامعة الجزائر. 1985-1986. ص231.

(4) **يحي بن خلدون.** بغية الروّاد. 2: 152.

(5) أنظر: هذا البحث. ص103 وما بعدها.

و يقول أيضا[2]:

كَمْ تَهْجُرُونِي وهَجْرِي لاَ يَحِلُّ لَكُمْ ... المَوْتُ أَهْوَنُ مِنْ بُعْدِي وهِجْرَانِي
وَ إِنْ عَزَمْتُمْ عَلَى بُعْدِي فَوَا أَسَفًا ... بَانَ الزَّمَانُ بِحَالِي أَيَّ تِبْيَانِ
يَا أَحْسَنَ النَّاسِ مَا لِي عَنْكَ مُصْطَبَرٌ ... وَ كَيْفَ صَبْرِي وصَبْرِي اليَوْمَ أَعْيَانِي

ضمّت هذه الأبيات، جملة من الألفاظ تقطر سلاسة ورقّة مثل (محبّ، مشوّق، الهوى، أسير، عذابي، الغرام، صلاح، أكبادي، قلبي، أسى، نواكم).

وما نخلص إليه، أنّ لغة أبي حمّو تراوحت بين الرقّة والفخامة بحسب كلّ غرض، فمثلما كانت المقدّمات الغزليّة والشّعر المولديّ والرّثاء موطنا للألفاظ الرّقيقة، كان الشّعر السّياسي وقصائد الفخر مركزا للألفاظ الفخمة والقويّة.

### أ-3. اللّغـة الشّعريّـة بين الحسيّة والمعنويّـة:

نقصد باللّغة الحسيّة ما يستخدمه الشّعراء من ألفاظ يصوّرون بها ما تقع عليه أبصارهم من مظاهر الصّحراء ومظاهر الكون المختلفة، ووصف الحيوان وذكر تفاصيل المعارك، والتّحدّث عن كلّ محسوس وملموس، أمّا اللّغة المعنويّة فهي ما تعلّقت بالمجرّدات كذكر الأخلاق، والتّعبير عن المشاعر والتطرّق إلى المصطلحات الفلسفيّة، الخاصّة بقضايا الحياة والموت، وما وراء الطّبيعة.

وحين نطالع شعر أبي حمّو، نلاحظ أنّه استعمل النّوعين معا فاللّغة الحسيّة كانت وسيلته في حبك أبيات الفخر والشّعر السّياسي، أمّا اللّغة المعنويّة، فأكثر تواجدها كان في الرّثاء والمولديّات.

لقد استعمل الشّاعر اللّغة الحسيّة، ليتمكّن من تخويف أعدائه، من خلال تعداد أنواع الجيّاد المستخدمة في جيشه، ووصفها وصفا ماديّا، يقول[3]:

مِنْ كُلِّ أَشْهَبٍ كَالشِّهَابِ تَخَالُـهُ ... أَوْ أَدْهَمٍ مِثْلَ الغُرَابِ الأَسْـوَدِ
أَوْ أَحْمَرٍ كَالوَرْدِ لَوْنُ أَدِيمِـهِ ... أَوْ أَشْقَرٍ مُتَجَلِّلٌ بِالعَجْسَـدِ
أَوْ أَصْفَرٍ مِنْهُنَّ كَالخَيْرِي فِـي ... حُسْنِ مَعَارِفِهِ كَخَطٍّ بِاليَـدِ

---

(1) **يحي بن خلدون**. بغية الروّاد. 2: 97-98.
(2) **عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 313.
(3) **يحي بن خلدون**. بغية الروّاد. 2: 265.266.

أَوْ أَبْلَق ٍ حَسَنَ الحِجَالَ مُدَّثِـرٌ     وَ مُدَرْهَمٌ ومُقَصْدَرٌ ومُحَـدَّدِ

ويصف أبو حمّو ناقته وصفا دقيقا، مستخدما لغة حسيّة معبّرة فيقول[1]:

عَلَى نَاقَةٍ وَجْنَاءَ كَالحَرْفِ ضَامِرٍ     تَخَيَّرْتُهَا بَيْنَ القِلاَصِ الرَّوَاسِـمِ

مِنَ اللاَّءِ يَظْلِمْنَ الظَّلِيمَ إِذَا عَـدَا     وَ يُشْبِهْنَهُ فِي جَيْدِهِ والقَوَائِـمِ

إِذَا أَتْلَعَتْ فَوْقَ السَّحَابِ جِرَانُهَـا     تَخَيَّلْتَهَا بَعْضَ السَّحَابِ الرَّوَاكِمِ

وَ إِنْ هَمْلَجَتْ بِالسَّيْرِ فِي وَسَطِ مَهْمَهَ     تَرَاءَتْ كَمِثْلِ البَرْقِ لاَحَ لِشَائِـمِ

وفي الشّعر السّياسي، نلاحظ تلك اللّغة الحسيّة التي تصف عظمة جيش أبي حمّو، فهو من الكثرة بما لا يدع مجالا لحصر جحافله:

بِعَسْكَرٍ لُجُبٍ ضَاقَ الفَضَاءُ بِـهِ     كَالبَحْرِ أَعْظِمْ بِهِ مِنْ عَسْكَرٍ لُجُبِ[2]

عَرَمْرَمٍ زَاخِرٍ فَاضَتْ مَوَاكِبُـهُ     كَأَنَّهُ سُحُبٌ أَرْبَتْ عَلَى سُحُـبِ[3]

فالواضح من الأبيات السّابقة، تصوير الشّاعر الدّقيق لكبر هذا الجيش، الذي يماثل البحر اتّساعا وقطع السّحاب كثرة، وإذا انتقلنا إلى المقدّمات الغزليّة، ألفينا الشّاعر، يستخدم في بعض الأبيات، لغة حسيّة، يصف بها مواطن الحمال عند المرأة، يقول[4]:

الشَّعْرُ لَيْلٌ، فَوْقَ صُبْحِ جَبِينِهَا     يَحْمِي لِغَفْرَبِ صَدْغِهَا[5]بِمُجَعَّدِ

وَ لِحَاظُهُنَّ صَوَارِمٌ مَسْلُولَـةٌ     فَتَكَتْ بِأَلْبَابٍ ولَمَّا تُغْمَـدِ

وَ مَبَاسِمٌ كَالأُقْحُوَانِ تَخَالُهَـا     دُرًّا بِسَمْطٍ[6]فِي العَقِيقِ مُنَضَّـدِ

وتظهر اللّغة الحسيّة، في تصوير الشّاعر لما يراه بالعين المجرّدة، من شعر في سواد اللّيل، وجبين في إشراقة الصّبح ولحاظ في حدّة السّيوف وفتكها، ومباسم في حمرة الأقحوان.

أمّا اللّغة المعنويّة، فقد وجدت ملازمة للحكمة وذكر مكارم الأخلاق، وكلّ المعني المجرّدة، ومن بين ما نستدلّ به في هذا المقام، قول الشّاعر في إحدى مرثيّتيه، محذّرا من عذاب الحياة[1]:

---

[1]**عبد الحميد حاجيات.** أبو حمّو موسى الزّياني. 319-320.

[2]**اللّجب:** صوت العسكر. وعسكر لجب: عرمرم وذو لجب وكثرة. أنظر: **ابن منظور**. لسان العرب. مادة: (لجب).

[3]**يحي بن خلدون**. بغية الروّاد. 2: 156.

[4]**يحي بن خلدون**. المصدر نفسه. 2: 265.

[5]**صدغ:** ما انحدر من الرّأس إلى مركب اللّحيين. أنظر: **ابن منظور**. لسان العرب. مادة:(صدغ).

[6]**السّمط:** الخيط ما دام فيه الخرز. أنظر: **ابن منظور**. المصدر نفسه. مادة:(سمط).

فَاحْذَرْ زَمَانَكَ لاَ يَغُرُّكَ أَنَّـهُ ... فِي شَهْدِهِ يَأْتِي بِكُلِّ فَظِيـعِ
وَ كَذَلِكَ الدُّنْيَا فَلاَ تَأْمَنَ لَهَـا ... فَلَكَمْ تَغُرُّ بِوَصْلِهَا المَقْطُـوعِ
وَ لَكَمْ غَدَا فِي أَسْرِهَا مِنْ مَاجِـد ... وَ لَكَمْ لَهَا مِنْ ضَيْغَمٍ مَصْـرُوعِ
أَيْنَ المُلُوكُ وأَيْنَ مَا قَدْ جَمَعُـوا ... مِنْ كُلِّ ذُخْرٍ فِي الحَيَاةِ رَفيِـعِ
سَارُوا فَلَمْ تَسْمَعْ لَهُمْ خَبَرًا ولَـمْ ... تَرَ مِنْهُمْ أَثَرًا يَلُوحُ بِرِيـعِ
وَ أَبَادَهُمْ صَرْفُ الزَّمَانِ وخَلَّفُوا ... مَا جَمَّعُوا مِنْ جَنَّـةٍ وزُرُوعِ

من اليسير، أن نلاحظ المعاني المجرّدة التي تضمّنها هذا المقطع الشّعري، من خلال توظيف مفردات مثل: (الدّنيا، تأمن، الحياة، صرف الزّمان، تغرّ، رفيع، الحذر).

ويوظّف أبو حمّو اللّغة المعنويّة دائما، ليعدّد من خلالها بعض الصّفات التي تحلّى بها والده المتوفّى:

قَدْ حَازَ أَشْتَاتَ المَحَاسِنِ كُلَّهَـا ... فَاعْجَبْ لِحُسْنِ ثَنَائِهِ المَجْمُـوعِ
جُودٌ ومَجْدٌ والشَّجَاعَةِ والنَّدَى ... وَ الجُودُ فِي طَبْعٍ لَـهُ مَطْبُوعِ
فَبِكَفِّهِ بَأْسٌ وفِيـهِ رَحْمَـةٌ ... قِسْمَانِ بَيْنَ مُعَانِدٍ ومُطِيـعِ
عَدْلٌ إِذَا يَقْضِي وغَيْثٌ إِنْ يَجُدْ ... وَ حُسَامُهُ نَارٌ لِكُلِّ قَرِيـعِ[2]

والمطّلع على قصائد الفخر، يجد أنّ الشّاعر يستخدم بعض المفردات المعنويّة، حين يتغنّى بما حازه من مكارم الأخلاق:

أَحْمِي المَظْلُومَ وأَنْصُـرُهُ ... وَ أُقِيمُ الحَقَّ عَلَى عَجَـلِ
أَنْزَلْتُ النَّاسَ مَنَازِلَهُـمْ ... وَ تَرَكْتُ الظَّالِمَ فِي وَجَـلِ
وَ أَنَا لِلطِّفْلِ كَوَالِـدِهِ ... وَ أَسُوقُ الشَّيْخَ عَلَى مَهْـلِ
وَ الرِّفْقُ كَذَلِكَ مِنْ شِيَمِـي ... وَ العَدْلُ بِهِ أُعْطِي أَمَلِـي[3]

لقد ضمّت الأبيات السّابقة، عدّة ألفاظ تدخل في مجال المفردات المعنويّة، مثل (جود، مجد، الشّجاعة، رحمة، يجد، أحمي، أنصر،الحقّ، المظلوم، الظّالم، الرّفق، العدل).

[1] **ابن خلدون**. بغية الروّاد . 2: 106.
[2] **يحي بن خلدون**. المصدر نفسه. 2: 106.
[3] **أبو حمّو موسى الثّاني**. واسطة السّلوك في سياسة الملوك. 06.

أمّا إذا تفحّصنا شعر المولديّات، نجده لا يخل كذلك، من مفردات تجبل على المعاني المجرّدة والسّامية من بينها: طلب المغفرة، والنّدم على الماضي، والطّمع في رحمة الله وكرمه، ومن بين هذه النّماذج قول الشّاعر:

وَ تُغْفَرُ أَوْزَارِي وتُمْحَى جَرَائِمِي وَ حَصْرُ ذُنُوبِي لاَ أُطِيقُ لَهَا عَدًّا
وَ يَا لَيْتَ شِعْرِي لِلزَّمَانِ الذِي مَضَى أَيَرْجِعُ مُرُّ العَيْشِ مِنْ بَعْدِهْ شَهْدَا
أَنَا المُسْرِفُ الجَانِي أَنَا المُذْنِبُ الذِي أُشَاهِدُ بَابَ العَفْوِ بِالذَّنْبِ قَدْ سُدَّا
لَقَدْ حَقَّ لِي أَبْكِي عَلَى فَرْطِ زَلَّتِي وَ أَسْكُبُ دَمْعًا كَالعَقِيقِ عَلاَ الخَدَّا[1]

ويقول كذلك في ذات الصّدد ضمن إحدى مخمّستيه:

يَا رَبِّ عَبْدُكَ مُوسَى ذَنْبُهُ عَظُمَا فَهَبْ لَهُ العَفْوَ جُودًا والرِّضَى كَرَمَا
وَ ارْحَمْ ضَرَاعَتَهُ يَا خَيْرَ مَنْ رَحِمَا يَا رَبُّ لاَ تُبْعِدِ الجَانِي بِمَا اِجْتَرَمَا
أَنْتَ الغَنِيُّ مَا لِلْخَلْقِ عَنْكَ غِنَى[2]

وخلاصة القول، تضمّن شعر أبي حمّو اللّغة بنوعيها، الحسّي والمعنوي، فهما حاضران في شعره بصورة واسعة، فقد لجأ إلى المحسوسات بشكل واسع في قصائد الفخر والشّعر السّياسي، لما يتطلّبانه من أوصاف تحيط بالمعارك والخيول والأسلحة.

أمّا اللّغة المعنويّة، فقد وجدت مقترنة بأبيات الحكمة، والتأمّل في حقيقة الوجود، وأبيات الدّعاء والتضرّع، تلك اللّغة التي بُثَّتْ في قصيدتي الرّثاء وشعر المولديّات.

**ب- الأسلــوب:**

الأسلوب هو المبدع نفسه، فهو المعبّر عن أفكاره وآرائه ومشاعره وأحاسيسه، كما يعبّر عن موهبته الأدبيّة، ومدى تحكّمه في اللّغة، ودرجة تعبيرها عن المضامين التي يريدها.

ويعدّ الأسلوب الميزان الذي يُقَيَّمُ به أيّ عمل أدبيّ، ويفرّق من خلاله بين إنتاج المبدعين، وجمال الأسلوب وتميّزه، لا يصدر إلاّ «عن موهبة طبيعيّة، أو طول مران، وخير الكلام، ما نقدر به على الظّفر بأفكار جديدة في يسر»[3].

[1] **يحي بن خلدون**. بغية الروّاد. 2: 225.
[2] **عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 351.
[3] **هلال غنيمي**. النّقد الأدبي الحديث. دار الثّقافة. دار العودة. بيروت. لبنان. 1973. ص125.

وسنحاول، تتبّع ظاهرتين أسلوبيّتين ميّزتا شعر أبي حمّو، وهما شيوع الأسماء والتّكرار اللّفظي.

**ب-1. شيوع الأسماء:**

الدّارس لشعر أبي حمّو، يستخلص كثرة توظيف الأسماء، كأسماء الأشخاص، أو الجبال أو الأنهار أو المدن والقرى، أو أماكن مقدّسة في الحجاز، لذلك يمكن اعتبار شيوع الأسماء ظاهرة أسلوبيّة عند الشّاعر.

فمن بين أسماء المدن والقرى، ورد قوله[1]:

وَ جِئْتُ لأَرْضِ الزَّابِ تَذْرُفُ أَدْمُعِي ... لِتِذْكَارِ أَطْلاَلِ الرُّسُومِ الطَّوَاسِمِ

ويقول أيضا:

وَ جِئْتُ لِوَارْجِلاَ وجُزْتُ مُصَابَهَا ... وَ لاَ مُخْبِرَ غَيْرَ الصِّلاَدِ الأَعَاجِمِ

و قوله كذلك[2]:

دَخَلْتُ تِلِمْسَانَ التِي كُنْتُ أَرْتَجِي ... كَمَا ذَكَرْتُ فِي الجَفْرِ أَهْلَ المَلاَحِمِ

أمّا أسماء الوديان والأنهار، فيوظّف بعضها في قوله[3]:

وَ إِلَى أَنْ بَدَا لِي وَادِ زَرْقُونَ[4]أَزْرَقَا ... وَ بَانَتْ عَلَيْهِ شَاحِبَاتُ الغَيَاهِـمِ

ويقول كذلك[5]:

سَمَوْنَا إِلَى اِصْطَفْطِيفَ وَاشْتَدَّ بَيْنَنَا ... حُرُوبٌ تُشَيِّبُ الرَّأْسَ قَبْلَ الفَطَائِمِ

و قوله [6]:

وَ طَاحَتْ عَلَى وَادِي مْلاَلَ[7] هَشَائِمَ ... وَ مِنَ القَوْمِ صَرْعَى لِلْنُّسُورِ القَشَاعِمِ

و كذلك[8]:

وَ عُجْنَا وعَرَّجْنَا عَلَى وَادِ يَسِّرْ[9] ... وَ جُزْنَا المَخَاضَ كَاللُّيُوثِ الضَّرَاغِمِ

---

(1) **عبد الحميد حاجيات.** أبو حمّو موسى الزّياني. 301.

(2) **عبد الحميد حاجيات.** المصدر نفسه. 307.

(3) **عبد الحميد حاجيات.** المصدر نفسه. 302.

(4) **وادي زرقون:** نهر قرب تلمسان. أنظر: **يحي بن خلدون.** بغية الروّاد. 2: 23.

(5) **عبد الحميد حاجيات.** أبو حمّو موسى الزّياني. 305.

(6) **عبد الحميد حاجيات.** المصدر نفسه. 303.

(7) **وادي ملال:** نهر صغير قرب تلمسان. أنظر: **يحي بن خلدون.** بغية الروّاد. 2: 23.

(8) **عبد الحميد حاجيات.** أبو حمّو موسى الزّياني. 304.

(9) **وادي يسّر:** نهر قرب تلمسان. أنظر: **يحي بن خلدون.** بغية الروّاد. 2: 26.

كما يورد الشّاعر أسماء لبعض الأشخاص، يأتي في مقدّمتها، اسمه واسم والده، وأسماء بعض الأنبياء والرّسل:

أَعْنِي أَبَا يَعْقُوبَ مَوْلاَيَا الـذِي ... نَرْجُو رِضَاهُ وهُوَ غَايَةُ مَنْ يَلِـي[1]

و يقول كذلك[2]:

وَ أَنَا مُوسَى وأَبُو حَمُّـو ... أَصْلُحُ لِلْمُلْكِ ويَصْلُحُ لِـي

وقوله[3]:

فَيَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَزُورُ مُحَمَّدًا ... وَ أَمْنَحُ مَا أَهْوَاهُ مِنْ مَنْزِلِ الوَحْـيِ

كما يورد في أبيات أخرى[4]:

يَا كَاشِفَ الضُرِّ عَنْ أَيُّوبَ حِينَ دَعَا ... قَدْ مَسَّنِي الضُرُّ فَاكْشِفْ كَرْبَ كُلِّ شَجِيْ

أَنْتَ المُنْجِي لِنُوحٍ فِي سَفِينَتِـهِ ... وَ مُخْرِجُ يُونُسَا مِنْ ظُلْمَةِ اللُّجَجِ

يَا مَنْ وَقَى يُوسُفَ الصِدِّيقَ كُلَّ أَذَى ... لَمَّا رَمَوْهُ بِجُبٍّ ضَيِّق ٍ حَـرِجِ

وقوله كذلك[5]:

أَلَمْ تَرَ إِذْ جَاءَ السُّبَيِّعُ قَاصِـدًا ... إِلَى بَابِنَا يَبْغِي اِلْتِمَاسَ المَكَـارِمِ

ومن أسماء القبائل، قوله[6]:

مِنْ عَامِرِيٍّ ضَيْغَمٍ يَوْمَ الوَغَـى ... أَوْ مَعْقِلِيٍّ بِهِمَّةٍ لَمْ يُرْفَـدِ

وَ زَنَاتَةُ[7] مِنْ خَلْفِنَا وأَمَامِنَـا ... مِنْ كُلِّ لَيْثٍ فِي الحُرُوبِ مُمَجَّـدِ

وقوله[8]:

فَوَلَّتْ سُوَيْدٌ [1]ثُمَّ خَلَّتْ مُجِيرَهَا ... وَ شَيْخُ حِمَاهَا فِي لَجُوجِ المَصَـادِمِ

---

(1) **عبد الحميد حاجيات.** أبو حمّو موسى الزّياني. 298.

(2) **أبو حمّو موسى الثّاني.** واسطة السّلوك في سياسة الملوك. 06.

(3) **يحي بن خلدون.** بغية الروّاد. 2: 67.

(4) **عبد الحميد حاجيات.** أبو حمّو موسى الزّياني. 362.

(5) **يحي بن خلدون.** بغية الروّاد. 2: 94.

(6) **يحي بن خلدون.** المصدر السابق . 2: 266.

(7) **زناتة:** هم جيل قديم العهد. سكنوا بإفريقيّة والمغرب. وخاصّة المغرب الأوسط. ويرجع المؤرّخون أصلهم إلى الملك جالوت. أنظر: **ابن خلدون. عبد الرّحمان.** التّاريخ. 2: 2689.

(8) **عبد الحميد حاجيات.** أبو حمّو موسى الزّياني. 303.

وأيضا[2]:

إِذَا مَا أَتَتْ مِنْ بَعْدِ سِتِّينَ سَبْعَـةٌ    نُبِيدُ مَرِينَا كُلَّ طَـاغٍ وجَـارِمِ

ومن بين الأسماء الموظّفة بكثرة في شعر أبي حمّو، أسماء لمناطق مختلفة في الحجاز، وذلك في شعر المولديّات، لما لهذه الأسماء من علاقة مع هذا الغرض، يقول في أحد أبياته:

وَ عَرِّجْ عَلَى نَجْدٍ وسَلْعٍ ورَامَـةٍ    وَ سَائِلْ فَدَتْكَ النَّفْسُ فِي الحَيِّ عَنْ مَيٍّ[3]

كما يقول في أبيات أخرى[4]:

سَلاَمٌ عَلَى مَنْ بِالبَقِيعِ وبِالحِمَـى    سَلاَمٌ عَلَى البَدْرِ المُنِيرِ التُّهَامِـيِّ

وقوله:

يَثْرِبُ قَلْبِي والحِجَازُ مَوَدَّتِـي    وَ إِنْ عَاقَنِي عَلَى كَلِّ رُشْدٍ بِهِ غَيٌّ

وهكذا، يتّضح أنّ الشّاعر ركّز كثيرا على ذكر الأسماء، فقد تواجدت في أغلب شعره، وفي الأغراض الأربعة، ولعلّ هذا الحرص على توظيفها، كان من أجل إعطاء شعره المصداقيّة اللاّزمة، خاصّة في الشّعر السّياسي، الذي ذكر فيه الأماكن والقبائل والأشخاص الذين كانت لهم علاقة مع حركته التي قام بها لإحياء الدّولة الزّيانيّة، أمّا ما ذكره في شعر المولديّات، فهو لم يحد فيها، عن الخطّ الذي رسمه شعراء هذا اللّون، إذ إنّه من الطّبيعي أن تُذكر أسماء عديدة للرّسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم أو للبقاع المقدّسة.

والخلاصة، يمكن اعتبار شيوع الأسماء بمختلف أنواعها إحدى الظواهر الأسلوبيّة البارزة عند أبي حمّو.

**ب-2. التّكرار اللّفظـي:**

يُقصد بالتّكرار اللّفظي، استعمال كلمة معيّنة بصور متعدّدة، أو استخدام كلمات متقاربة في الاشتقاق.

---

(1)**سويد:** أحد القبائل العربيّة التي سكنت المغرب العربي. أنظر: **مبارك بن محمّد الميلي.** تاريخ الجزائر في القديم والحديث. 200.

(2)**عبد الحميد حاجيات.** أبو حمّو موسى الزّياني . 307.

(3)**عبد الحميد حاجيات.** المصدر نفسه. 345.

(4)**عبد الحميد حاجيات.** المصدر نفسه. 347.

ولهذه الظّاهرة الأسلوبيّة، أهميّة قصوى في تأكيد المعنى وتقويته، ويهدف الشّعراء من وراء توظيفها إلى إبراز أهميّة فكرة معيّنة، أو التّأكيد على صفة بعينها.

وشعر أبي حمّو غنيّ بهذه الظّاهرة، سواء تكرار الأسماء أو التّكرار بالاشتقاق، وأوّل ما نستدلّ به قول الشّاعر في قصيدة الفخر "اللاّميّة":

يَا نَجْلَ عَامِرَ سِرْ بِنَا واِطْوِ السَّرَى — لَيْلاً لَعَلَّ الدَّهْرَ يُدْنِي مَنْزِلِـي
يَا نَجْلَ عَامِرَ سِرٌّ غُرِسَتْ النَّخْلُ فِي — أَوْطَانِهَا تَجْنِي كَطَعْمِ السَّلْسَلِ
يَا نَجْلَ عَامِرَ طَالَ قَوْلِي إِنَّنِـي — أَحْمِي الحِمَى يَوْمَ الوَغَى بِالمِنْصَلِ
يَا نَجْلَ عَامِرَ دَارُنَا مَعَ دَارِكُـمْ — قَدْ عُمِّرَتْ مِنْ بَعْدِنَا بِالحَنْظَـلِ[1]

لاشكّ، أنّ تكرار عبارة "يا نجل عامر"، التي تشير إلى زعيم[2] قبيلة "بني عامر" الموالية لأبي حمّو، ساعدت على تأكيد لوعة الشّاعر وحرقته لمفارقة الوطن، بسبب استيلاء بني مرين عليه.

ويفتخر أبو حمّو، بتمكّنه من إحياء دولة أجداده وإعادة بعثها من جديد، فيكرّر الفعل "أحي" على التّوالي، يقول[3]:

أَحْيَا وأَعَادَ قَبِيلَ أَبِـي — مِنْ عَبْدِ الوَادِ أُولِي الأَسَـلِ
أَحْيَاهَا بِي وبِأَعْرَابِـي — وَ أَنَا الزَّابِي والدَّوْلَـةُ لِـي
بِي أَحْيَاهَا، بِي أَنْشَأَهَـا — لِـي أَعْطَاهَـا، أَزَلَ الأَزَلِ

و في مقام آخر، يكرّر الشّاعر الفعل "هجر" ومشتقّاته ليؤكّد من خلاله مدى تأثّره بهجران الحبيبة، يقول[4]:

كَمْ تَهْجُرُونِي وهَجْرِي لاَ يَحِلُّ لَكُمْ — اَلْمَوْتُ أَهْوَنُ مِنْ بَعْدِي وهِجْرَانِي

كما يكرّر الشّاعر، كلمة "الهوى" معبّرا بها عن حالة وجده وولهه، يقول[5]:

أَنَا جَلَبْتُ الهَوَى حَتَّى بُلِيتُ بِـهِ — وَ خَاضَ بَحْرَ الهَوَى قَلْبِي وجُثْمَانِي

---

[1] **الحنظل**: الشّجر المرّ. أنظر: **ابن منظور**. لسان العرب. مادّة: (حنظل).

[2] **عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 297.

[3] **أبو حمّو موسى الثّاني**. واسطة السّلوك في سياسة الملوك. 06.

[4] **عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 313.

[5] **عبد الحميد حاجيات**. المصدر نفسه. 313.

وفي سياق وصف المعارك، وما يحيط بها من أحداث، يعمل الشّاعر على تكرار كلمة "خيل"، مثلما يكرّر كلمة "صفّ" في صيغ مختلفة لتعميق معنى الاستعداد للحرب، يقول:

نُطَارِدُ فِيهَا الخَيْلَ بِالخَيْلِ مِثْلَهَا      فَكَانَ عَلَى الأَعْدَاءِ كَرَّ الهَزَائِمِ[1]

ويقول مردفا:

وَصَفُّوا صُفُوفًا ثُمَّ صَفَّتْ صُفُوفُنَا      وَخَطَّ بِهَا الخَطْيُ بَيْنَ الحَلاَقِمِ

ويؤكّد الشّاعر، في بيت آخر على قلّة صبره أمام من يحبّ قائلا[2]:

يَا أَحْسَنَ النَّاسِ مَالِي عَنْكَ مُصْطَبَرٌ      وَ كَيْفَ صَبْرِي وصَبْرِي اليَوْمَ أَعْيَانِي

وقد استخدم أبو حمّو، التّكرار للتّعبير عن عميق حزنه، وشديد ألمه لفقد والده، وذلك من خلال ترديد اسمه[3]:

يَا فَقْدَ يُوسُفَ مَا أَبْقَيْتَ لِي جَلَدًا      يَا فَقْدَ يُوسُفَ إِنَّ الصَّبْرَ عَنْكَ عَفَا
مَا مِثْلَ يُوسُفَ مَفْقُودٌ لِفَاقِدِهِ      وَ لاَ كَمُوسَى أَخُو فَقْدَ إِذَا وُصَفَا
أُصِيبَ بِالمُعْضِلِ الأَدْمَى بِوَالِدِهِ      كَفَقْدِ يُوسُفَ لَكِنْ حَتْفَ ذَا جَحَفَا
يَا قَبْرَ يُوسُفَ لاَ تَهْدُوكَ هَامِيَةٌ      مِنَ الغَمَامِ ولاَ زَالَ الثَّرَى رَعِفَا

أمّا المولديّات، فظاهرة التّكرار فيها واسعة الانتشار، ففي سياق طلب المغفرة والصّفح من الخالق عزّ وجلّ، يستخدم الشّاعر التّكرار في أسلوب النّداء، مردّدا كلمة "ربّ":

يَا رَبِّ أَنِلْنِي مِنْكَ رِضًى      فَرِضَاكَ الفَوْزُ لِمُغْتَنِمِ
يَا رَبُّ سَأَلْتُكَ تَغْفِرْ لِي      بِشَفِيعْ الخَلْقِ مِنَ الأُمَمِ[4]

وللتّعبير عن فرط الشّوق والحنين إلى البقاع المقدّسة، يردّد الشّاعر كلمة "سلام" في ثلاثة أبيات متتالية:

سَلاَمٌ عَلَى مَنْ بِالبَقِيعِ وبِالحِمَى      سَلاَمٌ عَلَى البَدْرِ المُنِيرِ التُّهَامِيْ
سَلاَمٌ مِنَ المُشْتَاقِ مُوسَى بْنُ يُوسُفَ      عَلَى خَيْرِ خَلْقِ اللهِ هَادٍ ومَهْدِيٌّ

---

[1] **عبد الحميد حاجيات.** المصدر نفسه. 302.

[2] **عبد الحميد حاجيات.** المصدر نفسه. 313.

[3] **عبد الحميد حاجيات.** المصدر نفسه. 337.

[4] **أبو حمّو موسى الثّاني.** واسطة السّلوك في سياسة الملوك. 10.

سَلاَمُ مُشَوَّقٍ أَثْقَلَتْهُ ذُنُوبِــهِ  وأُخِرَّ عَنْ سَيْرٍ وقُيِّدَ عَنْ سَعْيٍّ[1]

ويقول في نفس المضمون:

قَلْبِي اِنْفَطَرَا والدَّمْعُ جَـرَى  وَ الرَّكْبُ سَرَى نَحْوَ العَلَـمِ

قَلْبِي بِنَوَاهْ أَسِيرُ هَــوَاهْ  فَيَا شَوْقَاهْ إِلَـى الخِيَّـمِ[2]

ومجمل القول، أنّ أبا حمّو اتّخذ من ظاهرة التّكرار وسيلة ليؤكّد أفكارا معيّنة، أو يعبّر عن مشاعر خاصّة، وقد وردت هذه الظّاهرة الأسلوبيّة بصورة مكثّفة في شعره.

يُستخلص، ممّا تقدّم، أنّ الشّاعر قد وفّق في انتقاء اللّغة المعبّرة، والأسلوب الواضح لإخراج مادّته الشّعريّة في شكل مناسب، وقد كانت اللّغة الشّعريّة والأسلوب في شعره شبيهين بما وجد في إنتاج الشّعراء الأوائل، لا من حيث النّوع فقط، بل من حيث التّوظيف أيضا.

ويبقى بناء القصيدة ولغتها الشّعريّة وأسلوبها في حاجة إلى التعرّف على الصّورة الشّعريّة، بأنواعها وخصائصها، حتّى يمكن الحكم على شعر أبي حمّو بشكل دقيق وكامل.

### 3- الصّــورة الشّعريّـــة:

هي مصطلح تناوله العديد من النقّاد قديما وحديثا[3]، فقديما كان ينظر إليها من منظور بلاغيّ، من حيث هي تشبيه واستعارة، وقد اعتبرت وسيلة لتقريب المعنى، نتيجة ربط الشّاعر المعنويّ بالمحسوس لإيصال المفاهيم إلى المتلقّي.

يقول الجاحظ: «إنّما الشّعر صناعة وضرب من النّسيج وجنس من التّصوير»[4]، وكذلك يرى الجرجاني أنّ وسيلة الشّعر هي التّصوير، يقول: «و معلوم أنّ سبيل الكلام سبيل التّصوير والصّياغة، وأنّ سبيل المعنى الذي يعبّر عنه، سبيل الشّيء الذي يقع التّصوير والصّوغ فيه، كالفضّة والذّهب، يصاغ منهما خاتم أو سوار»[5].

---

(1) **يحي بن خلدون**. بغية الروّاد. 2: 67.

(2) **أبو حمّو موسى الثّاني**. واسطة السّلوك في سياسة الملوك. 11.

(3) تعريف الصّورة في القديم. أنظر: **عبد القاهر الجرجاني**. أسرار البلاغة. تصحيح: **الشّيخ محمّد عبده**. علّق حواشيه: **محمّد رشيد رضا**. دار الكتب العلميّة. بيروت. لبنان. ط1. 1409هـ-1988. ص294-295. و**قدامة بن جعفر**. نقد الشّعر. تحقيق وتعليق: **عبد المنعم خفاجي**. دار الكتب العلميّة. بيروت. لبنان. (د.ت). ص64- 65. أمّا تعريفها لدى النقّاد المحدثين. أنظر: **عبد الله محمّد محسن**. الصّورة الفنيّة في التّراث النّقدي والبلاغي عند العرب. المركز الثّقافي العربي. بيروت. ط3. 1992. ص323.

(4) **الجرجاني**. دلائل الإعجاز. 254.

(5) **الجاحظ**. الحيوان. تحقيق: **عبد السّلام. هارون**. مطبعة مصطفى البابي الحلبي. القاهرة. 1948. ج3. ص132.

وقد تطوّرت التّأويلات الخاصّة بالصّورة الشّعريّة، فربط تحليلها بالحالة النّفسيّة للشّاعر، لما لهذه الأخيرة من أهميّة في اختيار الصّور ورسمها، وبالتّالي عدم الاكتفاء بتحليل المعنى الدّلالي لها فحسب[1].

وتعدّ الصّورة ذات صلة وثيقة بالتّجربة الشّعريّة، فالوسيلة «الفنيّة الجوهريّة لنقل التّجربة هي الصّورة»[2]، و يعرّفها أحمد حسين الزيّات قائلا: «و المراد بالصّورة إبراز المعنى العقلي، أو الحسّي في صورة محسّة، وهي خلق المعنى والأفكار المجرّدة، أو الواقع الخارجي من خلال النّفس خلقا جديدا»[3].

وحتّى نتمكّن من التعرّف على الصّورة الشّعريّة لدى أبي حمّو، سنتناول أوّلا مصادرها، وسنركّز على أهمّ مصدرين: المصدر القرآني والشّعر القديم، ثمّ نحاول استخراج بعض الصّور من أجل تصنيفها وتحليلها، وستضمّ الدّراسة محورين: الصّورة البيانيّة والصّورة البديعيّة.

**أ- مصادر الصّورة الشّعريّة:**

لا يخفى على أحد، مدى تأثّر الشّعراء جميعا، بمقروئيّاتهم، وما يترسّب في الذّاكرة، من أفكار أو صور أو حتّى إحساس بالأشياء ينتج عن الاحتكاك بإنتاج الآخرين.

وكما هو معروف، يستثمر الشّعراء دائما ما اطّلعوا عليه من إبداع، حضي عندهم بالإعجاب والتّقدير لمستواه الفنيّ والأدبيّ، ليسهموا بمعيّة ما يمتلكونه من مكتسبات فنيّة في خلق إنتاج جديد، يحمل أفكارهم وانفعالاتهم وأساليبهم، لكنّه يعكس في نفس الوقت تأثّرهم بما قرؤوه من قبل.

و يعدّ القرآن الكريم، والشّعر العربي القديم أهمّ مصدرين نهل منهما الشّعراء العرب قديما وحديثا.

**أ-1. القرآن الكريم:**

لا شكّ، أنّه كان للقرآن الكريم أثره الواضح في شعر أبي حمّو، فقد كان مصدر صور عديدة تضمّنها شعره، خاصّة المولديّات لما لها من ارتباط كبير بالموروث الدّيني الإسلامي، وفي مقدّمته القرآن الكريم.

---

[1] أنظر: **القرطاجنّي**. منهاج البلغاء. 98.

[2] **يحي الجبوري**. الشّعر الجاهلي (خصائصه وفنونه). مؤسّسة الرّسالة. ط3. 1983. ص442 .

[3] **أحمد حسين الزيّات**. دفاع عن البلاغة. عالم الكتب. ط2 .1967. ص62.

وممّا نستحضره من صور في هذا المقام، وصف الشّاعر لإحدى معجزات الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، وهي رحلة الإسراء والمعراج، وما تمثّله من عظيم قدره، عليه الصّلاة والسّلام عند خالقه، يقول[1]:

وَ أَسْرَى بِهِ لَيْلَـةَ الإِرْتِقَـا تَجِلُّ عَنِ الوَصْفِ أَنْ تُحْسَبَـا

وقوله أيضا[2]:

وَ لِلَّهِ مِنْ قَلْبٍ لَهُ غَيْرُ نَائِـمٍ وَ جِسْمٍ إِلَى السَّبْعِ السَّمَاوَاتِ عَارِجِ

وهاتان الصّورتان، قد استوحيتا من قوله تعالى:{ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ }[3].

كما يصوّر لنا إحساسه برعاية الله التي تحيط به، وهو يخوض حروبه، فيقول[4]:

إِنْ كَانَ اللهُ ثَالِثَنَا بِهَـا وَ لَكَمْ لَهُ عَقْدُ الشَّدَائِدِ مِنْ يَـدِ

وهذه الصّورة تحيلنا إلى قوله تعالى:

{ ِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا }[5].

ومن الصّور المستوحاة من القرآن الكريم، وصفه لتبشير الرّسل والكتب السّماويّة بالنّبيّ محمّد صلّى الله عليه وسلّم، حيث قال[6]:

نَبِيٌّ لَهُ فَضْلٌ عَلَى كُلِّ مُرْسَلٍ أَتَتْ أَلْسُنُ الذِّكْرَى بِذَاكَ فِصَاحَا

والصّورة مستوحاة من قوله تعالى:{ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ }[7]

كما صوّر الشّاعر، انصراف شبابه في الذّنوب والآثام، قائلا[8]:

---

[1]**عبد الحميد حاجيات.** أبو حمّو موسى الزّياني. 361.

[2]**عبد الحميد حاجيات.** المصدر نفسه. 376.

[3]**الإسراء.** آ:**01.**

[4]**عبد الحميد حاجيات.** أبو حمّو موسى الزّياني . 330.

[5]**التّوبة. جزء من الآية: 40.**

[6]**حاجيات.عبد الحميد.** أبو حمّو موسى الزّياني. 353.

[7]**الأعراف. جزء من الآية: 157.**

[8]**عبد الحميد حاجيات.** أبو حمّو موسى الزّياني. 366.

مَضَى العُمْرُ يَا حَسْرَتِي فِي الظَّـلاَ      لِ واشْتَعَلَ الرَّأْسُ مِنْهُ مَشِيبَـا

ويتّضـح أنّ أبـا حمّـو اسـتوحى صـورته مـن سـورة مـريم، يقـول الله عـزّ وجـلّ: { قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً }[1]

ويعود أبو حمّو بالذّاكرة إلى القرآن الكريم مرّة أخرى، ليصوّر أحد مشاهد يوم القيامة:

خَشَيْتُ المَعَاصِي بِيَوْمِ القِصَاصِ      إِذَا مَا النَّوَاصِي تَشِيبُ مَشِيبَـا[2]

والصّورة مستلهمة من قوله تعالى:

{ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً }[3].

وفي موضـع آخر، يشير أبو حمّو إلى المكانـة الرّفيعة التي حضي بها سيّدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم عند المولى عزّ وجلّ، فيقول[4]:

أَجَلُّ شَفِيعٍ مَكِينٍ رَفِيــعٍ      أَتَى فِي رَبِيعٍ فَأَحْيَا القُلُوبَـا

و قد استوحى الشّاعر البيت من قول ربّ العزّة:{ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ }[5].

كما اتّخذ أبو حمّو، القرآن الكريم مصدرا لرسم صور عديدة، تختصّ بذكر نِعَمِ الله عزّ وجلّ على أنبيائه ورسله وذلك في مولديّته "الجيميّة"، حيث بدأها مصوّرا دعاء سيّدنا أيّوب عليه السّلام يشكو ضرّه وكربه للّه، وهو يطلب الفرج من المولى عزّ وجلّ:

يَا كَاشِفَ الضُرِّ عَنْ أَيُّوبَ حِينَ دَعَا      قَدْ مَسَّنِي الضُرُّ فَاكْشِفْ كَرْبَ كُلِّ شَجِيْ[6]

و هذه الصّورة تحيلنا إلى قوله تعالى:{ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ }[7].

ثمّ يُتبع البيت السّابق، بصياغة ثانية، لملخّص نجاة سيّدنا نوح عليه السّلام في سفينته، وذلك في الشّطر الأوّل من البيت، أمّا الشّطر الثّاني، فشمل التّذكير بحادثة نجاة سيّدنا يونس عليه السّلام، يقول[8]:

---

(1) **مريم**. آ: **4**.

(2) **يحي بن خلدون**. بغية الروّاد. 2: 163.

(3) **المزمّل**. آ: **17**.

(4) **عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 365.

(5) **التّكوير**. آ: **20-21**.

(6) **عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 363

(7) **الأنبياء**. آ: **83**.

(8) **عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 363

أَنْتَ المُنْجِي لِنُوحٍ فِي سَفِينَتِـهِ وَ مُخْرِجُ يُونُسَا مِنْ ظُلْمَةِ اللُّجَجِ

و قد عاد في الصّورة الأولى إلى قوله تعالى:

{ وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ}[1]

كما عاد إلى سورة الصّافّات، ليستخلص قصّة يونس عليه السّلام، يقول عزّ وجلّ:{ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ{139} إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ{140} فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ{141} فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ{142} فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُسَبِّحِينَ{143} لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}.[2]

ويسترسل الشّاعر، في استلهام صوره من القرآن الكريم، حيث عاد بنا إلى سورة "يوسف" ليرسم مشهد سيّدنا "يوسف" عليه السّلام، وقد رمي به في الجبّ:

يَا مَنْ وَقَى يُوسُفَ الصِدِّيقَ كُلَّ أَذَى لَمَّا رَمَوْهُ بِجُبٍّ ضَيِّقٍ حَـرِجِ[3]

ومصدر هذه الصّورة، قول الله تعالى:{ قَالَ قَآئِلٌ مَّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ}[4]

أمّا في البيت الذي يليه، فيستلهم أبو حمّو من سورة "يوسف" دائما، ليستجمع ملامح صورته، التي تتحدّث عن معاناة سيّدنا "يعقوب" عليه السّلام لافتقاده "يوسف" عليه السّلام، وكيف عاد إليه بصره، حين جاءوه بقميص ابنه، يقول[5]:

أَجَابَ يَعْقُوبَ لَمَّا أَنْ بَكَى وشَكَا وَ جَاءَهُ مِنْ لُطْفٍ لَمْ يَخْلُهُ يَجِـي

وَ عَادَ بَصِيرًا حِينَ هَبَّ لَـهُ نَسِيمُ نَشْرِ القَمِيصِ الطَيِّبِ الأَرَجِ

يقول المولى عزّ وجلّ حول هذه الحادثة:{ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ{94} قَالُواْ تَاللّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ{95} فَلَمَّا أَن جَاء الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}[6].

---

[1] **الأنبياء**. آ: **76**.

[2] **الصّافّات**. آ: **139- 144**.

[3] **عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 363.

[4] **يوسف**. آ: **10**.

[5] **عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 363.

[6] **يوسف**. آ: **94-96**.

كما استعان أبو حمّو بسورة "الأنبياء"، ليعيد إلى الأذهان مشهد سيّدنا "إبراهيم" عليه السّلام، وقد تحوّلت النّار التي رمي فيها بردا وسلاما عليه بإذن الله وأمره، يقول[1]:

نَجَّى مِنَ النَّارِ إِبْرَاهِيمَ حِينَ رُمِـيَ          فِيهَا وعَادَتْ سَلاَمًا دُونَ مَا وَهَـجِ

والمشهد مستوحى من قوله تعالى:{ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ{68} قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ}[2].

وآخر ما نستدلّ به، تصوير أبي حمّو مشاهد من قصّة سيّدنا "موسى" عليه السّلام، حيث عاد إلى صورة "موسى" عليه السّلام، وقد وضعته أمّه في اليمّ امتثالا للرّؤيا الصّادقة:

يَا مَنْ تَكَفَّلَ مُوسَى وهُوَ مُنْتَبَـذٌ          بِاليَمِّ فِي جَوْفِ ثَابُوتٍ عَلَى لُجَـجِ[3]

والصّورة مأخوذة من قوله تعالى:{إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى{38} أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي}[4]

ويواصل الشّاعر، سرد أحداث قصّة "موسى" عليه السّلام، ليصوّر ألم أمّه على فراقه وشدّة شوقها إليه عليه السّلام:

وَأُمُّهُ مِنْ أَلِيمِ الشَّوْقِ وَالِهَـةٌ          فُؤَادُهَا فَارِغٌ مِنْ شِدَّةِ الوَهَـجِ [5]

وأصل المشهد قول الله تعالى:{ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}[6].

ويختم الشّاعر سلسلة هذه الأبيات، برسم صورة أمّ "موسى" عليه السّلام، وقد أعاد لها الله ابنها، وكرّمه وجعله من المرسلين:

يَا مَنْ أَعَادَ لَهَا مِنْ بَعْدِ مَا يَئِسَتْ          مُوسَى وقَرَّبَهُ فَي المُرْسَلِينَ نَجِيٌّ [7]

---

[1]**عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 363.
[2]**الأنبياء**. آ: **68-69**.
[3]**عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 363.
[4]**طه**. آ: **38- 39**.
[5]**عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 363.
[6]**القصص**. آ: **10**.
[7]**عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 363.

والصّورة مستلهمة، من قوله عزّ وجلّ في سورة القصص:{ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}[1].

وما نخلص إليه، من خلال ما تقدّم، أنّ القرآن الكريم كان مصدرا مهمّا وموردا أساسيّا، نهل منه الشّاعر ليشكّل كمّا معتبرا من صوره الشّعريّة.

**أ-2. الشّعر القديم:**

إذا كان تأثّر أبي حمّو واضحا، في استعانته بالقرآن الكريم، لرسم صوره الشّعريّة، فالأمر لا يختلف كثيرا مع الشّعر القديم، الذي يعدّ إلى حدّ اليوم، أصل الشّعر العربيّ وأجوده، بل والجامع لعناصر القصيدة العموديّة الأصيلة.

لقد اتّخذ أبو حمّو، من أمّهات القصائد العربيّة وأشهرها مرجعيّة لرسم عديد الصّور الشّعريّة، التي تعجّ بها قصائده، وأوّل ما نستشهد به في مقامنا هذا قول الشّاعر[2]:

وَقَفْتُ بِهَا مُسْتَفْهِمًا لِخِطَابِهَا ... وَ أَيُّ خِطَابٍ لِلصِّلاَدِ الصَّلاَدِمِ

فهذه الصّورة الطّلليّة التي توغّل في عمق الميراث الشّعري القديم، تحيلنا إلى قول بشّار بن برد:

أُسَائِلُ أَحْجَارًا ونُؤْيًا مُهَدَّمًا ... وَ كَيْفَ يُجِيبُ القَوْلَ نُؤْيٌ وأَحْجَارُ[3]

فالمشهد في البيتين واحد، فكلا الشّاعرين، يقف ببقايا ديار الحبيب، متسائلا حول الحال التي آلت إليها، بعد مغادرة ساكنيها، ويحاول استنطاق الأطلال، لكنّ لا مجيب، وكلاهما يستوقف نفسه، ليذكّرها أنّ الأحجار لا تنطق ولا تجيب.

ونجد الشّاعر يركّب صورة أخرى، لا تختلف عن سابقتها في الشّعر القديم، حيث يظهر طيف عنترة، يقول أبو حمّو:

وَ كَمْ لَيْلَةٍ بِتْنَا عَلَى الجَدْبِ والطَّوَى ... نُرَاقِبُ نَجْمَ الصُّبْحِ فِي لَيْلٍ عَاتِمِ[4]

وأصل الصّورة لا يختلف عن قول عنترة بن شدّاد:

وَ لَقَدْ أَبِيتُ عَلَى الطَّوَى وأَظَلُّهُ ... حَتَّى أَنَالَ بِهِ كَرِيمَ المَأْكَلِ[5]

---

[1] **القصص**. آ: **13**.

[2] **أبو حمّو موسى الثّاني**. واسطة السّلوك في سياسة الملوك. 15.

[3] **حنا فاخوري**. منتخبات الأدب العربي.المكتبة البوليسية. بيروت. لبنان. ط5 .1970. ص148.

[4] **أبو حمّو موسى الثّاني**. واسطة السّلوك في سياسة الملوك. 16.

[5] **عنترة بن شدّاد**. الدّيوان. دار بيروت للطّباعة والنّشر. بيروت. 1978. ص57.

فالصّورتان أفضل تعبير عن عزّة النّفس والقناعة، في مواجهة اللّحظات القاسية في الحياة.

ونعود مرّة أخرى إلى الصّور الطّلليّة، لنلاحظ تأثّر الشّاعر بالنّابغة الذّبياني، حين يصوّر مشهد الباحث عن مجيب بين معالم ربوع خالية، قائلا[1]:

سَأَلْتُ رُبُوعَ الدَّارِ فِيهَا فَلَمْ أَجِدْ    بِهَا مَعْلَمًا يَأْتِي إِلَيَّ بَعَالِمِ

فهذا البيت يحيلنا إلى قول النّابغة[2]:

وَقَفْتُ أُصَيْلاَلاً أُسَائِلُهَا    عَيَّتْ جَوَابًا ومَا بِالرَّبْعِ مِنْ أَحَدِ

إنّ روح النّابغة لتتمثّل في بيت أبي حمّو، الذي كرّر نفس الكلمات، إمّا تامّة صريحة مثل: سألت وربوع، وإمّا المعنى مثلما هو الحال في الشّطر الثّاني من البيتين.

ويظهر تأثّر الشّاعر جليّا بأمرىء القيس في قوله[3]:

مِكَرٌّ بِيَوْمِ الحَرْبِ لاَ يَشْتَكِي الوَنَى    مِفَرٌّ إِذَا طَالَتْ عِظَامُ الهَزَائِمِ

فقد استوحى جزء من الصّورة، التي وصف بها امرئ القيس جواده:

مِكَرٌّ مِفَرٌّ، مُقْبِلٌ، مُدْبِرٌ، مَعًا    كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ [4]

وتتوالى الصّور المستنبطة من الشّعر القديم، فلننظر إلى قول أبي حمّو:

وَأَنَا مُوسَى وأَبُو حَمُّو    أَصْلُحُ لِلْمُلْكِ ويَصْلُحُ لِي[5]

فعندما نتمعّن هذا البيت وكأنّنا نقرأ قول أبي العتاهيّة:

أَتَتْهُ الخِلاَفَةُ مُنْقَادَةً    إِلَيْهِ تُجَرِّرُ أَذْيَالَهَا

وَ لَمْ تَكُ تَصْلُحُ إِلاَّ لَهُ    وَ لَمْ يَكُ يَصْلُحُ إِلاَّ لَهَا[6]

فنقاط التّلاقي بين بيت الشّاعر والبيت الثّاني لأبي العتاهيّة جليّة، في المفردات والمعنى، فأبو العتاهيّة كان يرى بأنّ الخلافة لا تصلح إلاّ لممدوحه، وكذلك افتخر أبو حمّو بنفسه.

---

(1) **عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 301.

(2) **النّابغة الذّبياني**. الدّيوان. تحقيق: **البستاني**. دار بيروت للطّباعة والنّشر. بيروت. 1982. ص30.

(3) **عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني.301.

(4) **امرئ القيس**. الدّيوان. تحقيق: **ابن أبي شنب**. الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع. 1974. الجزائر. ص60.

(5) **أبو حمّو موسى الثّاني**. واسطة السّلوك في سياسة الملوك. 06.

(6) **حنا فاخوري**. منتخبات الأدب العربي. 172.

وإذا قرأنا بيت أبي حمّو الذي يشيد فيه بأهميّة القوّة والسّلاح، قائلا[1]:

السَّيْفُ أَجْدَرُ والخَطْيُ مِنْ خُطَبِ ... فِيهَا اللُّجَاجُ وقَوْلٌ غَيْرُ مُنْتَسِبِ

فكأنّ الشّاعر يستنطق قول أبي تمّام:

السَّيْفُ أَصْدَقُ إِنْبَاءً مِنَ الكُتُبِ ... فِي حَدِّهِ الحَدُّ بَيْنَ الجِدِّ واللَّعِبِ[2]

فالصّورتان متماثلتان، فكلاهما ينتصر للقوّة والسّيف على حساب الكتب والخطب، ونلاحظ أنّ أبا حمّو يستخدم نفس الوزن والرويّ المستخدمين في قصيدة أبي تمّام.

كما نستشفّ تأثّر أبي حمّو بالشّاعر الجاهليّ المهلهل، عندما استعار منه، صورة المنازل والرّبوع التي تبكي الفقيد المتوفّى، يقول الشّاعر في رثاء أبيه:

فَبَكَيْتُ مِنْ أَسَفٍ لِذَاكَ كَمَا بَكَتْ ... حُزْنًا عَلَيْهِ مَنَازِلِي ورُبُوعِي[3]

وكذلك قال المهلهل في رثاء أخيه كليبا:

أَضْحَتْ مَنَازِلُ بِالسِّلاَنِ قَدْ دُرِسَتْ ... تَبْكِي كُلَيْبًا، ولَمْ تَفْزَعْ أَقَاصِيهَا[4]

وفي رثاء أبيه دائما، يقول أبو حمّو:

لَوْ كَانَ يُعْرَضُ لِلْفِدَاءِ فَدَيْتُهُ ... بِالدُّرِّ ثُمَّ بِالعَجْسَدِ مَطْبُوعِ[5]

ففي هذا البيت تظهر ملامح الشّريف الرّضي، وهو يؤكّد على شدّة تعلّقه بفقيده، يقول:

مَا كُنْتُ أَدَّخِرُ فِي فِدَاكَ رَغِيبَةً ... لَوْ كَانَ يَرْجِعُ مَيِّتٌ بِفِدَاءْ[6]

فالصّورة واحدة، سواء لفظا أو معنى، فالبيتان يلتقيان في كلمة فداء، وهي أساسيّة فيهما، كما يتطابق المعنى عند أبي حمّو والشّريف، فهما مستعدّان لبذل كلّ نفيس في سبيل إعادة فقيديهما للحياة، لكنّهما يدركان ألاّ سبيل لذلك.

---

(1) **يحي بن خلدون**. بغية الروّاد. 2: 156.

(2) **أبو تمّام**. الدّيوان. شروح: **إليا الحاوي**. دار الكتاب اللّبناني. بيروت. ط1. 1981. ص22.

(3) **يحي بن خلدون**. بغية الروّاد. 2: 105.

(4) **حنا فاخوري**. منتخبات الأدب العربي.06.

(5) **يحي بن خلدون**. بغية الروّاد. 2: 106.

(6) **الشّريف الرّضي**. نوابغ الفكر العربي. تأليف: **حسن محمّد عبد الغني** . دار المعارف. مصر. د ت. ص106

ويظهر اطّلاع أبي حمّو على الشّعر العربيّ القديم، في رسمه لصورة الحياة الفانية، التي لا تبقي حيّا إلاّ وأزاحته من أمامها، رغم ما قد يصل إليه الإنسان من عزّ وجاه وقوّة، وما الأمم العظيمة السّابقة إلاّ أكبر دليل، يقول[1]

أَيْنَ الذِينَ بَنُوا مِنْ قَبْلِنَا ونَـوُوا          وَ شَيَّدُوا أَطْمًا واسْتَوْطَنُوا غُرَفَا

إنّنا لا نجد كبير اختلاف، بين هذا الذي قاله أبو حمّو وما قاله قبله أبو نوّاس:

أَيْنَ مَا كَـانَ قَبْلَكُـمْ          مِنْ ذَوِي البَأْسِ والخَطَـرِ[2]

فالتّساؤل مشترك، يتمثّل في تكرار "أين" واتّحاد المعنى، فهما يريان أنّ الفناء مصير محتّم، لكلّ الأفراد والأمم.

ويتقاطع الشّاعر مع الفرزدق، عندما يركّب صورة فرسان جيشه، الذين يتشبّهون في شجاعتهم بالأسود، يقول[3]:

فَكَأَنَّهُمْ أُسْدُ الشَّرَى فِي غَابِهَا          وَ السَّيْفُ قَرْعُ زِنَادِهْ لَمْ يُصْلَـدِ

فالصّورة التي رسمها أبو حمّو، تكاد تكون نفس الصّورة التي شكّلها الفرزدق في قوله[4]:

هُمُ الغُيُوثُ إِذَا مَا أَزْمَةُ أَزِمَـتْ          وَ أُسْدٌ أُسْدُ الشَّرَى والبَأْسُ مُحْتَدِمُ

فتطابق الرّسمين هنا واضح وجليّ، أردفه تطابق في لفظ أسد الشّرى، وغاية المشهدين، الإشادة بشجاعة وبسالة المقاتلين أثناء المعركة.

وما نخلص إليه، أنّ تأثّر أبي حمّو بالشّعر القديم واضح، فالشّاعر وعلى غرار بقيّة الشّعراء المغاربة، كان مبهورا ومعجبا بالشّعر العربيّ القديم، لذلك استقى بعض صوره منه، ونحن لا نستطيع أن نتوقّع من الشّاعر أن يكون عصاميّا، فالشّعر عموما لا يخرج عن علاقة التّأثير والتّأثّر.

**ب- أنواع الصّورة:**

للصّورة الشّعريّة أنواع كثيرة، فهي تنقسم إلى قسمين:

---

[1] **عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 338.

[2] **أبو نوّاس**. الدّيوان. تحقيق: **أحمد عبد المجيد الغزالي**. دار الكتاب العربي. بيروت. د ت. ص612.

[3] **عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 329

[4] **الفرزدق**. الدّيوان. دار بيروت للطّباعة والنّشر. 1980. مج 2. ص181.

صور بيانيّة، وتمثّلها الاستعارة والتّشبيه والمجاز والكناية، وصور بديعيّة وتنحصر في أنواع المحسّنات البديعيّة من طباق وجناس ومقابلة إلى غير ذلك.

وسنحاول في هذه الدّراسة، التطرّق للنّوعين البياني والبديعي، لذلك ارتأينا التّركيز على التّشبيه والاستعارة في الصّور البيانيّة ثمّ التوقّف عند الطّباق والجناس في الصّور البديعيّة.

**ب-1. الصّورة البيانيّة:**

**1) التّشبيه:**

حضي التّشبيه، بأهميّة خاصّة وعناية فائقة لدى النقّاد العرب منذ القديم، كما اعتبر مقياسا للمفاضلة بين الشّعراء، وذلك لأنّه يبرز قدرة الشّاعر على الإبداع، فهو يبذل جهده ويعمل فكره وخياله من أجل خلق العلاقات بين الأشياء، أو على الأقلّ اكتشافها.

ويعرّفه ابن رشيق بأنّه: «صفة الشّيء بما قاربه وشاكله، من جهة واحدة أو جهات كثيرة، لا من جميع جهاته، لأنّه لو ناسبه مناسبة كليّة لكان إيّاه»[1].

والمطّلع على شعر أبي حمّو، يجده غنيّا بالصّور التّشبيهيّة، حاول من خلالها تقديم أحسن ما عنده لإيصال أفكاره وأحاسيسه للمتلقّي، وتوضيح المعنى، كما أراد أن يثبت براعته في التّصوير.

ومن الصّور التّشبيهيّة الجميلة قول الشّاعر:

وَ دَارُوا بِأَسْوَارِ المَدِينَةِ كُلِّهَا  كَدَوْرِ سِوَارٍ فَوْقَ أَبْهَى المَعَاصِمِ[2]

حيث شبّه الشّاعر، تطويق جيشه لمدينة تلمسان بعد انتصاره، بسوار يدور حول معصم امرأة جميلة، وقد أبدع أبو حمّو في خلق هذه العلاقة ما بين الجيش والسّوار، كما أوحى بتشارك اليد وتلمسان في صفة الجمال.

ونجده في نموذج آخر، يفتخر أمام السبيّع المستجير به قائلا[3]:

وَ هَذَا جَوَابٌ عَنْ نِظَامِكَ أَنَّنَا  بَعَثْنَا بِهِ كَاللُّؤْلُؤِ المُتَنَاظِمِ

(1) **ابن رشيق**. العمدة. 1: 286.

(2) **أبو حمّو موسى الثّاني**. واسطة السّلوك في سياسة الملوك. 18.

(3) **عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 321.

و هي صورة حسيّة في طرفيه، غير أنّها بالإضافة إلى المشهد البصري، تنقل إلينا اعتداد أبي حمّو بنفسه، وبما حازه من ملكة شعريّة، وقدرة على النّظم.

كما استخدم الشّاعر التّشبيه البليغ، ليرسم لنا صورة متقنة لجواده الأصيل، يقول[1]:

وَ أَدْهَمٌ مَتْنُهُ ولَيْلٌ غُرَّتُـهُ       صُبْحٌ فَيَا حُسْنَهُ مِنْ مَنْظَرٍ عَجَبِ

نلاحظ براعة أبي حمّو، في تشبيه لون جواده الأسود، باللّيل ثمّ يشبّه غرّة الحصان، التي تتوسّط جبينه بالصّبح المنير دلالة على شدّة بياضها.

ولا يخرج أبو حمّو عن الصّور الحسيّة، إذ إنّه يربط بين جمال الجياد العربيّة وجمال النّساء العربيّات، فيقول[2]:

عَلَى سَوَابِقَ خَيْلٍ ضُمَّرٍ عَـرَبٍ       تَزْهَى بِحِلْيَتِهَا كَالخُرَّدِ العَـرَبِ

فقد تصوّر الفرس العربي الأصيل، وهو في كامل زينته وأناقته كأنّه حسناء عربيّة تزهو بحليتها وديباجها.

وقد لاحظنا أنّ أغلب تشبيهات الشّاعر، تدور حول مفاخره في الميدان العسكري، يقول[3]:

بِعَسْكَرٍ لُجُبٍ ضَاقَ الفَضَاءُ بِـهِ       كَالبَحْرِ أَعْظِمْ بِهِ مِنْ عَسْكَر لُجُبِ

ويقول أيضا:

فَكَأَنَّهُمْ أُسُدُ الشَّرَى فِي غَابِهَـا       وَ السَّيْفُ قَرْعُ زِنَادِهِ لَمْ يُصْلَـدِ[4]

فقد اعتمد في صورته الأولى، على مشهد البحر الواسع ليمثّل أعداد المقاتلين، وقد ضاقت بهم أرض المعركة.

أمّا في الصّورة الثّانية، فهو يشبّه بسالة وشجاعة أتباعه وتحكّمهم في مجريات المعركة، بقوّة الأسود التي تسيطر على الغابة، والشّاعر بهذه التّشبيهات يحاكي واقعه، فهو رجل حرب قبل أن يكون ملكا.

---

(1) **يحي بن خلدون**. بغية الروّاد. 2: 158.

(2) **عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 324.

(3) **عبد الحميد حاجيات**. المصدر السّابق. 324.

(4) **يحي بن خلدون**. بغية الروّاد. 2: 266.

هذا الواقع، الذي يظهر أيضا في مقدّماته الغزليّة، فجلّ تشبيهاته اعتمدت على الصّورة الحربيّة، لأنّ الشّاعر لا يستطيع أن يتملّص من كونه رجل حرب، يقول مشبّها العيون الجميلة بالسّيوف القاطعة:

وَ لِحَاظُهُنَّ صَوَارِمٌ مَسْلُولَـةٌ فَتَكَتْ بِأَلْبَابٍ ولَمَّا تُغْمَـدِ[1]

ولم يخل شعر أبي حمّو من استخدام الطّبيعة، كمصدر لبعض صوره التّشبيهيّة، غير أنّه لم يكثر منها، وهذا ما نستغربه، لأنّ تلمسان مقام ملكه، تتمتّع بطبيعة ساحرة ومناظر خلاّبة، ومردّ ذلك في اعتقادنا، أنّ معارك الشّاعر وحروبه العديدة، كان لها تأثيرها على خيال أبي حمّو، أكثر من مناظر تلمسان الجميلة، التي لم يملك حتّى الوقت الكافي للاستمتاع بها.

ومن أمثلة ذلك، قوله في تشبيه المباسم بالأقحوان:

وَ مَبَاسِمٌ كَالأُقْحُوَانِ تَخَالُهَـا دُرًّا بِسَمْطٍ فِي العَقِيقِ مُنَضَّـدِ[2]

وقوله أيضا في استعارة الحمرة من الورد، وهو يصف جواده:

أَوْ أَحْمَرٍ كَالوَرْدِ لَوْنُ أَدِيمِـهِ أَوْ أَشْقَرٍ مُتَجَلِّلٌ بِالعَجْسَـدِ[3]

و يستقي الشّاعر بعض تشبيهاته من القرآن الكريم ومن ذلك قوله[4]:

وَ أَشْهَبٍ كَالشِّهَابِ إِنْ رَمَيْتَ بِـهِ شَيْطَانَ عَدُوٍّ فِي الوَغَى تُصِـبِ

فهذه الصّورة المحكمة، الدّالّة على سرعة الجواد الفائقة أثناء المعركة، مستوحاة من قوله تعالى:

{حَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ{17} إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ}[5]

ونجد أبا حمّو في نموذج آخر، يجمع بين تشبيه واستعارة في بيت واحد، يقول:[6]

بَحْرٌ عَلَى البَرِّ مُرْتَجٌ غَوَارِبُـهُ مَنْ فَوْقَهُ قِطَعُ الرَّايَاتِ كَالسُّحُـبِ

---

[1]**يحي بن خلدون**. المصدر نفسه. 2: 265.

[2]**يحي بن خلدون**. المصدر نفسه. 2: 265.

[3]**يحي بن خلدون**. المصدر السابق . 2: 266.

[4]**يحي بن خلدون**. المصدر نفسه. 2: 158.

[5]**الحجر**. آ **17-18**.

[6]**يحي بن خلدون**. بغية الروّاد. 2: 158.

حيث استخدم الشّاعر الاستعارة التّصريحيّة في الشّطر الأوّل، حين شبّه الجيش بالبحر، ووظّف التّشبيه في الشّطر الثّاني، ليمثّل رايات الجيش في شموخها بقطع السّحاب.

ولم تقتصر تشبيهات أبي حمّو، على الصّور الحسيّة فقط، بل رسم أيضا صورا تمازج فيها الحسيّ بالمعنويّ، فيقول في فضل القرآن الكريم:

مَنْ أُنْزِلَتْ فِيهِ آيَاتٌ مُطَهَّـرَةٌ          أَنْوَارُهَا كَصَبَاحِ لاَحَ مُنْبَلِـجِ [1]

فقد شبّه الشّاعر آيات القرآن الكريم، التي تهدي إلى سبل الخير، وهي صورة معنويّة، بأنوار صباح جديد مزّق العتمة ليضيء الوجود.

ورغم براعة أبي حمّو في رسم صوره التّشبيهيّة، إلاّ أنّ المطّلع على شعره، يصادف صورا بسيطة – وعلى قلّتها – تعتمد على المقارنة بين الطّرفين ظاهريّا، ممّا جعلها تتّسم بالسّطحيّة والمباشرة، ومن ذلك قول الشّاعر:

مِنْ كُلِّ أَشْهَبٍ كَالشِّهَابِ تَخَالُـهُ          أَوْ أَدْهَمٍ مِثْلَ الغُرَابِ الأَسْـوَدِ[2]

فالصّورة التّشبيهيّة في الشّطر الثّاني من البيت، بسيطة لدرجة أنّ الخيال، الذي يعدّ أساس الصّورة الشّعريّة يكاد ينعدم فيها، وهي لا تحتاج إلى الإيحاء لفهمها.

ومجمل القول، إنّ تشبيهات أبي حمّو، تميّزت بحسن الصّياغة، وجمال التّصوير، كما ارتبطت في أغلبها بواقع الشّاعر باعتباره رجل حرب وسياسة، وإلى جانب ذلك، استقى بعض تشبيهات من القرآن الكريم، أمّا الطّبيعة فكان حضورها محتشما، وعموما كانت التشبيهات الشّاعر معتدلة، بعيدة عن المبالغة.

**2) الاستعـارة:**

ظهرت الاستعارة[3]كأحد أهمّ وسائل العمليّة الإبداعيّة، باعتبارها ركنا أساسيّا في النّسيج الشّعريّ، وذلك لقدرتها على فتح أبواب الخيال واسعة، أمام الشّعراء، فهي تمكّنهم من الحفر عميقا داخل الذّات الشّاعرة، لإظهار أحاسيسهم الدّفينة في صورة جميلة وموحية، كما أنّها تضفي على الشّعر حيويّة وجاذبيّة، تحول بينه وبين الرّتابة والبساطة.

---

(1) **عبد الحميد حاجيات.** أبو حمّو موسى الزّياني. 363.

(2) **عبد الحميد حاجيات.** المصدر نفسه. 328.

(3) يعرّفها الجرجاني قائلا: «الاستعارة ما اكتفي فيه بالاسم المستعار عن الأصل ونقلت العبارة فجعلت في مكان غيرها». أنظر: **الجرجاني.** دلائل الإعجاز. طبعة رشيد رضا. شركة الطّباعة الفنيّة الحديثة. القاهرة. 1961. ص343.

ومن خصائصها «الشّمول في الوصف، والتّدقيق في الصّورة والعناية بالجزئيّات والتّفاصيل، وكلّ ذلك دليل على عناية الشّاعر لتأتي صورةُ كاملة معبّرة، وافية»[1].

وإذا عدنا إلى شعر أبي حمّو، وجدنا الاستعارة حاضرة بقوّة، حضورا تفوّقت فيه على التّشبيه، ومن الصّور الاستعاريّة التي استوقفتنا، قول الشّاعر:

نَاسٌ رَكِبُوا التَّقْوَى ولَقَدْ رَكِبَتْ نَفْسِي طُرُقَ الزَّلَـلِ[2]

إنّه شعور كبير بالنّدم والأسى على ما آل إليه حاله، فقد بدت له التّقوى في صورة المطيّة التي تركب لتنتهج طريق النّجاة، أمّا نفسه فهي الصّورة المعاكسة، فتمثّلها تخطئ المطيّة التي سيقوده ركوبها إلى الخسارة، فاستطاع الشّاعر من خلال هذه الاستعارة المكنيّة خلق ثنائيّة "ركوب التّقوى" و"ركوب طرق الزلل"، ليضعنا في حالة النّدم التي كان يعيشها.

ويصوّر الشّاعر، حزنه الشّديد على فقدان أبيه قائلا[3]:

فَبَكَيْتُ مِنْ أَسَفٍ لِتِلْكَ كَمَا بَكَتْ حُزْنًا عَلَيْهِ مَنَازِلِي ورُبُوعِـي

حيث استعمل الاستعارة المكنيّة، ليجعل من الرّبوع التي عرفها الفقيد يوما، إنسانا تعلّق قلبه بمن عاشره زمنا، وفجع فيه، فبكاه بكاء مرّا، بل وشارك الشّاعر بكاءه وحزنه.

والصّورة هكذا حقّقت الغاية من وجودها، وهو التّعبير عن لوعة أبي حمّو وحرقته على أبيه.

كما يستعين الشّاعر بالأسلوب الاستعاريّ، ليرسم مشهدا غزليّا رقيقا، يقول[4]:

فَغَرِقْتُ فِي دَمْعِي ومَا يُغْنِي البُكَا ضَنُّوا بِتَوْدِيعٍ فَكَيْفَ بِمَوْعِـدِ

فقد تمثّل دموعه الغزيرة التي يذرفها حزنا على فراق الحبيبة، بحرا عميقا، وهو غارق فيه، فجاءت الاستعارة المكنيّة خير معبّر على حالة الكآبة التي تملّكته.

و يستوحي أبو حمّو من معاركه التي يخوضها باستمرار أكثر من صورة استعاريّة يجمعها في بيت واحد، يقول[5]:

وَ الأَرْضُ هَامِدَةٌ والأُسْدُ دَاهِشَـةٌ وَالبِيضُ ضَاحِكَةٌ تَزْهُوا عَلَى الزَّانِ

---

[1] **يحي الجبوري**. الشّعر الجاهلي (خصائصه وفنونه). 218.

[2] **عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 309.

[3] **عبد الحميد حاجيات**. المصدر نفسه. 333.

[4] **يحي بن خلدون**. بغية الروّاد. 2: 264.

[5] **عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 316.

حيث تصوّر الأرض كالجثّة الهامدة، والمقاتلين الشّجعان كالأسود في القوّة والشّجاعة، كما أسند صفة الضّحك للسّيوف، والضّحك هنا يدلّ على لمعان السّيوف تحت أشعّة الشّمس، فجاءت صورة الأرض والسّيوف في قالب استعارة مكنيّة، بينما كان تمثيل المقاتلين بالأسود استعارة تصريحيّة، وعليه فالصّور الثّلاث تصبّ في مشهد واحد، هو هول المعركة.

ويواصل الشّاعر –على المنوال السّابق– الجمع بين صور استعاريّة متعدّدة في بيت واحد، ومن ذلك قوله متغزّلا:

المَاءُ والنَّارُ تَشْكُو مِنْ فِرَاقِكُمْ          وَ حُبُّكُمْ قَدْ رَمَى قَلْبِي بِنِيـرَانِ[1]

فقد استعار صفة الشّكوى للماء والنّار للتّعبير عن أثر الفراق في نفسه، وجعل الصّورة المعنويّة التي يمثّلها الحبّ تقترن بالصّورة الحسيّة، المتجسّدة في فعل الرّماية للتّأكيد على معاناة قلبه.

لانبرح الصّور الغزليّة، حتّى نصادف استعارة مكنيّة أخرى، وظّفها الشّاعر للتّعبير عن تجربته العاطفيّة، يقول[2]:

آهٍ لِوَصْلٍ قَطَّعَتْهُ يَدُ النَّـوَى          وَ لِحَسْرَةِ المَوْصُولِ والمَقْطُوعِ

فرغبة أبي حمّو في تصوير حالة الجفاء، التي حالت بينه وبين من يحبّ، جعلته يوظّف استعارة مكنيّة، يمثّل فيها الفراق إنسانا شرّيرا، يستخدم يده ليمزّق بكلّ قسوة حبل الوصل الجامع بينه وبين حبيبته، فلا يبقى من تلك العلاقة إلاّ الحسرة على ما كان من وصل، وأخرى على ما آل إليه الحال من القطيعة.

ولم تقتصر استعارات أبي حمّو على المكنيّة فقط، فقد كان للتّصريحيّة نصيب من الصّور كذلك، ومن بينها قول الشّاعر:

مَنْ قَدْ أَتَى رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ وقَـدْ          أَحْيَا القُلُوبَ بِوَحْيٍ وَاضِحِ الحُجَجِ[3]

فمحبّة أبي حمّو الكبيرة، وتعلّقه الشّديد بالمصطفى صلّى الله عليه وسلّم، جعلته يمثّله عليه السّلام بالرّحمة الواسعة التي تشمل كلّ الخلق إضافة إلى ما حازه صلّى الله عليه

[1]**عبد الحميد حاجيات**. المصدر نفسه. 312.

[2]**يحي بن خلدون**. بغية الروّاد. 2: 105.

[3]**عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 363.

وسلّم، من رقّة في القلب ولين في الطّبع وحسن معاملة، ثمّ إنّ هذه الصّفات الكريمة المجتمعة في الرّسول الكريم، زعزعت القلوب وهزّتها، بل وأيقظتها من سباتها، كما لو أنّها أحيتها بعد أن كانت ميّتة.

ويشيد الشّاعر بليلة ميلاد المصطفى صلّى الله عليه وسلّم، فيقول[1]:

فَأَكْرِمْ بِشَهْرٍ حَوَى كُلَّ فَخْـرٍ    بِمِيلاَدِ بَدْرٍ بَدَا لَنْ يَغِيبَـا

حيث استعان الشّاعر بالاستعارة التّصريحيّة، للتّعبير عن طاقة النّور التي انبعثت ليلة ميلاد الرّسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم، وكأنّ مصدرها بدر منير، فنالت ليلة الميلاد تلك كلّ الشّرف والفخر، وكذلك الشّهر الذي ضمّها.

وحول الحبّ المحمّدي دائما، وما يثيره خير خلق الله في القلوب من أشواق وحنين إليه، يقول أبو حمّو:

سَلاَمٌ عَلَى البَدْرِ المُنِيرِ التُّهَامِـيِّ    سَلاَمٌ عَلَى مَنْ بِالبَقِيعِ وبِالحِمَـى [2]

فالشّاعر يستلهم من الحبّ الصّوفيّ، الذي يرى في الرّسول صلّى الله عليه وسلّم نورا أزليّا، ليتمثّل المصطفى عليه السّلام بدرا منيرا، يبثّه أشواقه التي لا تنتهي، كما يبعث بسلام حارّ حرارة محبّته إليه، وإلى الرّبوع التي تحتويه، مستخدما الاستعارة التّصريحيّة وسيلة في ذلك.

**ب-2. الصّورة البديعيّة:**

الدّارس لشعر أبي حمّو، تستوقفه خاصيّة ميّزت شعره، وانتشرت في جلّ قصائده، وهي وفرة الصّور البديعيّة عموما، والجناس والطّباق بوجه خاصّ، والشّاعر لم يشذ في ذلك، وإنّما هي ظاهرة تميّز بها شعر عصر بأكمله[3]، إذ إنّ شعر القرن الثّامن الهجري، بل ونثره أيضا، تلوّن بألوان البديع، الذي بدأ خفيفا يبعث في النّصوص الأدبيّة جمالا خاصّا، وانتهى آخر الأمر ثقيلا يقيّد الشّاعر ويضفي رتابة على الأشعار.

**1) الجنـــاس:**

[1]**عبد الحميد حاجيات**. المصدر نفسه. 367.

[2]**يحي بن خلدون**. بغية الروّاد. 2: 67.

[3]أنظر: **مرتاض. عبد الملك**. حركة الشّعر المولديّ في تلمسان على عهد أبي حمّو موسى. 325.

كان حظّ الجناس[1]في شعر أبي حمّو كبيرا، إذ لا تكاد تخلو قصيدة منه، ولأنّه على هذه الكثرة، سأكتفي بالإشارة إلى بعض النّماذج.

وأوّل ما نبدأ به، قول الشّاعر:

فِي القَلْبِ شَجَا، كَيْفَ المَنْجَى ... لِمَنْ المَلْجَا، بَارَتْ حِيَلِي[2]

نلاحظ أنّ الشّاعر قد جنّس بين "المنجى" و"الملجا".

ويجانس الشّاعر بين "القسم" و"النّسم" في قوله[3]:

مُنْشِي الرِّمَمِ، مُعْطِي القِسَمِ ... بَارِي النَّسَمِ، مُحْيِ الدُّوَلِ

ويقول في بيت آخر مجانسا بين "الكتائب" و"الكتاب":

خَطُّ الكَتَائِبِ لاَ خَطُّ الكِتَابِ بِهَا ... جَلِيَّةُ الأَمْرِ عِنْدَ السُّمْرِ والقَضَبِ[4][5]

وكذلك قوله[6]:

فَانْصِبْ إِلَى الحَرْبِ مَيْدَانًا تَشِيبُ لَهُ ... سُودُ الذَّوَائِبِ بَيْنَ الحَرْبِ والحِرَبِ

فتظهر مجانسة أبي حمّو بين "الحَرْبِ" و"الحِرَبِ".

ويشكّل أبو حمّو من "قيّدني" و"قلّدني" مجانسة مستحسنة، يقول[7]:

قَدْ قَيَّدَنِي مَا قَدْ قَلَّدَنِي ... مِنْ أَمْرِ حَكِيمٍ ذِي حِكَمِ

وقوله كذلك مجانسا بين "نهيت" و"جنيت"، ليعبّر عن شدّة ندمه على ما فات من عمره في الذّنوب والمعاصي:

وَ كَمْ قَدْ بَكَيْتُ لِذَنْبٍ جَنَيْتُ ... وَ قَلْبِي نَهَيْتُ ولَكِنْ أَبَى[8]

كما يجانس الشّاعر بين "أصله" و"فصله"، حتّى يؤكّد على شرف نسب والده، يقول[1]:

---

(1)**الجناس:** هو تشابه لفظين شكلا مع الاختلاف في المعنى. أنظر: **ابن المعتزّ**. كتاب البديع. نشر وتعليق: **كراتشكوفسكي**. مكتبة المثنى. بغداد. ط2. 1399هـ-1979م. ص25.

(2)**عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 309.

(3)**عبد الحميد حاجيات**. المصدر نفسه. 310.

(4)**القضب:** السّهام الرّقاق. أنظر: **ابن منظور**. لسان العرب. مادة:( قضب).

(5)**يحي بن خلدون**. بغية الروّاد. 2: 156.

(6)**يحي بن خلدون**. المصدر نفسه. 2: 157.

(7)**أبو حمّو موسى الثّاني**. واسطة السّلوك في سياسة الملوك. 11.

(8)**عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 343.

مَنْ كَانَ هَذَا أَصْلُهُ وفَصْلُـهُ        فَلَهُ العُلاَ فِي مَنْزِلِ التَّرْفِيـعِ

ويقول في بيت آخر:

إلاَّ المَوْلَى يُسْدِي الطُّولَـى        رَبِّي الأَعْلَى، شَافِي عِلَلِـي[2]

حيث يجانس أبو حمّو بين "المولى" و"الطّولى"، وهو يقرّ بقدرة الله عزّ وجلّ على تنفيذ مشيئته.

ويفتخر الشّاعر بفروسيّته، فيقول[3]:

وَسِرْتُ عَلَى جَوْنٍ أَقْبُ مُضْمِرٍ        كَلَمْعَةِ بَرْقٍ أَوْ كَلَمْحَةِ صَـارِمِ

فقد جانس الشّاعر بين "لمعة" و"لمحة"، ليظهر ما يتميّز به من سرعة فائقة حين يمتطي جواده الأصيل.

ويطالعنا أبو حمّو في بيت آخر على صورة بديعيّة جديدة، تمثّلت في مجانسة بين "طرف" و"الطّرف"، يحاول من خلالها نقل حالة الأسى والحزن التي فرضتها وقفته الطّلليّة، يقول[4]:

وَ جُلْتُ بِطَرْفِ الطَّرْفِ فِي عَرَصَاتِهَا        كَجَوْلَةِ وَاهٍ أَوْ كَوَقْفَةِ هَائِـمِ

### 2) الطّبــاق:

لم ينتشر الطّباق[5]في شعر أبي حمّو انتشار الجناس، وذلك لما يتميّز به من صعوبة، مقارنة بالجناس، فعلى الشّاعر أن يعمل فكره وخياله، حتّى يتمكّن من خلق مقابلة بين الأضداد.

وعلى كلّ، فنماذج الطّباق عند الشّاعر كثيرة، ومن بينها ما ورد في قوله[6]:

وَ أَنَا لِلْحَرْبِ كَعَنْتَرِهَـا        وَ أَنَا فِي السِّلْمِ أَخُو جَـدَلِ

نلاحظ أنّ أبا حمّو طابق بين "الحرب" و"السّلم" وهو يفتخر بشجاعته وحكمته.

---

(1) **عبد الحميد حاجيات**.المصدر نفسه. 334.

(2) **أبو حمّو موسى الثّاني**. واسطة السّلوك في سياسة الملوك. 06.

(3) **أبو حمّو موسى الثّاني**. المصدر نفسه. 15.

(4) **أبو حمّو موسى الثّاني**. المصدرالسابق. ص15.

(5) يقول ابن رشيق: «المطابقة عند جميع النّاس. جمعك بين الضدّين في الكلام أو بيت الشّعر». أنظر: **ابن رشيق**. العمدة. 2: 05.

(6) **أبو حمّو موسى الثّاني**. واسطة السّلوك في سياسة الملوك. 06.

ويطابق الشّاعر بين "السّر" و"الإعلان" في إحدى صوره الغزليّة فيقول[1]:

مَهْمَا نَظَرْتُ إِلَى شَيْءٍ أُرَاقِبُـهُ　　　يَمِيلُ نَحْوَكُمْ سِرِّي وإِعْلاَنِـي

ومن نماذج الطّباق أيضا، قوله[2]:

وَ مَنْ يَبْغِ دَرْكَ المَعْلُوَاتِ ونَيْلَهَا　　　يُسَاوِ بِحُلْوِ الشَّهْدِ مَرَّ العَلاَقِـمِ

حيث أنّ الشّاعر يطابق بين "حلو" و"مرّ" ليعبّر عن تقلّب الأيّام وتغيّرها.

كما يطابق بين "ظالم" و"مظلوم" مرّتين في بيت واحد، فيقول[3]:

وَ نَنْصُرُ مَظْلُومًا ونَنْصُرُ ظَالِمًا　　　إِذَا شِيكَ مَظْلُومٌ بِشَوْكَةِ ظَالِـمِ

ويفاضل أبو حمّو بينه وبين خصمه، موظّفا طباق السّلب بين "أجبتكم" و"لم تجب"، فيقول[4]:

لَمَّا دَعَوْتَ عَلَى بُعْدٍ أَجَبْتُكُـمُ　　　وَ قَدْ دَعَوْنَاكَ مِنْ قُرْبٍ فَلَمْ تُجِبِ

ويحقّق الطّباق، عند أبي حمّو معنى الأفضليّة، حيث يرى في نفسه، المخصوص برعاية الله ونعمائه، حين مُنِحَ الملك، ما بين "يمنح" و"يمنع"، وبين "يوهب" و"لم يهب"، يقول[5]:

أَيَمْنَحُ المَرْءُ والقَهَّارُ يَمْنَعُـهُ　　　أَوْ يُوهِبُ الأَمْرَ والوَهَّابُ لَمْ يَهِبِ

كما يطابق الشّاعر بين "البياض" و"السّواد"، ليظهر تغلّب جيشه وتفوّقه على أعدائه:

دَارَتْ بِنَا الأَعْدَاءُ فَصِرْنَا بَيْنَهُـمْ　　　كَالدُرَّةِ البَيْضَاءِ بِلَيْلٍ أَسْـوَدِ[6]

و في مثال آخر، يطابق بين "نام" و"لم تنم"، ليصوّر حالة الأرق التي تجتاحه بسبب شعوره المتواصل بالنّدم الشّديد يقول[7]

نَامَ الأَحْبَابُ ولَمْ تَنَـمِ　　　عَيْنِي بِمُصَارَعَةِ النَّـدَمِ

ويتجلّى الطّباق أيضا في رثاء الشّاعر لأبيه:

---

(1) **عبد الحميد حاجيات.** أبو حمّو موسى الزّياني. 313.

(2) **يحي بن خلدون.** بغية الروّاد. 2: 93.

(3) **يحي بن خلدون.** المصدر نفسه. 2: 93.

(4) **يحي بن خلدون** . المصدر السابق. 2: 157.

(5) **يحي بن خلدون.** المصدر نفسه. 2: 157.

(6) **أبو حمّو موسى الثّاني.** واسطة السّلوك في سياسة الملوك. 267.

(7) **أبو حمّو موسى الثّاني.** المصدر نفسه. 10.

فبِكَفِّهِ بَأْسٌ وفِيهِ رَحْمَةٌ قِسْمَانِ بَيْنَ مُعَانِدٍ ومُطِيعِ[1]

فقد طابق أبو حمّو ما بين "معاند" و"مطيع"، ليؤكّد على الخصال المميّزة، التي حازها والده المتوفّى.

وما نستخلصه – ممّا تقدّم– أنّ الصّورة الشّعريّة عند أبي حمّو جاءت متأثّرة في مصادرها بالقرآن الكريم، والشّعر العربيّ القديم كمصدرين رئيسيّين لها، كما أنّها اشتملت في أنواعها على الصّورة البيانيّة من تشبيه واستعارة، إلى جانب الصّور البديعيّة التي يمثّلها الجناس والطّباق.

وقد حاكت الصّورة عند الشّاعر، القالب التّصويريّ التّقليدي فتلوّنت بالبساطة والوضوح والابتعاد عن المبالغة والغموض، وكذلك، اعتمدت في مجملها على المحسوسات، خاصّة الصّور البصريّة منها، وعموما لم تتعدّ الصّور البيانيّة والبديعيّة التّقليد والمحاكاة، لتنتقل إلى الخلق والإبداع.

وتبقى الصّورة الشّعريّة منفردة عاجزة عن الإلمام ببناء الشّكل في شعر أبي حمّو، لذلك توجّب الاطّلاع أيضا على كنّه الموسيقى الشّعريّة عند الشّاعر.

**4- الموسيقى الشّعريّة:**

عرّف الشّعر بأنّه «قول موزون مقفّى يدلّ على معنى»[2]، ومن ثمّ فالعلاقة بين المعنى والوزن، تتّسم بالقوّة والمتانة وتتّخذ التّكامل صفة لها، لتنتج شعرا.

وتبقى الموسيقى الشّعريّة بركنيها الأساسيّين، الوزن والقافية، الفيصل الوحيد بين الشّعر والنّثر، فقد «كان القدماء من علماء العربيّة لا يرون في الشّعر أمرا جديدا يميّزه من النّثر إلاّ ما يشتمل عليه من الوزن والقوافي»[3].

وذلك باعتبار أنّ المعنى وسيلة التّعبير المشتركة بين الشّعر والنّثر، وما الوزن «إلاّ أحد وسائل الشّعر في تزيين المعنى وتسهيله على الحفظ»[4].

---

[1] **يحي بن خلدون**. بغية الروّاد. 2: 106.

[2] **قدامة بن جعفر**. نقد الشّعر. 64.

[3] **إبراهيم أنيس**. موسيقى الشّعر. 19.

[4] **جودت فخر الدّين**. شكل القصيدة العربيّة في النّقد العربي حتّى القرن الثّامن الهجري. دار الآداب. بيروت. ط1. 1984. ص134.

ويتّفق غنيمي هلال، مع هذا الطّرح إذ يقول: «كانت صياغة الشّعر العربي منذ القديم، في كلام ذي توقيع موسيقي، ووحدة في النّظم تشدّ من أزر المعنى، وتجعله ينفذ إلى قلوب سامعيه، ومنشديه، وتوحي بما لا يستطيع القول أن يشرحه»[1]، فالموسيقى تجعل عمليّة التلقّي أسهل، حيث تجذب المتلقّي وتدخله في عالم الشّعر، ومن ثمّ يسهل عليه فيما بعد التّفاعل مع أفكار الشّاعر وانفعالاته.

ويؤكّد النقّاد، على أنّ الموسيقى تسبق المعنى في العمليّة الشّعريّة، فنغم القصيدة «يسيطر على الشّاعر قبل البدء بعمليّة النّظم، وعندما ينفلت النّغم منه، يترك النّظم لكي لا تداخل القصيدة العناصر النّثريّة، فالموسيقى، مادّة الحالة الشّعوريّة»[2].

وبذلك، فالعمليّة الإبداعية الشّعريّة، تتضمّن معالم مميّزة لها، تتضامن وتتفاعل لإنشاء صرح القصيدة، والوزن أحد أهمّ تلك المعالم، فهو «ليس مجرّد قالب تصبّ فيه التّجربة، أو وعاء يحتوي الغرض، وإنّما هو بعد من أبعاد الحركة الآليّة لفعل التّعبير الشّعري»[3].

ولأنّ الموسيقى الشّعريّة على هذه الأهميّة، سنحاول من خلال الصّفحات القادمة، التعرّف على معالمها عند أبي حمّو موسى، متطرّقين فيها إلى جانبين، الموسيقى الخارجيّة، والموسيقى الدّاخليّة.

**أ- الموسيقى الخارجيّة:**

والمقصود بها الوزن والقافية، حيث يمثّلان قالب القصيدة العروضي، الذي يجب التقيّد به، التزاما بقواعد الشّعر العربي، وعليه، نحاول رصد هذين الرّكنين بما يمثّلانه من أهميّة في تبليغ الرّسالة الشّعريّة.

**أ-1. الوزن:**

يعدّ الوزن قوام الشّعر، والوعاء الذي تصبّ فيه الأفكار والصّور والانفعالات، وهو «أعظم أركان الشّعر وأولاه به خصوصيّة»[4].

---

(1) **غنيمي هلال** . النّقد الأدبي الحديث. 461.

(2) **عسّاف ساسين**. الصّورة الشّعريّة ونماذجها في إبداع أبي نوّاس. المؤسّسة الجامعيّة للدّراسات والنّشر والتّوزيع. بيروت. لبنان. 1982. 17.

(3) **جابر عصفور**. مفهوم الشّعر. الهيئة المصريّة العامّة للكتاب. ط5. 1995. ص334

(4) **ابن رشيق**. العمدة. 1: 134.

كما يوصف الوزن بأنّه «أساس الإيقاع في الشّعر لأنّه يضبط المستويات الصّوتيّة للحروف والكلمات، وما تكون من مقاطع وأجزاء، وينظّم العلاقات التّنغيميّة بينهما»[1].

ومن خلال دراسة شعر أبي حمّو، اتّضح استخدامه لخمسة بحور شعريّة هي: البسيط والكامل والطّويل والمتدارك والمتقارب، والواضح أنّه يميل إلى استخدام البحور الطّويلة، لأنّها الأقدر على احتواء عواطف الشّاعر المنسابة.

وقد لاحظنا، توزيع هذه البحور على جميع الأغراض الشّعريّة: الشّعر السّياسي، الفخر، الرّثاء، المولديّات، إلاّ فيما اختصّ ببحر المتقارب، الذي ورد في قصيدة المولديّات فقط، ولعلّ السّبب ليس له علاقة بنوع الغرض وعلاقته بالبحر، بقدر ما هو متعلّق بنسبة القصائد، حيث كانت أكثر في شعر المولديّات، ضمّت لوحدها اثنتي عشرة قصيدة، من مجموع واحد وعشرين، حيث «لا توجد قاعدة، أو أساس يدلّ على ارتباط وزن خاص بفن أو موضوع معيّن»[2]، وسنؤكّد ما ذهبنا إليه في الأمثلة التّالية:

**1) نماذج من الأغراض التي جاءت في بحر البسيط:**

تصدّر البسيط، القائمة بمعيّة بحر الكامل، في التّوزيع على كلّ الأغراض، غير أنّه تفوّق عليه في عدد القصائد، وقد استعمل في الشّعر السّياسي والفخر والرّثاء، وشعر المولديّات، كما سنثبت ذلك:

- استخدامه في الفخر:

وَ كَمْ عَمَّرْتُ دِيَارًا قَلَّ عَامِرُهَا ... وَ قَدْ جَعَلْتُ دِيَارَ الأُنْسِ عُمْرَانِ[3]

- استخدامه في الشّعر السّياسي:

أَخْطَأْتَ فِي رَأْيِ مَنْ خَابَتْ رِوَايَتُهُ ... حَتَّى اِقْتَحَمْتَ الرَّدَى مِنْ غَيْرِ مَا سَبَبِ[4]

- استخدامه في الرّثاء:

مَوْلاَيَ يُوسُفَ أَفْجَعْتَ البَنِينَ وقَدْ ... أَضْحَى وَلِيدُكَ مُوسَى نَاحِبًا نَحِفَا[5]

---

[1] **عبّاس الجراري**. الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه. مكتبة المعارف. الرّباط. 1979. ج1. ص32.

[2] **فورار امحمّد بن لخضر**. الشّعر الأندلسي في ظلّ الدّولة العامريّة (366هـ-399هـ). رسالة ماجستير غير منشورة (مخطوط). 282ص. معهد الآداب واللّغة العربيّة. جامعة قسنطينة. 1995. ص257.

[3] **عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 315.

[4] **يحي بن خلدون**. بغية الروّاد. 2: 157.

[5] **عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 337.

- استخدامه في المولديّات:

يَا أَكْرَمَ الخَلْقِ عِنْدَ اللهِ مَنْزِلَـةً  كَمْ لِي أَرُومُ إِلَى مَعْنَاكَ مَرْحَلَـةً[1]

**2) نماذج من الأغراض التي جاءت في بحر الكامل:**

مثل نظيره البسيط، مسّ الكامل جميع أغراض أبي حمّو، وهو بذلك يعدّ من البحور المفضّلة لديه، ونستدلّ على هذا الحكم ما يلي:

- استخدامه في الفخر:

حَالِي يَطُولُ ومِحْنَتِي لاَ تَنْقَضِـي  كَمْ لِي بِمَيْدَانِ الوَغَى مِنْ مَحْفَلِ[2]

- استخدامه في الشّعر السّياسي:

فَهُنَاكَ فُرْسَانُ العِدَى طَافَتْ بِنَـا  مِنْ كُلِّ طَاغٍ فِي الوَغَى أَوْ مُعْتَدِ[3]

- استخدامه في الرّثاء:

يَا مُسْعَدِي أَبْصَرْتَ مَا فَعَلَ النَّوَى  بِكَرِيمِ قَوْمٍ فِي التُّرَابِ صَرِيـعِ[4]

- استخدامه في المولديّات:

قَدْ زَادَ شَوْقِي لِلْعَقِيقِ[5] ولِلصَّفَا  وَ لِرَوْضَةِ الهَادِي النَّبِيِّ المُصْطَفَى[6]

**3) نماذج من الأغراض التي جاءت في الطّويل:**

يلي الطّويل بحر البسيط والكامل، من حيث الأغراض التي ورد فيها، إذ إنّه جاء في ثلاثة أغراض من أصل أربعة، حيث سجّلنا غيابه في الرّثاء، وهذا ما يتّضح فيما يلي:

- استخدامه في المولديّات:

إِلَهِي هَبْ لِي مِنْكَ عَفْوًا ورَحْمَـةً  فَمَا زِلْتَ يَا مَوْلاَيَ تُبَلِّغُنِي القَصْدَا[7]

- استخدامه في الشّعر السّياسي:

رِجَالٌ إِذَا جَاشَ الوَطِيسُ تَرَاهُمُ  أُسُودُ الوَغَى مِنْ كُلِّ لَيْثٍ ضُبَارِمِ[1]

---

[1] **عبد الحميد حاجيات**. المصدر نفسه. 351.

[2] **عبد الحميد حاجيات**. المصدر نفسه. 296.

[3] **يحي بن خلدون**. بغية الروّاد. 2: 267.

[4] **يحي بن خلدون**. المصدر نفسه. 2: 105.

[5] **العقيق**: واد بالحجاز. أنظر: **ابن منظور**. لسان العرب. ص255. مادة:(عقلق).

[6] **عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 356.

[7] **يحي بن خلدون**. 2: 225.

- استخدامه في الفخر:

بُرُوقُ السُّيُوفِ المَشْرَفِيَّاتُ والقَنَا أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ بُرُوق ِالمَبَاسِـمِ(2)

**4) نماذج من الأغراض التي جاءت في المتدارك:**

لـم يكـن حـظّ المتـدارك كسـابقيه، حيـث اكتفـى هـو بقصـيدتين فقـط مسّـتا المولـديّات والفخر، نورد نماذج منهما:

- استخدامه في المولديّات:

زَارُوا الهَادِي بِهَوَى بَـادِي وَ حَدَا الحَادِي عَزْمًا بِهِـمُ(3)

- استخدامه في الفخر:

أَحْنُو لِلطِّفْلِ كَوَالِــدِهِ وَ أَسُوقُ الشَّيْخَ عَلَـى مَهَـلِ(4)

**5) نماذج من الأغراض التي جاءت في المتقارب:**

اكتفى المتقارب بغرض واحد، وهو المولديّات، لكنّ كان نصيبه منها ثلاث قصائد، نورد نموذجا منها:

- استخدامه في المولديّات:

فَيَا حَادِيَ الرَّكْبِ نَحْوَ الحِمَـى إِذَا جِئْتَ نَجْدًا وتِلْكَ الرُّبَـى
فَأَبْلِغْ سَلاَمِـي لِسَاكِنِهَـا ذَكِيَّ الشَّذَا عَاطِرًا طَيِّبَـا(5)

**جدول رقم (1):**

| الأغراض الشّعريّة / البحر | الشّعر السّياسي | الفخر | الرّثاء | المولديّات |
|---|---|---|---|---|
| **البسيـط** | 01 | 01 | 01 | 03 |
| **الكامـل** | 01 | 01 | 01 | 01 |
| **الطّويـل** | 01 | 01 | 00 | 04 |

(1)**عبد الحميد حاجيات.** أبو حمّو موسى الزّياني. 300.
(2)**عبد الحميد حاجيات.** المصدر نفسه. 318.
(3)**أبو حمّو موسى الثّاني.** واسطة السّلوك في سياسة الملوك. 11.
(4)**أبو حمّو موسى الثّاني.** المصدر السابق. 06.
(5)**عبد الحميد حاجيات.** أبو حمّو موسى الزياني. 360.

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| **المتدارك** | 00 | 01 | 00 | 01 |
| **المتقارب** | 00 | 00 | 00 | 03 |

يثبت الجدول السّابق، ما قد أشرنا إليه، حيث يتصدّر بحر البسيط القائمة، فقد ورد في جميع الأغراض، وأكثر حضوره كان في شعر المولديّات بأربع قصائد، ثمّ يليه بحر الكامل، لكنّه يكتفي بقصيدة واحدة في كلّ غرض، ويأتي بحر الطّويل ثالثا، حيث مسّ ثلاثة أغراض فقط، ومجيئه كان في المولديّات أكثر من غيرها، ثمّ يظهر المتدارك في الرّتبة الرّابعة بقصيدتين فقط مثّلت الفخر والمولديّات، وأخيرا، يختم بحر المتقارب القائمة بثلاث قصائد وردت في شعر المولديّات فقط.

ومن جهة أخرى، ومن أجل الاطّلاع على نسبة ورود البحور الشّعريّة قياسا لعدد القصائد التي تضمّنتها، وكيفيّة ترتيب هذه البحور، نستدلّ بالجدول التّالي:

**جدول رقم (2):** ترتيب البحور الشّعريّة، ونسبة استخدامها:

| البحر | عدد القصائد | النّسبة المئويّة |
|---|---|---|
| **البسيط** | 06 | 28.57 |
| **الطّويل** | 06 | 28.57 |
| **الكامل** | 04 | 19.04 |
| **المتقارب** | 03 | 14.28 |
| **المتدارك** | 02 | 9.52 |

يكشف الجدول عن سيطرة تامّة لبحري البسيط والطّويل على شعر أبي حمّو بنسبة تقدّر بـ (28.57%) لكلّ واحد منهما، بمجموع اثنتي عشرة قصيدة، من أصل واحد وعشرين، وهذا ما يمثّل نسبة (57.14%) من مجموع شعر أبي حمّو، وهو ما يزيد عن النّصف.

ولعلّ اهتمام الشّاعر، بهذين البحرين راجع لما يتمتّعان به من أهميّة في الشّعر العربي [1]، فهما من البحور الرّئيسيّة والأكثر شيوعا، ومردّ ذلك إلى ما يوفّرانه للشّاعر من مجال، حتّى يثبت أفكاره، ويصوّر انفعالاته، بسبب الانسجام الموسيقي، وطول النّفس في كليهما.

---

[1] أنظر: **إبراهيم أنيس**. موسيقى الشّعر. 191.

أمّا بحر الكامل، فيمثّل نسبة (19.04%)، وبذلك يأتي ثالثا بعد البسيط والطّويل، وهو لا يقلّ أهميّة عنهما، حيث مسّ أربع قصائد، موزّعة على جميع الأغراض الشّعريّة، ثمّ يليه المتقارب بثلاث قصائد، تمثّل نسبة (14.28%)، ويعدّ هذا البحر قليل الاستعمال في شعر العرب[1].

واحتلّ المتدارك الرّتبة الأخيرة، بمجموع قصيدتين فقط وبنسبة لم تتعدّ (9.52%)، ولعلّ انخفاض نسبته راجع إلى ندرته في الشّعر العربي، وثقل واضطراب موسيقاه[2].

وإذا تتبّعنا ورود البحور الشّعريّة من حيث البساطة والتّركيب، نلاحظ أنّ الشّاعر قد تبنّى النّوعين، لكن بنسب مختلفة، كما يوضّحه الجدول الموالي:

**جدول رقم (3):** نسبة استعمال البحور البسيطة والمركّبة:

| **البحور البسيطة** | **عدد القصائد** | **النّسبة المئويّة** | **البحور المركّبة** | **عدد القصائد** | **النّسبة المئويّة** |
|---|---|---|---|---|---|
| الكامل<br>المتقارب<br>المتدارك | 09 | 42.85 | البسيط<br>الطّويل | 12 | 57.14 |

يظهر تفوّق البحور المركّبة على البحور البسيطة، حيث غطّت نسبة (57.14%) من شعر أبي حمّو، مقابل (42.85%) للبحور البسيطة.

ويتّضح، أنّ الشّاعر يميل للبحور ذات التّفعيلتين والتي يمثّلها الطّويل والبسيط، فالطّويل بتفعيلتيه (فعولن، مفاعيلن) والتي تتكرّر بالتّناوب مرّتين في كلّ شطر، ينتج جرسا موسيقيّا منسجما، تستحسنه الأذن وتميل إليه النّفس.

أمّا البسيط، فتتكرّر فيه تفعيلة (مستفعلن) مرّتين تتوسّطهما تفعيلة (فاعلن)، حيث يتولّد نغم معيّن تنتجه تفعيلة (مستفعلن)، لتتوقّف بعدها حتّى تعوّضها تفعيلة (فاعلن) محدثة نغما آخر، ثمّ تترك فيما بعد المجال مرّة ثانية لتكرار تفعيلة (مستفعلن)، هذا التّغيير النّغمي

---

(1)أنظر: **محمّد كراكبي**. خصائص الخطاب الشّعري في ديوان أبي فراس الحمداني (دراسة صوتيّة وتركيبيّة). دار هومه للطّباعة والنّشر والتّوزيع. الجزائر. 2003. ص57.

(2)أنظر: **مصطفى حركات**. قواعد الشّعر. المؤسّسة الوطنيّة للفنون المطبعيّة وحدة الرّغاية. الجزائر. 1989. ص125 وما بعدها.

يشدّ انتباه المتلقّي، الذي يتوقّع التّداول بين التّفعيلات ويتابعه، إذ من المتعارف عليه، ميل النّفس إلى التّغيير ونفورها من البساطة والرّتابة، ومن هنا تظهر أهميّة بحر البسيط والطّويل، وقيمتهما الموسيقيّة، التي لم تخف على الشّاعر.

وإذا تفحّصنا الجدول رقم (3) نكتشف أنّ نسبة ورود البحور البسيطة عالية أيضا، فنسبة (42.85%) ليست بالهيّنة ومردّ هذا الارتفاع إلى بحر الكامل، الذي يمثّل وحده نسبة (19.04%)، وما يميّز هذا البحر، تغلّب الحركات فيه على السّواكن، بخمس حركات مقابل ساكنين في التّفعيلة الواحدة، ولا يخف على أحد ما تنشئه الحركات من حيويّة داخل القصيدة.

إذا، لقد وظّف الشّاعر من البحور ما يمكّنه من بثّ عواطفه وانفعالاته بأريحيّة تامّة، نظرا لاحتوائها على أكبر عدد من المقاطع، وهذا ما يكسبها صفة الطّول، كما كان اختياره للبحور المركّبة، كنسبة أعلى في شعره موفّقا إلى حدّ كبير، وذلك لما تحقّقه هذه الأخيرة من تشكيل موسيقيّ يمنح القصائد الحيويّة والحركة، ويبقى الحكم على الوزن ناقصا في غياب قراءة، لماهية القافية في شعر أبي حمّو، وهذا ما سنحاول التعرّض له فيما يلي من صفحات.

### أ-2. القافيــة:

تمثّل القافية، العمود الأساسي الثّاني في بناء صرح القصيدة، وتحديدا موسيقاها الخارجيّة، وهي بذلك الأخت الشّقيقة للوزن، تقاسمه الأهميّة، كما تقاسمه الوظيفة، وهي تعدّ محكّ الشّاعريّة، فهي مظنّة اشتهار الإحسان أو الإساءة[1].

كما تعدّ «ركنا أساسيّا من أركان القصيدة، في البنية الموسيقيّة للشّعر العربي، بصفة خاصّة، باعتبارها لازمة إيقاعيّة منظّمة، تتكرّر في نهاية أبيات القصيدة»[2].

يعرف ابن رشيق القافية، فيقول «القافية من آخر حرف في البيت إلى أوّل ساكن يليه من قبله، مع حركة الحرف الذي قبل السّاكن»[3]، أمّا أهميّتها فتعود إلى قيمتها الإيقاعيّة،

---

[1] **حازم القرطاجني**. منهاج البلغاء وسراج الأدباء. تحقيق: **بن خوجة محمّد الحبيب** . دار الغرب الإسلامي. بيروت. ط1. 1966. ص271.

[2] **فورار امحمّد بن لخضر**. الشّعر الأندلسي في ظلّ الدّولة العامريّة. 262.

[3] **ابن رشيق**. العمدة. تحقيق: عبد الحميد محي الدّين. دار الرّشاد الحديثة. الدّار البيضاء. المغرب. د ت. ج1. ص151.

فهي تمثّل وحدة القصيدة الموسيقيّة، حيث تتكوّن من أصوات معيّنة تتكرّر بانتظام في أواخر الأبيات، مشكّلة بذلك إيقاعا خاصّا ومميّزا لكلّ قصيدة.

وفي هذا المقام، ارتأينا أن نرصد القافية في شعر أبي حمّو من حيث النّوع، وما ينطوي عليه من قوافي مطلقة ومقيّدة، مردوفة وغير مردوفة، وكذلك تتبع نوع الرويّ ونسبة وروده، بالإضافة إلى الحركات التي تناوبت عليه، ثمّ نعرّج على عيوب القافية، ونقدّم أمثلة من أبيات الشّاعر، وستتخلّل الدّراسة جداول للتّدليل والتّوضيح.

**1) أنواعها:**

بالإطّلاع على مجموع قصائد الشّاعر، لاحظنا استخدامه للقوافي المطلقة بشكل واسع، أمام المقيّدة، ويُقصد بالمطلقة، تلك التي تضمّ رويّا متحرّكا بالرّفع أو بالنّصب أو الجرّ، أمّا المقيّدة فهي ذات الرويّ السّاكن.

فقد كان حضور القافية المطلقة في عشرين قصيدة من مجموع واحد وعشرين، أمّا المقيّدة فقد اكتفت بقصيدة واحدة فقط.

ومردّ هذا التّباين إلى أنّ المطلقة تحقّق للقصيدة قوّة الإيقاع، وخاصيّة الانسياب، وهذا بفعل الحركات التي تبعث حركة وحيويّة داخل النّص الشّعري، بخلاف القافية المقيّدة التي تتضاءل قيمتها الصّوتيّة بفعل السّكون(1).

وإذا نظرنا إلى القافية من زاوية الرّدف، نجد الشّاعر قد نوّع في توظيف القوافي المردوفة وغير المردوفة، ونقصد بالمردوفة التي لحقت برويّها أحد حروف اللّين (الألف، الواو، الياء)، وتختلف قوّة الرّدف وتأثيره في المتلقّي، بحسب نوعه، وإذا عدنا إلى شعر أبي حمّو، وجدنا كلّ القصائد التي ضمّت هذه الخاصيّة وعددها سبع قصائد، جاءت مردوفة بـ (الألف)، ويتّسم هذا الحرف بأنّه أطول الأصوات من حيث زمن النّطق، كما يعدّ الأكثر وضوحا(2)، وهذا ما جعل الشّاعر يفضّله على حروف اللّين الأخرى، وسنحاول تتبّع هذا العنصر في الجدول الآتي:

**جدول رقم (4):**

| نوع القافية | عدد القصائد | النّسبة المئويّة |
|---|---|---|

(1)أنظر: **محمّد زلاقي**. بناء القصيدة المولديّة في المغرب الإسلامي. 527.

(2) **إبراهيم أنيس**. الأصوات اللّغويّة. مكتبة أنجلو المصريّة. القاهرة. ط5. 1975. ص154.

| | | |
|---|---|---|
| **القافية المردوفـة** | 07 | %36.84 |
| **القافية غير المردوفة** | 12 | %63.15 |

قبل أن نسترسل في قراءة الجدول، نوضّح أنّ هذه العمليّة الحسابيّة مسّت تسع عشرة قصيدة فقط، حيث قمنا بإبعاد قصيدتين لأنّهما ينتميان إلى "المخمّسات"، وكما هو معلوم، أنّ المخمّسات تتميّز بتنويع القافية[1].

يثبت الجدول أنّ نسبة تواتر القافية غير المردوفة كان أكبر من أختها، حيث بلغت (63.15%)، بمجموع اثنتي عشرة قصيدة، بينما بلغت القوافي المردوفة نسبة (36.84%) بمجموع سبع قصائد.

وإذا انتقلنا إلى الحركات التي ميّزت الرويّ نكتشف أنّ أبا حمّو لم يستخدم إلاّ حركتي: الكسرة والفتحة، حيث ورد الرويّ المكسور بنسبة (61.11%) تمثّل إحدى عشرة قصيدة من مجموع ثمان عشرة، وهو عدد القصائد المتبقيّة بعد استثناء قصيدتي التّخميس، والقصيدة الوحيدة ذات القافية المقيّدة، بينما شكّلت نسبة الرويّ المفتوح (38.88%) تمثّلها سبع قصائد من مجموع ثمان عشرة.

ويكشف هذا الرّصد، لحركات الرويّ المستعملة في شعر أبي حمّو، عن غياب كلّي لحركة الضمّة، على الرّغم من الأهميّة التي تتمتّع بها إلى جانب الكسرة، فكلاهما يعدّان من الأصوات الضيّقة، التي تملك تأثيرا خاصّا على أذن المتلقّي.

وربّما كان للشّاعر أسبابه المنطقيّة في هذا الاختيار، أو لعلّه استخدم رويّا مضموما في أشعار أخرى، لم تصل إلى أيدينا بعد، وعلى كلّ فمن الواضح ميل أبي حمّو إلى حركة الكسرة التي غطّت ما يزيد عن نصف شعره.

أمّا إذا نظرنا إلى علاقة القافية بليونة الرويّ، نسجّل أنّ القافية المستعملة عند الشّاعر ختمت بحروف تميّزت باللّين وسهولة المخرج، مع القدرة على خلق إيقاع متميّز تميل إليه النّفس وترتاح له الأذن، ولنرصد أنواع الرويّ، وكمّ استخدامها، نستدلّ بالجدول التّالي:

**جدول رقم (5):** نوع الرويّ ونسبة استخدامه.

| **نوع حرف الرويّ** | **عدد القصائد** | **النّسبة المئويّة** | **الرّتبـة** |
|---|---|---|---|

[1] أنظر: **عبد الحميد عبد الله الهدّامة.** القصيدة الأندلسيّة خلال القرن الثّامن الهجري. 2: 102.

| | | | |
|---|---|---|---|
| **اليـاء** | 05 | 26.31 | 01 |
| **الميـم** | 03 | 15.78 | 02 |
| **الـلاّم** | 02 | 10.52 | 03 |
| **الجيـم** | 02 | 10.52 | 03 |
| **الـدّال** | 02 | 10.52 | 03 |
| **العيـن** | 01 | 5.26 | 04 |
| **الفـاء** | 01 | 5.26 | 04 |
| **الحـاء** | 01 | 5.26 | 04 |
| **اليـاء** | 01 | 5.26 | 04 |
| **النّـون** | 01 | 5.26 | 04 |

حين نتأمّل الجدول رقم (5)، نجد أنّ الشّاعر استعمل عشرة حروف هي كالآتي (الياء، الميم، اللاّم، الجيم، الدّال، العين، الفاء، الحاء، الياء، النّون)، وتعدّ هذه الحروف الأكثر شيوعا في الشّعر العربي لما تتمتّع به من وضوح، له وقعه الخاص على النّفس[1].

ويمكن تقسيم هذه الحروف إلى مجموعات أربعة:

**المجموعة الأولـى:**

وتضمّ حرف الياء الذي كانت نسبة تواتره هي الأعلى تقدّر بـ (26.31%) مسّت خمسة قصائد من مجموع واحد وعشرين، وهو بذلك يحتلّ الرّتبة الأولى.

**المجموعة الثّانيـة:**

وتضمّ حرف الميم الذي يشكّل نسبة (15.78%) بمجموع ثلاث قصائد، وقد احتلّ الرّتبة الثّانية.

**المجموعة الثّالثـة:**

وتضمّ حرف اللاّم والجيم والدّال، يشكّل كلّ واحد منهم نسبة (10.52%) بمجموع قصيدتين لكلّ حرف، وهم يحتلّون الرّتبة الثّالثة.

**المجموعة الرّابعـة:**

---

[1] أنظر: **إبراهيم أنيس**. الأصوات اللّغويّة. ص26 وما بعدها.

تضمّ حروف (العين، الفاء، الحاء، الياء، النّون)، يمثّل كلّ حرف منهم نسبة (5.26%) بمعدّل قصيدة واحدة، وهي بذلك تحتلّ الرّتبة الرّابعة.

وما نخلص إليه، أنّ حرف الياء تصدّر القائمة، وهو كما صنّفه إبراهيم أنيس من بين الحروف كثيرة الشّيوع في الرويّ، حيث يمتاز بقيمة صوتيّة كبيرة، ويشاركه في هذه الأهميّة حرف الميم الذي يليه مباشرة من حيث نسبة التّواتر، ويعدّ هذا الحرف من الأصوات التي تحقّق أعلى درجات الوضوح السّمعي، وذلك لأنّه من أشباه حروف اللّين[1].

أمّا بقيّة الحروف، وعلى أهميّتها التي سبق الإشارة إليها جاءت بنسب قليلة ومتفاوتة، يميّزها أنّها تشترك في نسب التّواتر.

**2) عيـوب القافيـة:**

ممّا تقدّم، يتّضح اهتمام أبي حمّو بالقافية، بكلّ مكوّناتها كأحد معالم الإيقاع المهمّة، فكان حريصا على أن تكون مطابقة للقالب التّقليديّ، كما عمل على أن تكون سليمة من العيوب، مخافة تأثيرها السّلبيّ على القيمة الموسيقيّة للقصيدة، غير أنّ الأمر لا يخلو من بعضها مهما كان الحرص.

والمتتبّع لشعر أبي حمّو، يجد أنواعا مختلفة من العيوب من أهمّها:

**أ. سنـاد الإشبـاع:**

و هو تغيير حركة الدّخيل[2]، ونقصد بالدّخيل الحرف الذي يسبق الرويّ، وهو أنواع عديدة:

- تناوب الفتحة والضمّة:

مَا زِلْتَ بِفَضْلِكَ تَرْحَمُنِـي ... وَ تَجُودُ عَلَيَّ عَلَـى القِـدَمِ
وَ العَبْدُ بِبَابِكَ مُلْتَـزِمٌ ... وَ بِغَيْرِ جَنَابِكَ لَمْ يَحُـمِ [3]

وقوله كذلك:

عَمَّتْ شَفَاعَتُهُ لِلْخَلْق ِ كُلِّهِـمِ ... وَ بِالوَسِيلَةِ يَرْقَى أَرْفَعَ الـدَّرَجِ
مُحَمَّدٌ خَيْرُ خَلْقِ اللهِ قَاطِبَـةً ... نُورُ الهُدَى وإِمَامُ الرُّسْلِ والسُّرُجِ [1]

---

[1] أنظر: **كمال بشر.** علم الأصوات. دار غريب للطّباعة والنّشرو التّوزيع. القاهرة. 2000. ص357.

[2] **محمّد كراكبي.** خصائص الخطاب الشّعري في ديوان أبي فراس. 87.

[3] **عبد الحميد حاجيات.** أبو حمّو موسى الزّياني. 341.

- تناوب الكسرة والضمّة:

وَ العُمْرُ تَوَلَّى مُنْصَـرِمًا     آهٍ لِلْعُمْـرِ المُنْصَـرِمِ
وَ كَذَا الأَيَّامُ لَهَا عِبَــرٌ     وَ لَيَالِي الدَّهْرِ كَمَا الحُلُـمِ[2]

- تناوب الفتحة والكسرة:

أَنْتَ المُنْجِي لِنُوحٍ فِي سَفِينَتِـهِ     وَ مُخْرِجُ يُونُسَا مِنْ ظُلْمَةِ اللُّجَجِ
يَا مَنْ وَقَى يُوسف الصِدِّيق كُلَّ أَذَى     لَمَّا رَمَوْهُ بِجُبٍّ ضَيِّقٍ حَـرِجِ[3]

وقوله كذلك:

يَا مَنْ وَقَاهُ الرَّدَى فِي الغَارِ إِذْ نَسَجَتْ     بِبَابِهِ عَنْكَبُوتٌ خَيْرَ مُنْتَسَـجِ
وَ كُلَّمَا حَاوَلُوا مَكْرًا بِهِ اِنْقَلَبُـوا     بِالرُّعْبِ مَا بَيْنَ مَكْبُوتٍ ومُنْزَعِـجِ [4]

ومن بين أنواع "سناد الإشباع" تتابع حركتين طويلتين مختلفتين:

أَلِفْتُ الضَّنَى وأَلِفْتُ النَّحِيبَـا     وَ شَبَّ الأَسَى فِي فُؤَادِي لَهِيبَا
وَ حَقَّ لِنَفْسِي أَسَى أَنْ تَذُوبَـا     وَ لِلدَّمْعِ مِنْ مُقْلَتِي أَنْ يَصُوبَـا[5]

وقوله في أبيات أخرى:

جَفَانِي الحَبِيبُ فَسُرَّ الحَسُودُ     وَ أَدْنَى البَعِيدَ وأَقْصَى القَرِيبَا
وَ ذَنْبِي أَوْجَبَ هَجْرِي فَمَـا     جَفَانِي حَتَّى جَنَيْتُ الذُّنُوبَـا [6]

**ب. الايطــاء:**

وهو أن تكرّر لفظة واحدة بنفس المعنى قبل سبع أبيات[7]، فعدّ هذا مستكرها، وكلّما تباعد الايطاء كان أخفّ.

ومن الأمثلة التي وردت في الايطاء قول الشّاعر:

فَإِنَّ الهَوَى لاَ يَسْتَفِزُّ ذَوِي النُّهَـى     وَ لاَ يَسْتَبِي إِلاَّ الضَّعِيفَ العَزَائِمِ [1]

---

[1] **يحي بن خلدون**. بغية الروّاد. 2: 153.

[2] **أبو حمّو موسى الثّاني**. واسطة السّلوك في سياسة الملوك. 10.

[3] **يحي بن خلدون**. بغية الروّاد. 2: 152.

[4] **عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 363.

[5] **يحي بن خلدون**. بغية الروّاد. 2: 162.

[6] **يحي بن خلدون**. المصدر نفسه. 2: 162.

[7] أنظر: **ابن رشيق**. العمدة. 1: 169.

ثمّ يقول بعد بيت واحد:

فَمَا فَازَ بِالعَلْيَا سِوَى كُلِّ مَاجِدٍ    مُشَمِّرِ سَاقِ الجِدِّ مَاضِـي العَزَائِمِ[2]

ويرد الإيطاء في مثال آخر:

نَظَمْنَا شَتِيتَ المُلْكِ بَعْدَ اِفْتِرَاقِـهِ    وَ كَمْ بَاتَ نَهْبًا شَمْلَـةٌ دُونَ نَاظِـمِ[3]

ثمّ يردف بعد بيتين قائلا:

يَقْصُرُ عَنْ إِدْرَاكِهَا كُلُّ مُبْتَـغٍ    وَ يَعْجَزُ عَنْ إِحْصَائِهَا كُلُّ نَاظِـمِ[4]

ولعلّ من أسوء الأمثلة التي يأتي فيها الايطاء مستقبحا قول الشّاعر:

مِنْ كُلِّ لَيْثٍ شُجَاعٍ فَارِسٍ بَطَـلٍ    حَامِي الذِّمَارِ مِنَ الأَعَاجِمِ والعَرَبِ[5]

عَلَى سَوَابِقِ خَيْلٍ ضُمَّرٍ عَـرَبٍ    تَزْهَى بِحُلْيَتِهَا كَالخُرَّدِ العَرَبَ

حيث نلاحظ استخدام لفظـة "العرب" مرّتين علـى التّوالي، وهذا ما يسمّى بالايطـاء "الأسمج"[6]، أمّا الأمثلـة السّابقة فقد لاحظنـا تكرار كلمتـي " العزائم، نـاظم" بفـارق بسيط لا يتعدّى البيتين كأقصى حدّ.

**ج. الاقــواء:**

ونقصد به اختلاف حركة الرويّ بين الضمّ والكسر[7]، ولم يرد الاقواء إلاّ فـي قصيدة واحدة، نورد بعضا منها، وهي علـى غير ترتيب، يقول الشّـاعر في مولديّته "الميميّة" مكسورة الرويّ:

سَرَتِ الإِبِلُ لَمَّا اِرْتَحَلُـوا    قَلْبِي حَمَلُوا فِـي رَكْبِهِـمُ

زَارُوا الهَادِي بِهَوَى بَـادِي    وَ حَدَا الحَادِي عَزْمًا بِهِـمُ

طَافُوا بِالبَيْتِ وقَدْ وَقَفُـوا    وَ دَعُوا إِذْ ذَاكَ لِرَبِّهِـمُ

غُفِرَتْ بِالبَيْـتِ ذُنُوبُهُـمُ    عِنْدَ الإِقْـرَارِ بِذَنْبِهِـمُ

---

(1) **يحي بن خلدون**. بغية الروّاد. 2: 93.

(2) **يحي بن خلدون**. المصدر نفسه. 2: 93.

(3) **يحي بن خلدون**. بغية الروّاد . 2: 95.

(4) **عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 321.

(5) **عبد الحميد حاجيات**. المصدر السابق. 224.

(6) أنظر: **قدامة ابن جعفر**. نقد الشّعر. 182.

(7) أنظر: **قدامة ابن جعفر**. المصدر نفسه. 181.

وَ لأَنِّي أَمِيرُ الخَلْقِ فَلَـمْ أَسْطِعْ سَيْرًا مِـنْ أَجْلِهِـمُ[1]

هذا ما استطعنا رصده من عيوب القافية، في شعر أبي حمّو، وحسبنا إن سقط منها نوع، أن تكون أمثلتنا قد أحاطت بالأكثر ورودا في شعره، وبالقافية نكون قد أنهينا دراسة الموسيقى الخارجيّة، ورغم ذلك يبقى حكمنا على الموسيقى الشّعريّة لدى أبي حمّو ناقصا، إلى أن نعرّج على الموسيقى الدّاخليّة.

**ب- الموسيقى الدّاخليّة:**

لا تقلّ الموسيقى الدّاخليّة أهميّة عن أختها، فإذا كانت هذه الأخيرة تهتمّ بالشّكل العروضي الذي يعدّ قاسما مشتركا بين جميع الشّعراء، لم يبق أمام أحدهم «للتّعبير عن مشاعره وخصوصيّة موضوعه إلاّ مجال الموسيقى الدّاخليّة، أو الطّارئة التي تنتج عمّا يحدثه الشّاعر في الوزن الأصلي من زحافات وعلل، كما تنتج عن كيفيّة اختياره الكلمات وترتيبها، وبهذه الموسيقى الخفيّة، يتفاضل الشّعراء وبها تبرز خصوصيّة موضوعاتهم أيضا»[2]، والموسيقى الخارجيّة «تستمدّ دلالتها وروحها من لغة الشّعر، بما تنطوي عليه، من خصائص صوتيّة دلاليّة»[3].

سنحاول، الكشف عن خصائص الموسيقى الدّاخليّة عند الشّاعر، من خلال تتبّع التّنويع الموسيقي الدّاخلي، وعليه ستركّز الدّراسة على: الزّحافات والعلل، التّصريع، التّرصيع، التّشاكل الصّوتي.

**ب-1. الزّحافات والعلل:**

يعدّ استعمال الزّحافات والعلل مقبولا من النّاحية العروضيّة، خاصّة عندما تقتضي الضّرورة ذلك، لكنْ يوقع الإكثار منه الشّعراء في فجوات نغميّة، تستثقلها الأذن، وينفر منها المتلقّي، وللزّحافات والعلل إسهامها الخاصّ في القصيدة، فهي تضفي عليها بعض التّنويعات الموسيقيّة الطّفيفة، التي تفكّ عنها قيد الرّتابة والجمود، الذي يفرضه الإيقاع الواحد، ومهما يكن يبقى التّقليل منها، أو التّوظيف الحكيم لها أحسن وأفيد.

---

(1)**عبد الحميد حاجيات.** أبو حمّو موسى الزّياني. 343.

(2) **ابن سلامة الرّبعي** . محاضرات في القصيدة العربيّة. منشورات جامعة منتوري. قسنطينة. 2002/ 2003. ص31.

(3)**محمّد زلاقي.** بناء القصيدة المولديّة في المغرب الإسلامي. 540.

وبالرّجوع إلى شعر أبي حمّو، نجده قد ساير النّموذج التّقليدي، فوظّف في شعره أكثر من نوع، تثبتها النّماذج التّالية:

**1) زحـاف الإضمـار:**

ويُقصد به تسكين الثّاني المتحرّك في التّفعيلة[1]، ومن نماذجه قول الشّاعر في بحر الكامل:

| | |
|---|---|
| وَ بَدَاْ غُرَاْبُ اَلْبَيْنِ فِيْ عَرَصَاْتِهَاْ | يَرْثِـيْ عَلَيْهَاْ مَنْزِ◌َلاْ فِيْ مَنْـزِلِ |
| o / / o / / / o / / o / o / o / / o / / / | o / / o / o / o / / o / o / o / / o / o / |
| متفاعلن متفاعلن متفاعلن | متفاعلن متفاعلن متفاعلن |
| وَ اَلْوَصْلُ وَلَّىْ رَاْحِ◌َلاْ فِيْ إِثْرِهِ | قَاضِ اَلْفِرَاْقِ عَلَىْ كَتِيْبِ مُحَجَّلِ[2] |
| o / / o / o / o / / o / o / o / / o / o / | o / / o / / / o / / o / / / o / / o / o / |
| متفاعلن متفاعلن متفاعلن | متفاعلن متفاعلن متفاعلن |

ونلاحظ أنّ زحاف الإضمار، قد لحق بالتّفعيلة "مُتَفَاعِلُنْ" فصارت "مُتْفَاعِلُنْ"، وذلك في التّفعيلات الموضّحة ضمن الأمثلة، وقد وردت كما يلي:

| | |
|---|---|
| ـ مُتْفَاعِلُنْ ـ | مُتْفَاعِلُنْ مُتْفَاعِلُنْ مُتْفَاعِلُنْ |
| مُتْفَاعِلُنْ مُتْفَاعِلُنْ مُتْفَاعِلُنْ | مُتْفَاعِلُنْ ـ ـ |

كما ورد في الأبيات التّالية:

| | |
|---|---|
| وَ إِذَاْ مَرَرْتَ عَلَىْ اَلرُّبُوْعِ مُسَلِّمَاْ | فَاْسْأَلْ عَنِ اَلْقَلْبِ اَلْغَرِيبِ اَلْمُفْرَدِ |
| o / / o / / / o / / o / / / o / / o / / / | o / / o / o / o / / o / o / o / / o / o / |
| متفاعلن متفاعلن متفاعلن | متفاعلن متفاعلن متفاعلن |
| حَدِّثْ بِهَاْ خَبَرَ اَلْأَسَى عَنْ مُدْنِفٍ | بِحُلَىْ اَلْغَرَاْمِ مُوَشَّحٍ ومُقَلَّـدِ[3] |
| o / / o / o / o / / o / / / o / / o / o / | o / / o / / / o / / o / / / o / / o / / / |
| متفاعلن متفاعلن متفاعلن | متفاعلن متفاعلن متفاعلن |

---

(1) أنظر: **عبد الدّايم صابر**. موسيقى الشّعر العربي بين الثّبات والتطوّر. مكتبة الخانجي. القاهرة. ط3 .1993. ص73.

(2) **عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 295.

(3) **عبد الحميد حاجيات**. المصدر نفسه. 327.

ونلاحظ أنّ الإضمار، قد لحق بالبيتين كما يلي:

ـ ـ ـ مُتْفَاعِلُنْ مُتْفَاعِلُنْ مُتْفَاعِلُنْ

مُتْفَاعِلُنْ ـ مُتْفَاعِلُنْ ـ ـ ـ

وما توضّحه الأمثلة السّابقة، التّفاوت النّغميّ الحاصل بين شطري البيت الواحد، وبين الأبيات فيما بينها، خاصّة في الأشطر التي مسّ الإضمار فيها كلّ التّفعيلات.

**2) زحاف الخبــن:**

وهو حذف السّاكن الأوّل من التّفعيلة، ولتوضيحه نمثّل بالأبيات التّالية من بحر البسيط:

| | |
|---|---|
| وَ لُطْفُ رَحْمَتِهِ يَأْتِيْ عَلَىْ قَنَطٍ | إِذَاْ اَلْقُنُوطُ دَعَاْ يَاْ أَزْمَةَ اِنْفَرِجِيْ |
| //0//0///0/0/0//0///0 | //0//0///0/0/0//0///0 |
| متفعلن فعلن مستفعلن فعلن | متفعلن فعلن مستفعلن فعلن |
| وَ مَنْ إِذَاْ حَلَّ خَطْبٌ واعْتَرَتْ نُوَبٌ | أَبْدَى مِنَ اَللُّطْفِ مَاْ لَمْ يَجْرِ فِيْ اَلْمُهَجِ(1) |
| //0/0//0/0//0/0/0//0///0 | /0/0//0/0//0/0/0//0///0 |
| متفعلن فاعلن مستفعلن فعلن | مستفعلن فاعلن مستفعلن فعلن |

وقد كان اتّصال "الخبن" بتفعيلات البسيط كالآتي:

متفعلن فعلن ـ فعلن — متفعلن فعلن ـ فعلن

متفعلن ـ ـ فعلن — ـ ـ ـ فعلن

ويظهر الخبن أيضا، في الأبيات الآتية من الشّعر السّياسي:

| | |
|---|---|
| فَكَمْ تُحَاْوِلُ أَمْرًاْ لَيْسَ تُدْرِكُهُ | تُخْطِيْ اَلْطَّرِيْقَ وكَمْ تَرْمِيْ فَلَاْ تُصِبِ |
| //0//0///0/0/0//0///0 | /0/0//0///0/0/0//0///0 |
| متفعلن فعلن مستفعلن فعلن | متفعلن فعلن مستفعلن فعلن |
| قَدْ خُنْتَ مِنْ بَعْدِ أَيْمَانٍ مُؤَكَّدَةٍ | وَ تِلْكَ عَادَتُكُمْ فِيْ سَاْلِفِ اَلْحِقَبِ (2) |

(1) **يحي بن خلدون**. بغية الروّاد. 2: 152.

(2) **يحي بن خلدون**. المصدر نفسه. 2: 152.

/ O / O / / O / O / / O / O / O / / O / / / O      / / O / / O / / / O / O / O / / O / / / O

مستفعلن فاعلن مستفعلن فعلن      متفعلن فعلن مستفعلن فعلن

وقد لحق الخبن بتفعيلات البيتين كما يلي:

متفعلن فعلن ـ فعلن      متفعلن فعلن ـ فعلن

ـ ـ ـ فعلن      متفعلن فعلن ـ فعلن

يمكننا ملاحظة التّغييرات التي أحدثها "الخبن" في تفعيلة "مستفعلن" التي صارت "متفعلن"، ونفس الشّيء بالنّسبة لتفعيلة "فاعلن" التي تحوّلت إلى "فعلن"، وكما تثبت الأمثلة السّابقة، لقد استخدم الخبن بصورة واسعة، حتّى أنّ التّفعيلات المخبونة تفوّقت على الصّحيحة.

### 3) زحاف القبـض:

و هو حذف خامس التّفعيلة السّاكن، إذا كان ثاني سبب[1]، ويظهر دخول هذا الزّحاف في الأبيات التّالية من بحر الطّويل:

وَقَفْتُ بِهَاْ مِنْ بَعْدِ بُعْدِ أَنِيسِهَا      بِصَبْرِ مُنَافٍ أَوْ بِشَوْق ِ مُلازِمِ

/ / O / / / O / O / O / / O / / / O / / O      / / O / / / O / O / O / / O / / / O / / O

فعول مفاعيلن فعول مفاعلن      فعول مفاعيلن فعول مفاعلن

تَهِيمُ بِمَغْنَاْهُمْ وتَنْدُبُ رَبْعَهُمْ      وَ أَيُّ فُؤَادٍ بَعْدَهُمْ غَيْرُ هَاْئِمِ[2]

/ / O / / / O / O / O / / O / / / O / / O      / / O / / / O / O / O / / O / O / / O / / O

فعول مفاعيلن فعول مفاعلن      فعول مفاعيلن فعولن مفاعلن

كما يظهر القبض كذلك في الأبيات التّالية:

جَرَتْ أَدْمُعِيْ بَيْنَ اَلْرُّسُوْمِ اَلْطَّوَاْسِمِ      لِمَاْ شَحِطَتْهَاْ مِنْ هُبُوبِ اَلْرَّوَاكِمِ

/ / O / O / / O / O / O / / O / O / / O      / / O / / / O / O / O / / O / O / / O / / O

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن      فعول مفاعيلن فعولن مفاعلن

وَقَفْتُ بِهَا مُسْتَفْهِمًاْ لِخِطَاْبِهَاْ      وَ أَيُّ خِطَاْبٍ ِلِلْصِّلَاْدِ اَلْصَّلاْدِمِ[3]

---

[1] أنظر: **عبد الدّايم صابر**. موسيقى الشّعر العربي. 74

[2] **عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 317.

[3] **عبد الحميد حاجيات**. المصدر نفسه. 299.

//o///o//o/o/o///o//   o//o//o/o//o/o/o///o//

فعول مفاعيلن فعول مفاعلن   فعول مفاعيلن فعولن مفاعلن

لقد لحق "القبض" بأغلب التّفعيلات، وهذا ما نؤكّده في تمثيل الأبيات السّابقة:

**المثال الأوّل:**

فعول ـ فعول مفاعلن   فعول ـ فعول مفاعلن

فعول ـ فعول مفاعلن   فعول ـ ـ مفاعلن

**المثال الثّاني:**

ـ ـ ـ مفاعلن   فعول ـ ـ مفاعلن

فعول ـ فعول مفاعلن   فعول ـ ـ مفاعلن

ويتّضح –ممّا تقدّم– التحاق زحاف "القبض" بأغلب التّفعيلات، محقّقا بذلك تلوينا موسيقيّا ملفتا.

**4) علّـة القطـع:**

وهي حذف ساكن الوتد المجموع، وإسكان ما قبله[1]، ونورد لها المثال التّالي من بحر الكامل:

هَجَرَ السَّلْوَ فَمَا يُقِرُّ قَرَارَهُ   فَيَضَلُّ حَلْفَ تَأَوُّهٍ وتَنَهُّدِ[2]

///o/o///o//o///o//o   ///o//o///o//o///o//o

متفاعل متفاعلن متفاعلن   متفاعلن متفاعلن متفاعلن

وقد لحقت علّة "القطع" بالتّفعيلة الأولى من الشّطر الأوّل فتحوّلت "متفاعلن" إلى "متفاعل".

ومن نماذجه أيضا، قول الشّاعر:

فَبَكَيْتُ مِنْ أَسَفٍ لِذَاكَ كَمَا بَكَتْ   حُزْنًا عَلَيْهِ مَنَازِلِيْ ورُبُوْعِيْ

///o//o///o//o///o//o   /o/o//o///o//o///o/o

متفاعلن متفاعلن متفاعلن   متفاعلن متفاعلن متفاعل

---

[1] أنظر: **عبد الدّايم صابر**. موسيقى الشّعر العربي. 77.

[2] **يحي بن خلدون**. بغية الروّاد. 2: 264.

لَمْ تُنْصِفِ اَلْأَيَّامُ حَرَّ فِرَاْقِهِ ۝ لاْكِنَّهُ قَدْ أَنْصَفَتْهُ دُمُوْعِيْ

/ o / o / / o / o / o / / o / / / o / / o ۝ / o / o / / o / o / o / / o / / / o / o

متفاعلن متفاعلن متفاعلن ۝ متفاعلن متفاعلن متفاعل

عَجَبًاْ لأَجْفَانِي سَخَتْ بِدُمُوْعِهَاْ ۝ وَ اَلْقَلْبُ مُحْتَرِقٌ بْنَاْرِ ضُلُوْعِيْ[1]

/ / / o / / o / o / o / / o / / / o / / o ۝ / o / o / / o / / / o / / o / / / o / o

متفاعلن متفاعلن متفاعلن ۝ متفاعلن متفاعلن متفاعل

يتّضح من الأبيات السّابقة، أنّ علّة "القطع" لحقت بتفعيلة الضّرب في كلّ الأبيات، فتحوّلت (متفاعلن) إلى (متفاعل).

كما لاحظنا، استخدم الشّاعر أنواعا متعدّدة من الزّحافات والعلل، أضفت على شعره نوعا من الحيويّة والحركة، وجنّبت المتلقّي عناء التّواصل مع نصوص شعريّة تصبغها الرّتابة والملل، وما يستوقفنا عددها الكبير على المستوى الأفقي (البيت) وعلى المستوى العمودي، ولعلّ هذه الكثرة هي ما يؤاخذ عليها في الزّحافات والعلل.

**ب-2. خاصيّـة التّصريـع:**

وهي تصيير مقطع آخر المصراع الأوّل في البيت الأوّل من القصيدة مثل قافيتها[2]، وهذه الخاصيّة نجدها كثيرة الحضور في شعر أبي حمّو، وهو بذلك يعانق نموذج الشّعر العربي القديم، وأهمّ ما يميّز هذا النّموذج من الإيقاع، أنّه يمكّن من التعرّف على رويّ القصيدة وقافيتها قبل انتهاء البيت الشّعري، كما أنّه يقع في النّفس موقعا حسنا بسبب ما يحدثه من تنغيم.

ومن الأمثلة التي نستشهد بها في هذا المقام قول الشّاعر:

حَانَ الفِرَاقُ فَكُنْتُ مِنْهُ بِمَنْزِلِ ۝ وَ دَنَا الرَّحِيلُ فَكُنْتُ فِيهِ بِأَوَّلِ[3]

/ o / o / / o / / / o / / o / / / o / / ۝ / / / o / / o / / / o / / o / / / o / / o

متفاعلن متفاعلن متفاعلن ۝ متفا علن متفاعلن متفاعلن

وقوله كذلك:

---

[1] **يحي بن خلدون**. المصدر نفسه. 2: 105.

[2] أنظر: **قدامة ابن جعفر**. نقد الشّعر. 51.

[3] **حاجيات. عبدالحميد**. أبو حمّو موسى الزّياني. 295.

جَرَتْ أَدْمُعِي بَيْنَ الرُّسُومِ الطَّوَاسِمِ          لِمَّا شَحَطَتْهَا مِنْ هُبُوبِ الرَّوَاكِمِ[1]

//o/o//o/o/o//o/o//o          //o///o/o/o//o/o//o//o

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن          فعول مفاعيلن فعولن مفاعلن

ونلاحظ، أنّ الشاعر حرص على أن يتطابق الضّرب مع العروض من النّاحية العروضيّة، ففي البيت الأوّل تتّفق العروض والضّرب، فجاءت تفعيلة بحر الكامل صحيحة، وهي (متفاعلن) وكذلك في البيت الثّاني، حيث لحق زحاف القبض كلاً من الضّرب والعروض.

ويقول في بيت آخر:

دَنِفٌ تَذَكَّرَ حَسْرَةَ التَّوْدِيعِ          وَ هَنِيءَ وَصْلٍ بِالنَّوَى مَقْطُوعِ[2]

///o//o///o//o/o/o/o          ///o//o/o/o//o/o/o/o

متفاعلن متفاعلن متفاعل          متفاعلن متفاعلن متفاعل

و قوله:

صَبٌّ تَذَكَّرَ عَهْدًا بِالحِمَى سَلَفًا          فَضَلَّ يَسْكُبُ دَمْعًا هَاطِلاً وكَفَا[3]

/o/o//o///o/o/o//o//          //o//o///o/o/o//o///o

مستفعلن فعلن مستفعلن فعلن          متفعلن فعلن مستفعلن فعلن

نفس الملاحظة السّابقة تتكرّر، حيث نلاحظ تطابقا تامّا بين العروض والضّرب عروضيّا، ففي البيت الأوّل لحقت كلاً منهما علّة القطع، أمّا في البيت الثّاني فقد اتّصل بهما زحاف الخبن، والجدير بالملاحظة، أنّ الشّاعر ألزم نفسه التّصريع في كلّ مطالع قصائده، فلم تَخْلُ واحدة منه، وهو أكبر دليل على ولاء الشّاعر للنّموذج العربي القديم.

ومن الواضح ميل الشّاعر الكبير للتّصريع، إذ أنّه لم يكتف تعمّده في مطلع القصائد فقط، بل جعله أيضا في ثنايا القصيدة الواحدة، كقوله في المتقارب:

فَمِفْتَاحُهَا الصَّبْرُ إِنْ ضُيِّقَتْ          فَصَبِرًا فَبِالصَّبْرِ يُرْجَى الحَبَا

---

[1] **عبد الحميد حاجيات.** المصدر نفسه. 299.

[2] **يحي بن خلدون.** بغية الروّاد. 2: 104.

[3] **عبد الحميد حاجيات.** أبو حمّو موسى الزّياني. 336.

فَكَمْ مِنْ جَوَادٍ جَوَادٍ كَبَـا    وَ كَمْ مِنْ حُسَامٍ حُسَامٍ نَبَـا[1]

وهنا يظهر التّصريع وسط القصيدة بين "كبا" و"نبا"، وقوله أيضا في بحر المتقارب:

أَلِفْتُ الضَّنَى وأَلِفْتُ النَّحِيبَـا    وَ شَبَّ الأَسَى فِي فُؤَادِي لَهِيبَـا

وَ حَقَّ لِنَفْسِي أَسًـى أَنْ يَذُوبَـا    وَ لِلدَّمْعِ مِنْ مُقْلَتِي أَنْ يَصُوبَـا

وَ قَدْ كُنْتُ بِالوَصْلِ مِنْكُمْ قَرِيبًا    فَأَصْبَحْتُ بِالهَجْرِ مِنْكُمْ غَرِيبَـا[2]

فقد وردت الأبيات الثّلاثة الأولى من مطلع القصيدة مصرّعة، وهذا يدلّ على عناية واهتمام الشّاعر بهذه الخاصيّة.

ومن النّماذج الأخرى التي ألفيناها عند الشّاعر، أنّه لا يكتف بالتّطابق العروضي بين الضّرب والعروض، بل يتعدّاه ليشمل تكرار نفس الكلمة في آخر كلّ شطر، لكن بمعنيين مختلفين:

وَ قَدْ تَعَلَّمْتُ مِنْ حُبِّي لَهُمْ خَبَبَا    وَ خَيْلُ رَاحَتِنَا تَجْرِي بِنَا خَبَبَا[3]

ويقول أيضا:

مَا لِصَبٍّ مُشَوَّقٍ صَبَـا    إِذَا مَا تَذَكَّرَ عَهْدَ الصِّبَـا[4]

ويتجلّى في البيتين، التّطابق بين كلمة (خببا) في المصراع الأوّل من البيت، مع (خببا) في المصراع الثّاني، والأمر نفسه بالنّسبة لكلمة (صبا)، ومن النّماذج السّابقة، يتّضح هيام الشّاعر بالتّصريع وولاؤه الشّديد للنّموذج القديم من القصيدة العربيّة.

**ب-3. خاصيّـة التّرصيـع:**

هو لون من ألوان الإيقاع الدّاخلي، يعرّف بأنّه «تصيير مقاطع الأجزاء في البيت على سجع أو شبيه به، أو من جنس واحد في التّصريف»[5].

وبعد الإطّلاع على شعر أبي حمّو تجلّى توظيفه الواسع لهذه القيمة الصّوتيّة، بل والتّنويع فيها كذلك، فقد يرد التّرصيع في فاصلتين اثنتين في البيت الواحد، كقوله:

مَكَحَّلَةُ الأَحْدَاقِ فِيهَا هَشَاشَةٌ    مُهَمْلَجَةُ الأَطْرَافِ سُودُ المَبَاسِمِ[1]

---

[1]**عبد الحميد حاجيات**. المصدر نفسه. 379.

[2]**يحي بن خلدون**. بغية الروّاد. 2: 162.

[3]**عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 372.

[4]**عبد الحميد حاجيات**. المصدر نفسه. 378.

[5]**بكار حسين** . بناء القصيدة في النّقد العربي. دار الأندلس. لبنان. ط2 .1983. 173.

وأحيانا يتكرّر التّرصيع في ثلاث فواصل تتعدّى الشّطر الأوّل من القصيدة لتشمل الشّطر الثّاني، وهذا ما نثبته في الأبيات التّالية:

قَلْبِي اِنْفَطَرَا والدَّمْعُ جَرَى وَ الرَّكْبُ سَرَى نَحْوَ العَلَمِ

قَلْبِي بِنَوَاهْ أَسِيرُ هَوَاهْ فَيَا شَوْقَاهْ إِلَى الخِيَّمِ[2]

ويقول كذلك:

إلاَّ المَوْلَـى يُسْدِي الطُّولَى رَبِّي الأَعْلَى، شَافِي عِلَلِي[3]

كما أنّنا نجده في مواضع أخرى، لا يكتف بفواصل تضمّها أبيات متفرّقة داخل القصيدة، بل يتّسع الإيقاع ليجمع أبياتا عديدة متتالية، وكأنّه أسلوب يسلكه ليؤكّد فكرة معيّنة أو يثبت انفعالا خاصّا، غير أنّ هذا التّتابع يكون على أوزان مختلفة:

لَيْلِي سَهَرٌ يَوْمِي فِكْرٌ دَمْعِي دُرَرٌ بُرْئِي عِلَلِي

نَفْسِي ضَجِرَتْ لَمَّا اِفْتَكَرَتْ هَلاَّ نَظَرَتْ مَا يَصْلُحُ لِي

إِثْمِي كَثُرَا، شَيْبِي ظَهَرَا وَ قَدْ اِشْتَهَرَا، والأَمْرُ جَلِي[4]

وقد يرد التّرصيع في فواصل أربعة، تغطّي كلّ البيت الشّعري:

مُنْشِي الرِّمَمِ، مُعْطِي القَسَمِ بَارِي النَّسَمِ، مُحْيِّ الدُّوَلِ[5]

ولعلّ شغف أبي حمّو بالتّرصيع، يدفع به أن يطلبه في صور أخرى، من بينها ما يسمّيه النّقد القديم بالتّعادل أو التّوازن، وهو أن تكون الفواصل على رنّة واحدة، وإن لم يكن الحرف واحدا[1]

---

(1) **أبو حمّو موسى الثّاني**. واسطة السّلوك في سياسة الملوك. ص15.

(2) **أبو حمّو موسى الثّاني**. واسطة السّلوك في سياسة الملوك. ص11.

(3) **أبو حمّو موسى الثّاني**. المصدر السابق. 06.

(4) **أبو حمّو موسى الثّاني**. المصدر نفسه. 05-06.

(5) **عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 310.

وقد سمّي هذا النّوع في المصطلح الحديث بالتّرصيع الصّرفي، ومن أمثلته قول الشّاعر:

صِدَامُهَا رِدَاخُهَا حِكَامُهَا شِرَادُهَا وِرَادُهَا بِالفَيْصَلِ

وإذا أخضعنا البيت إلى الميزان الصّرفي تجلّت الظّاهرة وستكون النّتائج كالآتي:

فِعَالُهَا فِعَالُهَا فِعَالُهَا فِعَالُهَا فِعَالُهَا بِالفَيْعَلِ

نلاحظ أنّ جلّ البيت تقريبا جاء على وزن (فِعَالُهَا) ما عدى الكلمة الأخيرة فيه.

وأنظر قوله كذلك:

وَ الأَرْضُ هامِدَةٌ والأُسْدُ دَاهِشَـةٌ وَ البِيضُ ضَاحِكَةٌ تَزْهُو عَلَى الزَّانِ [2]

ويماثلها صرفيّا:

وَ الفَعْلُ فَاعِلَةٌ والفُعْلُ فَاعِلَةٌ وَ الفِعْلُ فَاعِلَةٌ تَفْعَلْ فَعَلْ اَلْفَعْلِ

أضف إلى ما تقدّم، يستعرض الشّاعر قدرته الإبداعيّة في تشكيل التّرصيع وتنويعه، من خلال دعم الميزان الصّرفي، بالإيقاع النّاتج عن تكرار النّعوت أو المبتدأ أو الجمل، اسميّة كانت أو فعليّة...إلخ.

يقول الشّاعر في هذا المقام:

كَرِيمُ السَّجَايَا عَظِيمُ المَزَايَا جَزِيلُ العطَايَا جَمِيلاً مُهِيبَا[3]

حيث تعمّد الشّاعر ترديد "المبتدأ" المتكوّن من مضاف ومضاف إليه ثلاث مرّات في البيت، وهذا ما أنتج تنغيما صوتيّا خاصّا.

ويقول في موضع آخر:

حَمَلُوا خَلَدِي أَفْنُوا جِلْدِي تَرَكُوا جَسَدِي رَهْنَ السَّقَمِ[4]

نلاحظ تردّد الجملة الفعليّة ثلاث مرّات في البيت الشّعري، محدثة إيقاعا تستحسنه الأذن.

---

(1)**العسكري**. كتاب الصّناعتين. تحقيق: مفيد قميحة. دار الكتب العلميّة. بيروت. لبنان. 1401هـ- 1981. ص289.

(2)**عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 316.

(3)**يحي بن خلدون**. بغية الروّاد. 2: 163.

(4)**عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 342.

ممّا تقدّم، يبرز اهتمام أبي حمّو بتوظيف التّرصيع في شعره بشكل واسع، وكأنّه يتّخذه وسيلة للتّعبير عن عواطفه وأفكاره، من خلال التّأكيد عليه بتكرار الإيقاع الموسيقي، ومن جهة أخرى يثبت قدرته على التّلاعب باللّغة وتطويعها في خدمة التّجربة الشّعريّة.

**ب-4. التّشاكـل الصّوتـــي:**

يعدّ التّشاكل الصّوتي من أبرز الظّواهر الصوتيّة التي شدّتنا في شعر أبي حمّو باعتبار كمّ الإيقاعات الموسيقيّة الموظّفة، والتي حضيت باهتمام الشّاعر ورعايته.

و نقصد به، الإيقاع الموسيقيّ النّاتج عن ترديد حروف أو ألفاظ معيّنة، تضفي على النّص الشّعري جمالا وحيويّة، وممّا نستهلّ به، قول الشّاعر:

وَ لاَ شَغُفْتُ بِحُسْنٍ غَيْرَ حُسْنِكُمُ ... وَ لاَ أَخَذْتُ عَلَيْكُمْ فِي الهَوَى ثَانِي

وَ لاَ شَرَبْتُ لَذِيذَ المَاءِ مِنْ عَطَشٍ ... إلاَّ رَأَيْتُ خَيَالاً مِنْكَ خَالاَنِـي

وَ لاَ جَلَسْتُ إِلَى قَوْمٍ أُحَدِّثُهُـمْ ... إلاَّ حَدِيثَكَ مَعَ قَاصٍ ومَعَ دَانِـي[1]

من المؤكّد، أنّ ترديد حرفي "ولا" على التّوالي يحدث إيقاعا صوتيّا يبعث في الأبيات حيويّة، ويعمل على تأكيد المعنى من خلال إيضاح الفكرة المعبّر عنها والمتمثّلة في إثبات تعلّق الشّاعر بمدينته "تلمسان" التي رمز لها بأبيات غزليّة.

ونشهد نفس الظّاهرة في القطعة الآتية:

أَوْ أَحْمَرٍ كَالوَرْدِ لَوْنُ أَدِيمِـهِ ... أَوْ أَشْقَرٍ مُتَجَلِّلٌ بِالعَجْسَـدِ

أَوْ أَصْفَرٍ مِنْهُنَّ كَالخَيْرِي فِـي ... حُسْنِ مَعَارِفِهِ كَخَطٍّ بِاليَـدِ

أَوْ أَبْلَقٍ حَسَنَ الحِجَالِ مُدَثَّرٍ ... وَ مُدَرْهَمٍ ومُقَصْدَرٍ ومُحَـدَّدِ

أَوْ أَشْقَرٍ أَصْدَى فَسَحْرَةُ لَوْنِـهِ ... سِحْرٌ وغُرَّةُ وَجْهِهِ كَالفَرْقَـدِ[2][3]

فتكرار الحرف "أو"، ساعد الشّاعر على رسم مشهد المعركة انطلاقا من وصف الخيول، ويظهر التّشاكل الصّوتي كذلك، في ترديد حرف الجرّ "عن":

قِفَا خَبرَانِي عَنْ رُسُومٍ نَوَاهِـجِ ... وَ عَنْ مَعْلَمَاتٍ طَيِّبَاتِ الأَرَائِـجِ

وَ عَنْ أَرْضِ نَجْدٍ والعَذِيبِ وبَارِقٍ ... وَ لاَ تُخْبِرَانِي عَنْ ذَوَاتِ الدَّمَالِـجِ[4]

---

[1]**عبد الحميد حاجيات**. المصدر السابق . 314.

[2]**الفرقد**: ولد البقرة. أنظر: **ابن منظور**. لسان العرب. مادة:( فرقد).

[3]**عبد الحميد حاجيات**. أبو حمّو موسى الزّياني. 229.

[4]**عبد الحميد حاجيات**.المصدر نفسه. 366.

أمّا في الأبيات التّالية، فالتّنغيم ينتج عن ترديد حروف المدّ على المستوى الأفقي للبيت:

أَسِيرُ هَوَاكُمْ قَتِيلُ نَوَاكُـمْ لَعَلَّ رِضَاكُمْ يَكُونُ قَرِيبَـا
فُؤَادِي عَلِيلٌ وجِسْمِي نَحِيـلٌ وَ سَقَمِي طَوِيلٌ قَدْ أَعْيَ الطَّبِيبَا
هَجَرْتُ الهُجُوعَ نَثَرْتُ الدُّمُوعَ فَسِرِّي أُذِيعَ وقَلْبِي أُذِيبَـا[1]

ومن بين مواطن التّشاكل الصّوتي الجميلة عند الشّاعر، ترديد أبي حمّو لكلمة واحدة مرّتين في الشّطر ذاته، سواء كانت بنفس المعنى أم لا، نورد البعض منها، وهي أمثلة منتقاة من قصائد مختلفة:

وَ جُلْتُ بِطَرْفِ الطَّرْفِ فِي عَرَصَاتِهَا كَجَوْلَةِ وَاهٍ أَوْ كَوَقْفَةِ هَائِـمِ
وَ خُضْتُ الفَيَافِي فَدْفَدًا بَعْدَ فَدْفَدٍ لِنَيْلِ العُلَى والصَّبْرُ إِذْ ذَاكَ لاَزِمِي
وَ جُبْتُ الفَيَافِي بَلْدَةً بَعْدَ بَلْـدَةٍ وَ طَوَّعْتُ فِيهَا كُلَّ بَاغٍ وبَاغِمِ[2]
نُطَارِدُ فِيهَا الخَيْلَ بِالخَيْلِ مِثْلِهَا فَكَانَ عَلَى الأَعْدَاءِ كَرَّ الهَزَائِمِ
حَمَلْنَا عَلَيْهِمْ حَمْلَـةً مَضَرِيَّـةً فَوَلُّوا فِرَارًا وِالْتَجُوا لِلْمَعَاصِمِ[3]

ممّا تقدّم، يتّضح، عناية أبي حمّو بشعره، وحرصه الشّديد على إكسابه ألوانا من التّشكيلات الموسيقيّة، التي تضفي عليه، رونقا وجمالا من جهة، ومن جهة أخرى ساعد على إيصال المعنى وتوضيحه، بصورة جذّابة ومحبّبة، تستسيغها النّفس، وتستعذبها الأذن.

ومجمل القول، في نهاية هذه الدّراسة، التي شملت، الموسيقى الشّعريّة، أنّ الشّاعر، كان وفيّا للنّموذج العربي التّقليدي قلبا وقالبا، حيث ألبس شعره البحور الطّويلة، واختار من القوافي، ما هو شائع في الشّعر العربي، فغلب على قوافيه، القافية المقيّدة، ونوّع بين المردوفة وغير المردوفة، بالإضافة إلى استعمال أكثر حروف الرويّ شيوعا في القصيدة العربيّة.

كما أنّ الشّاعر، قد بنى موسيقاه الدّاخليّة على ألوان مختلفة من الإيقاعات الصّوتيّة، التي أضفت على القصائد جمالا وحيويّة، وكانت أفضل مساعد، على تقريب الأفكار

---

(1) **يحي بن خلدون**. بغية الروّاد. 2: 162- 163.
(2) **أبو حمّو موسى الثّاني**. واسطة السّلوك في سياسة الملوك. 15- 16.
(3) **أبو حمّو موسى الثّاني**. المصدر نفسه. 17.

والانفعالات للمتلقّي، تمثّلت في الزّحافات والعلل، والتّصريع، والتّرصيع، وأخيرا، التّشاكل الصّوتي.

# قائمة المصادر والمراجع

# قائمــة المصــادر والمراجــع

**أوّلا: القرآن الكريم.**

**ثانيا: المصادر:**


**1) الإدريسي:**

- القارّة الإفريقيّة وجزيرة الأندلس. مقتبس من كتاب نزهة المشتاق. تحقيق: **العربي إسماعيل**. ديوان المطبوعات الجامعيّة. الجزائر. 1983.

- القارّة الإفريقيّة وجزيرة الأندلس. مقتبس من كتاب نزهة المشتاق .تحقيق: **هنري. بيرس**. الجزائر. 1951.

**2) الآغا بن عودة المزاري:**

- طلوع سعد السّعود. تحقيق: يحي بوعزيز. دار المغرب الإسلامي. الجزائر. (د.ت). ج1.

**3) أبو تمّام:**

- الدّيوان. شروح: إيليا الحاوي. دار الكتاب اللّبناني. بيروت. ط1. 1981.

**4) الجرجاني:**

- أسرار البلاغة في علم البيان. تصحيح: الإمام الشّيخ **محمّد عبده**. علّق حواشيه: محمّد رشيد رضا. دار الكتب العلميّة. بيروت. لبنان. ط1. 1409هـ. 1988م.

- دلائل الإعجاز. طبعة رشيد رضا. شركة الطّباعة الفنيّة الحديثة. القاهرة. 1961.

**5) الحاج محمّد بن رمضان شاوش:**

- باقة السّوسان في التّعريف بحاضرة تلمسان. ديوان المطبوعات الجامعيّة. الجزائر. 1986.

**6) حازم القرطاجني:**

- منهاج البلغاء وسراج الأدباء. تحقيق: **محمّد الحبيب بن خوجة**. دار الغرب الإسلامي. بيروت. ط1. 1966.

- منهاج البلغاء وسراج الأدباء . دار الغرب الإسلامي. بيروت. ط2. 1981.

**7) ابن حجة الحموي:**

- خزانة الأدب وغاية الأرب. مطبعة الخيريّة المصريّة. مصر. 1394هـ.

**8) أبو الحسن علي بن محمّد المارودي:**

- أعلام النبوّة. دار الفرجاني. القاهرة. 1985.

**9) الحفناوي:**

- تعريف الخلف برجال السّلف. سلسلة أنيس. سلسلة العلوم الإنسانيّة. 1991. ج2.

**10) أبو حمّو موسى الثّاني:**

- واسطة السّلوك في سياسة الملوك. مطبعة الدّولة التّونسيّة. تونس. 1279هـ.

**11) ابن رشيق القيرواني:**

- العمدة في صناعة الشّعر ونقده. تحقيق: **محمّد محي الدّين عبد الحميد**. دار الجيل. بيروت. لبنان .ط5. 1981. ج1.

- العمدة في صناعة الشّعر ونقده. تحقيق: **محمّد محي الدّين عبد الحميد** .دار الرّشاد الحديثة. الدّار البيضاء. المغرب. (د.ت).

**12) ابن سيّد النّاس:**

- عيون الأثر في فنون المغازي والشّمائل والسّير. تحقيق: **لجنة إحياء التّراث العربي في دار الآفاق الجديدة**. منشورات دار الآفاق الجديدة. بيروت. لبنان. ط3. 1402هـ. 1982م.

**13) ابن طباطبا:**

- عيار الشّعر. تحقيق: **الحاجري طه ومحمّد زغلول سلام**. المكتبة التّجاريّة الكبرى. القاهرة. 1956.

**14) عبد الحميد حاجيات:**

- أبو حمّو موسى الزّياني. الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع. 1974.

**15) عبد الرّحمان ابن خلدون:**

- المقدّمة. ط1. دار صادر. بيروت. ط1. 2000.

- التّاريخ. دار حزم للطّباعة والنّشر والتّوزيع. لبنان. 2003. المجلّد 2.

**16) أبو العبّاس أحمد بن عمّار الجزائري:**

- نحلة اللّبيب بأخبار الرّحلة إلى الحبيب. مطبعة فونتانا. الجزائر. 1902.

**17) أبو عثمان عمرو الجاحظ بن بحر:**

- الحيوان. تحقيق: **عبد السّلام هارون**. مطبعة مصطفى البابي الحلبي. القاهرة.1948. ج2.

**18) عمر بن أبي ربيعة:**

- الدّيوان. دار بيروت للطّباعة والنّشر. 1978.

**19) عنترة بن شدّاد:**

- الدّيوان. دار بيروت للطّباعة والنّشر. بيروت. 1978.

**20) أبو الفرج قدامة بن جعفر:**

- نقد الشّعر. تحقيق وتعليق: **عبد المنعم خفاجي**. دار الكتب العلميّة. بيروت. لبنان. (د.ت).

**21) الفرزدق:**

- الدّيوان. دار بيروت للطّباعة والنّشر. 1980. المجلّد 2.

**22) أبو الفلاح عبد الحيّ الحنبلي:**

- شذرات الذّهب في أخبار من ذهب. تحقيق: **لجنة إحياء التّراث العربي**. دار الآفاق الجديدة. (د.ت).

**23) كارل بروكلمان:**

- تاريخ الأدب العربي. الهيئة المصريّة العامّة للكتاب. 1993. ج(1-2).

**24) ابن كثير:**

- السّيرة النّبويّة. تحقيق: **عبد الواحد مصطفى**. دار المعرفة. بيروت. لبنان.1982. ج4.

**25) لسان الدّين ابن الخطيب:**

- الإحاطة في أخبار غرناطة. تحقيق: **محمّد عبد الله عنان**. الشّركة المصريّة للطّباعة والنّشر. القاهرة. ط1. 1974. المجلّد 2.

**26) محمّد بن عبد الله التّنسي:**

- تاريخ بني زيّان ملوك تلمسان. تحقيق: **بوعيّاد محمود**. المكتبة الوطنيّة الجزائريّة. الجزائر. 1985.

**27) محمود شكري الألوسي:**

- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب. نشر: **محمّد بهجت الأثري**. مصر. ط3. (د.ت).

**28) محي الدّين النّووي:**

- صحيح مسلم. حقّق أصوله وأخرج أحاديثه **الشّيخ مأمون شيحا**. دار المعرفة. بيروت. لبنان. ط3. 1417هـ. 1996م.

**29) ابن مريم:**

- البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان. ديوان المطبوعات الجامعيّة. الجزائر. 1986.

**30) ابن المعتزّ عبد الله:**

- كتاب البديع. نشر وتعليق: **غناطيوس كراتشكوفسي**. مكتبة المثنى. بغداد. ط2. 1399هـ-1979م.

**31) المقري:**

- نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب. تحقيق: **إحسان عبّاس**. دار صادر. بيروت. 1988. ج6.

- نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب. تحقيق: **محي الدّين. عبد الحميد**. القاهرة. 1949. ج1.

- أزهار الرّياض في أخبار القاضي عياض. أعيد طبع الكتاب بإشراف اللّجنة المشتركة لنشر التّراث الإسلامي بين حكومة المملكة المغربيّة وحكومة دولة الإمارات العربيّة المتّحدة. (د.ت).

**32) النّابغة الذّبياني:**

- الدّيوان. تحقيق: البستاني. دار بيروت للطّباعة والنّشر. بيروت. 1982.

**33) أبو نوّاس:**

- الدّيوان. حقّقه: أحمد عبد المجيد الغزالي. دار الكتاب العربي. بيروت. لبنان. (د.ت).

**34) أبو هلال العسكري:**

- كتاب الصّناعتين. تحقيق: **علي محمّد البجاوي ومحمّد أبو الفضل إبراهيم**. المكتبة العصريّة. صيدا. بيروت. 1986.

- كتاب الصّناعتين. تحقيق: مفيد قميحة. دار الكتب العلميّة. بيروت. لبنان. 1981م.

**35) يحي ابن خلدون:**

- بغية الروّاد في ذكر الملوك من بني عبد الواد. تحقيق: **حاجيات. عبد الحميد**. المكتبة الوطنيّة. الجزائر. 1960. ج1.

- و تحقيق: **ألفرد. بيل**. مطبعة فونتانا. الجزائر. 1911. ج2.

**ثالثا: المراجع:**

**1) إبراهيم أنيس:**
- موسيقى الشّعر. دار القلم. بيروت. (د.ت).

**2) أحمد السّعيد سليمان:**
- تاريخ الدّول الإسلاميّة ومعجم الأسر الحاكمة. دار المعارف. مصر. (د.ت). ج1.

**3) أحمد حسين الزّيات:**
- تاريخ الأدب العربي. دار نهضة مصر للطّبع والنّشر. القاهرة. (د.ت).

**4) أحمد حسين الزّيات:**
- دفاع عن البلاغة. عالم الكتب. القاهرة. ط2. 1967.
- الأصوات اللّغويّة. مكتبة أنجلو المصريّة. القاهرة. ط5. 1975.

**5) بشر كمال:**
- علم الأصوات. دار غريب للطّباعة والنّشر والتّوزيع. القاهرة. 2000.

**6) بوزيّاني الدرّاجي:**
- نظم الحكم في دولة بني عبد الواد الزّيانيّة. ديوان المطبوعات الجامعيّة. الجزائر. 1993.
- الحسبة المذهبيّة في بلاد المغرب العربي. الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع. الجزائر. ط1. 1971.

**7) جابر عصفور:**
- الصّورة الفنيّة في التّراث النّقدي والبلاغي عند العرب. المركز الثّقافي العربي. بيروت. ط3. 1992.
- مفهوم الشّعر. الهيئة المصريّة العامّة للكتاب. ط5. 1995.

**8) جودت فخر الدّين:**
- شكل القصيدة العربيّة في النّقد العربي حتّى القرن الثّامن الهجري. دار الآداب. بيروت. ط1. 1984.

**9) حسين بكّار:**

- بناء القصيدة في النّقد العربي. دار الأندلس. لبنان. ط2. 1983.

**10) حسين عطوان:**

- مقدّمة القصيدة في الشّعر الجاهلي. دار المعارف. مصر. 1970.

- مقدّمة القصيدة في العصر الأموي. دار المعارف. مصر. (د.ت).

**11) حنّا الفاخوري و جماعة من أساتذة اللّغة العربيّة:**

- منتخبات الأدب العربي. منشورات المكتبة البولسيّة. بيروت. ط5. 1970.

**12) حنا الفاخوري:**

- الجامع في تاريخ الأدب العربي. دار الجيل. بيروت. لبنان. ط1. 1986.

**13) الرّبعي ابن سلامة:**

- محاضرات في القصيدة العربيّة. منشورات جامعة منتوري. قسنطينة. 2002/ 2003.

**14) رجيس بلاشير:**

- تاريخ الأدب العربي. ترجمة: **الكيلاني إبراهيم**. المؤسّسة الوطنيّة للكتاب. الدّار التّونسيّة للنّشر. تونس. 1986. ج1.

**15) زكي مبارك:**

- المدائح النّبويّة في الأدب العربي. منشورات المكتبة العصريّة. صيدا. بيروت. (د.ت).

- التصوّف الإسلامي في الأدب والأخلاق. مطبعة الكتاب العربي. مصر. 1954.

**16) سامي الدّهان:**

- فنون الأدب العربي. دار المعارف. ط4. (د.ت).

**17) السّعيد الورقي:**

- لغة الشّعر العربي الحديث. دار النّهضة العربيّة للطّباعة والنّشر. بيروت. 1994.

**18) السيّد عبد العزيز سالم:**

- المغرب الكبير (العصر الإسلامي). دار النّهضة العربيّة. بيروت. 1981.

**19) شارل أندري جوليان:**

- تاريخ إفريقيا الشّماليّة. تعريب: **محمّد مزالي وبشير سلامة**. الدّار التّونسيّة للنّشر. 1978. ج2.

**20) شرف الدّين خليل:**

- أبو العتاهيّة. دار ومكتبة الهلال. بيروت. 1992.

**21) شوقي ضيف:**

- الرّثاء. دار المعارف. ط4. (د.ت).

**22) صالح مخيمر:**

- رثاء الأبناء في الشّعر العربي إلى نهاية القرن الخامس الهجري. مطبعة المنار. الزّرقاء . ط2. (د.ت).

**23) عبّاس الجراري:**

الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه. مكتبة المعارف. الرّباط. 1979. ج1.

**24) عبد الحليم حنفي:**

شعر الصّعاليك. الهيئة المصريّة العامّة للكتاب. ط1. 1997.

**25) عبد الدّايم صابر:**

موسيقى الشّعر العربي بين الثّبات والتطوّر. مكتبة الخانجي. القاهرة. ط3. 1993.

**26) عبد الرّحمان بن محمّد الجيلالي:**

تاريخ الجزائر العام. ديوان المطبوعات الجامعيّة. الجزائر. ط7. 1994. ج2.

**27) عبد العزيز المفالح:**

الصّورة في شعر بشّار بن برد. مطبعة دار الفكر. الأردن. ط1. 1953.

**28) عبد الغني حسن محمّد:**

نوابغ الفكر العربي (الشّريف الرّضي). دار المعارف. مصر. (د.ت).

**29) عبد الله حمّادي:**

دراسات في الأدب المغربي القديم. دار البعث للطّباعة والنّشر. قسنطينة. الجزائر. ط1. 1986.

**30) عبد الله شريط ومحمّد الميلي:**

الجزائر في مرآة التّاريخ. مكتبة البعث. قسنطينة. الجزائر. ط1. 1965.

**31) عبد المنعم خفاجي:**

الآداب العربيّة في العصر العبّاسي الأوّل. دار الجيل. بيروت. 1992.

**32) عسّاف ساسين:**

الصّورة الشّعريّة ونماذجها في إبداع أبي نوّاس. المؤسّسة الجامعيّة للدّراسات والنّشر والتّوزيع. بيروت. لبنان. 1982.

**33) علي الجندي:**

نفح الأزهار في مولد المختار. دار الرّائد العربي. بيروت. لبنان. 1970.

**34) علي بوملحم:**

في الأدب وفنونه. المطبعة العصريّة للطّباعة والنّشر. صيدا. لبنان. (د.ت).

**35) عمر فرّوخ:**

تاريخ الأدب العربي. دار العلم للملايين. بيروت. ط4. 1981. ج1.

**36) غازي طليمات وعرفان الأشقر:**

- الأدب الجاهلي. دار الفكر. سوريّة. 2001.

**37) فتحي عامر:**

من قضايا التّراث العربي (الشّعر والشّاعر). منشأة المعارف. الإسكندريّة. (د.ت).

**38) مبارك بن محمّد الميلي:**

- تاريخ الجزائر في القديم والحديث. مكتبة النّهضة الجزائريّة. الجزائر. 2004. ج2.

**39) محمّد حسين عبد الله:**

- الصّورة والبناء الشّعري. دار المعارف. مصر. 1981.

**40) محمّد عيسى الحريري:**

- تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني. دار القلم للنّشر والتّوزيع. الكويت. ط2. 1987.

**41) محمّد مصطفى أبو شارب:**

- جماليّات النصّ الشّعري. دار الوفاء لدنيا الطّباعة والنّشر. الإسكندرية. ط1. 2005.

**42) محمّد رضا رشيد:**

- ذكرى المولد النّبوي. مطبعة المنار. مصر. ط1. 1295هـ.

**43) محمّد ابن تاويت ومحمّد الصّادق عفيفي:**

- الأدب المغربي. مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللّبناني للطّباعة والنّشر. بيروت. . ط2 1969.

**44) محمّد طمّار:**

– تاريخ الأدب الجزائري. الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع. الجزائر. (د.ت).

– تلمسان عبر العصور. المؤسّسة الوطنيّة للكتاب. الجزائر. (د.ت).

– الرّوابط الثّقافيّة بين الجزائر والخارج. الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع. الجزائر. 1983.

**45) محمّد كراكبي:**

– خصائص الخطاب الشّعري في ديوان أبي فراس الحمداني (دراسة صوتيّة وتركيبيّة). دار هومة للطّباعة والنّشر والتّوزيع. الجزائر. 2003.

**46) محمود أمين وآخرون:**

– في قضايا الشّعر العربي المعاصر. المنظّمة العربية للتربيّة والثّقافة والعلوم.إدارة الثقافة. تونس. 1988

**47) محمود بوعياد:**

– جوانب من الحياة في المغرب الأوسط. الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع. الجزائر. (د ت).

**48) مصطفى صادق الرّافعي:**

– تاريخ آداب العرب. دار الكتاب العربيّ. بيروت. لبنان. 2003. ج1.

**49) مصطفى حركات:**

– قواعد الشّعر. المؤسّسة الوطنيّة للفنون المطبعيّة وحدة الرّغاية. الجزائر. 1989.

**50) موسى لقبال:**

– الحبسة المذهبية في بلاد المغرب العربي. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. ط1. 1971.

**51) مي يوسف خليف:**

– القصيدة الجاهليّة في المفضليّات. دراسة موضوعيّة فنيّة. مكتبة غريب. مصر. 1989.

**52) أبو ناجي:**

– الرّثاء في الشّعر العربيّ. مطبعة الحياة. بيروت. لبنان. 1402هـ.

**53) هلال غنيمي:**

– النقد الأدبي الحديث. دار الثقافة. بيروت.لبنان. دار العودة.بيروت.لبنان.1973.

**54) يحي الجبوري:**

- الشعر الجاهلي(خصائصه وفنونه). مؤسسة الرسالة. ط3 .1983.

**55) يحي بوعزيز:**

- تلمسان. منشورات وزارة الثّقافة والسّياحة. الجزائر. (د.ت).

## رابعا: الرّسائل الجامعيّة:

**1) امحمّد فورار بن لخضر:**

- الشّعر الأندلسي في ظلّ الدّولة العامريّة. رسالة ماجستير. جامعة قسنطينة. معهد الآداب واللّغة العربيّة. 1995.

**2) محمّد زلاقي:**

- بناء القصيدة المولديّة في المغرب الإسلامي. رسالة دكتوراه. جامعة بسكرة. كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة والاجتماعية. قسم الأدب العربي. 2005/ 2006.

**3) موسى محمد عيسى:**

- ابن عبد ربّه وشعره(دراسة تحليلية). رسالة دكتوراه(الدور الثالث). جامعة الجزائر. معهد اللغة والآداب العربي. 1985-19869.

**4) نوار بوحلاسة:**

- الشّعر الزّياني (633-692هـ/ 1235- 1554م). رسالة ماجستير. جامعة قسنطينة. معهد الآداب واللّغة العربيّة. 1989.

## خامسا: المجلاّت:

**1)** مجلّة الأصالة. السّنة الأولى. العدد 6. جانفي. 1972.

**2)** مجلّة الأصالة. السّنة الرّابعة. العدد 24. مارس- أبريل. 1975.

**3)** مجلّة الأصالة. السّنة الرّابعة. العدد 26. جويلية- أوت. 1975

**4)** مجلّة فصول. تراثنا الشّعبي. العدد 2. المجلّد 4. يناير. فبراير. مارس. 1984.

**5)** مجلّة مجمع اللّغة العربيّة بدمشق. ج4. المجلّد 79. أكتوبر. 2004.

**سادسا: المعاجم:**

**1) الحموي:**

- معجم البلدان. دار صادر للطّباعة والنّشر– دار بيروت للطّباعة والنّشر. بيروت. 1957.

**2) عادل نويهض:**

- معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتّى العصر الحاضر. مؤسّسة نويهض الثّقافيّة لتّأليف والتّرجمة والنّشر. بيروت. لبنان. ط3. 1983.

**3) ابن منظور:**

- لسان العرب. دار صادر. بيروت. 1997.

# الإهــــداء

**إلى من أدين لها بكل قطرة من دمي**

**إلى من تعتصر جهدا واجتهادا من أجل سعادتي**

**إلى من تسندني بكل حب، وتدفع بي قدما**

**لتجعل من تعبها و أرقها وشاح سلام يحميني**

**مـدى الحيــاة.**

**إلى التي أحببتها وأحبها وسأحبها**

**أمـي الغاليــة.**

**إلى أختي التي لم تلدها لي أمي، إلى أرقى صور الصداقة وأسمى أمثلة التآخي في الله.**

**إلى هبة ربي ومنته عليّ**

**إلى من تقاسمي الروح والأنفاس**

**حبيبتـي هناء منـاوي.**

**إلى كل من يحبونني وأحبهم.**

**إلى كل من شجعني ولو بكلمة.**

**إلى كل هؤلاء أهـدي**

**ثمرة جهدي واجتهـادي.**

# الشـــــكر

أتقدم بالشكر لأستاذي الجليل الذي ساعدني كثيرا، بصبره

و حلمه وتوجيهه، الدكتور فورار امحمد بن لخضر

وإلى كل دكاترة وأساتذة معهد الأدب العربي

الذين لم يبخلوا علينا بعلمهم و برعايتهم

إلى كل زملائي وزميلاتي طلبة دفعة 2005

# خــــــــاتمة

## خـــاتمة

في آخر هذا البحث، وبعد ما مرّ معي، أستطيع أن أحدد أهم الخطوط العريضة التي ميزت العمل، من خلال نتائج عامة، قد تم التوصل إليها، وتتمثل فيما يلي:

**أ/ المستوى النظري:**

1- أنّ عصر الشاعر كان زاخرا بالأحداث السياسية، كما أنّ أبا حمو يعدّ أحد صانعي الأحداث، وقد تميّز عصره بكثرة الحروب والمعارك، حيث لم ينعم الشاعر بالاستقرار إلا قليلا.

2- بالرغم من سوء الظروف السياسية، شهد عصر أبي حمو رقيا اجتماعيا، بفضل استقطاب تلمسان للتجار وأهل الصناعات، إضافة إلى عطاء الشاعر على سكان إمارته والقبائل الموالية له.

3- لم تشهد الدولة الزيانّية تطورا حضاريا وفكريا كالذي كان في عهد أبي حمو حيث شجّع العلماء والأدباء والمفكرين، فتنافس هؤلاء في إبداعاتهم حتى جعلوا من تلمسان إحدى أهم حواضر المغرب الإسلامي ثقافيا.

4- لقد كانت المصادر التاريخية شحيحة، في تزويدنا بمعلومات تخصّ حياة الشاعر قبل الإمارة، ويمكن القول، إنّ اهتمام المؤرخين به كشاعر، لم يبدأ إلا بعد الملك.

5- حياة الشاعر لم تعرف الاستقرار، منذ طفولته، إذ عانى من الغربة صغيرا ثم شابا، وعلى الرغم من ذلك، تمكّن من التزّود بشيء من أنواع العلوم والآداب.

6- تعرّض الشاعر إلى هزات قوية في محطات مختلفة في حياته وعلى الرغم من ذلك، ظلّ قويّا صامدا حتى آخر لحظة في حياته.

**ب/ المستوى التطبيقي:**

1- لم تكن الأغراض الشعرية التي وصلتنا كثيرة وهي لم تتعد أربعة أغراض،وتعدّ قليلة قياسا إلى شاعرية أبي حمو، لذلك نرجّح أنّ لها أخوات، لم يكشف الستار عنها بعد.

2- أنّ أغلب شعر أبي حمو كان في المولديات التي ضمّت أجود القصائد، وهو بذلك يحاكي ما شاع في عصره.

3- تباين شعره بين ما هو جيّد، وما هو حسن، وما هو دون ذلك، بسبب الظروف التي أفرزت تلك القصائد، مع العلم أنّه لم يملك الوقت لمراجعتها، والتعديل فيها، بسبب الحياة غير المستقرة التي كان يعيشها.

4- أنّ شعر أبي حمّو قد خلا من المجون والخلاعة، حتى في مقدماته الغزلية، التي استخدم فيها الرمز إلى الحبيب تلمسان، وقد سادت الروح الإسلامية شعره، وهذا دليل على قوة إيمانه وتشبّعه بالتعاليم الدينية.

5- يبتعد شعر أبي حمّو، عن المغالاة والصنعة، فقد تلّون شعره، بالصدق والواقعية، مما جعله قريبا من النّفس يشّد القارئ ويستميله.

6- ظلّ شعر أبي حمو وفيّا للقالب التقليدي للقصيدة العمودية، سار فيه على خطى الشعراء الأوائل، من أنواع المقدمات المعروفة، كالطلل والغزل والشيب والشباب كما استخدم التخلص' للوصول إلى الغرض الرئيسي، ومن ثم ينهي قصائده بخاتمة مناسبة.

7- استقى الشاعر لغته من المعجم الإسلامي، والمعجم العربي القديم، حيث ظهر توظيفه للألفاظ الإسلامية، خاصة في المولديات، كما كانت أشعاره غنية بألفاظ تراوحت بين الرقة والجزالة، وبين الحسية والمعنوية، محاكيا في ذلك من سبقه من فحول الشعر العربي.

8- تميّز أسلوبه بكثرة توظيف الأسماء، بمختلف أنواعها، إضافة إلى ظاهرة التكرار اللفظي التي طبعت شعره.

9- يتجلى تأثر الشاعر بالقرآن الكريم، والشعر القديم، من خلال الصور الشعرية المشكلة، حيث جعل هذين المنبعين مصدرا لجلّ صوره.

10- كان شعر أبي حمو غنيا بأنواع الصور الشعرية البيانية، كالاستعارة والتشبيه، والبديعية كالطباق والجناس، وهو بذلك قد سار على خطى الشعراء الأوائل، كما أنه لم يخرج عمّ شاع في عصره، من استخدام ألوان البديع.

11- كان الوزن عند أبي حمو، وفيا للشعر العربي القديم، حيث اعتمد على البحور الطويلة.

12- كما استخدم نفس القوافي التي سجلت حضورا واسعا في الشعر القديم، وكانت القافية المطلقة هي المسيطرة على شعره.

13- أمـا الموسـيقى الداخليـة، فقـد اسـتطاع الشـاعر أن يوظـف مجموعـة مـن الإيقاعـات الصـوتية، التـي تحـدث تلوينـا إيقاعيـا داخليـا، بـالموازاة مـع الإيقـاع الخـارجي، وتمثلـت فـي الزحافات والعلل، التصريع والترصيع، وأخيرا التشاكل الصوتي.

ولا تعد هذه النتائج والأحكام نهائية أو مطلقة، بل هي نسبية تقبل المناقشة والإضافة، وهي تمثل أقصى ما استطعت الوصول إليه، وأملي أن أكون قد لامست جانب الصواب فيها.

وأخيرا، أتمنى أنّني وفقت في دراسة شعر أبي حمو وتحليله، وفتحت المجال لبداية عمل أوسع وبحث أدق وأشمل، لقراءة أشعار أبي حمو، علّها تكون أفقا من آفاق بحث علمي جاد يهتم بتراثنا الأدبي، ويعمل على إخراجه إلى النور.

وآخر القول الحمد لله رب العالمين، الذي منّ عليّ بإنهاء المذكرة، وما توفيقي إلا بالله.